

شخصيات حق علينا معرفتها

في ظلال الدولة العثمانية

(من الترحال حتى الخلافة)

مصطفى محمود زكي

إهداء في كلمة ودعاء

عندما تموت الأم تموت الأمانى، وعند دفنها فإنك تدفن معها
الضحكات والبسمات.

والله، يبقى الرجل شاباً إلى أن تموت أمه فيدب في جسده الوهن،
ويشتعل في رأسه الشيب، ويموت في حياته كل جميل.
وكلمة لكل ابن له أم على قيد الحياة ولا يقبل قدمها ليلاً نهاراً، والله
لتندمنَّ أشدَّ الندم، فعند فراقها ستعلم أن أجمل لحظة في حياتك هي أن
تكون تحت قدمها تمرغ جبينك في ثرى قدميها، وترتمي بين أحضانها
ولا تتكلم بل تصمت وهي تربتُ على كتفَيْكَ وتحصنك بدعائها، حينها
فقط تشعر "أنك لا تريد شيئاً من هذه الدنيا".

وصدق القائل من ماتت أمه فقد أصبح يتيماً قليل الحيلة، فالأم هي
رحمة الله في الأرض وعندما تموت فرحمة الله تذهب إلى رحمة الله.
اللهم أرحم أمي وأمهات المسلمين.

فأليك يا أمي أهدي هذا الكتاب سألأ المولى سبحانه أن يرحمك ويدخلك
فسيح جناته ويلحقنا بك على خير

اللهم آمين

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعلى آله المستكملين الشرف. فالحمد لله الذي أنزل في أرضه السُّنن التي لا تتبدل ولا تتغير، فالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي علّمنا وأصحابه أهمية التاريخ، وجلال شأنه فاهتم الصحابة بسرد السيرة، وتعليمها، وكذلك المغازي، فكانوا يعلمونها أبناءهم كما يعلمون القرآن، وهذا الأمر يوضح جلياً أهمية التاريخ في عهد النبوة وما بعدها لبحث الأمة على فهم تاريخها فهماً صحيحاً، بل إن من يدقق النظر في القرآن الكريم - المنزل من لدن حكيم خبير- سيجد أكثر من ثلثه قصصاً، فهل هذه مصادفة؟! بالتأكيد لا.

بل من عجائب المقدور أن يكون في الكتاب المستمر على مر العصور، والم محفوظ من رب البرية الحميد الشكور، سورة تسمى القصص، بل وقوله تعالى: فأقص القصص، فهل كل هذا مصادفة؟

لا والله ما كان كذلك وما يمكن أن يكون كذلك، فالله هو الحكيم وأنزل الفرقان من لدنه ليصلح البشر وليعرفهم رب البشر، والقصص التي ذكرت في القرآن ما كانت إلا تنبيهاً حتى يفهم أولو الأبواب والبصيرة أن في القصص والتاريخ عبرة، ولكن لمن يعتبر؛ وعلى هذا تظهر بجلاء واضح أهمية التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة.

بل كان الأمر الرباني بالاهتمام بتجارب الأمم السابقة؛ لأخذ العبرة والعظة دائماً وابدأً، فالقرآن ينقسم إلى ثلاثة أقسام، **الأول** يشمل العقائد **والثاني** الأحكام الشرعية، أما الثالث فهو الذي يشمل تجارب الأمم، وذلك لأخذ العبرة والعظة منها مع التدبر والتبصر بما كانت عليه، أي الأحداث التي حدثت لهذه الأمم، وكيف نهضت وتقدمت، وكيف انهارت وضاعت وهلك.

ومن المعلوم أن التجربة لا دين لها أي لا يشترط إسلام القائم بها، سواء كان فرداً، أو دولة، أو أمة، فقد تنحرف أمة أو فرد ليكون عبرة، فالقرآن لم يذكر سيرة الأنبياء والصالحين فقط بل ذكر الكافرين والظالمين والمنافقين حتى يكون لنا خبرة بأحوال السابقين فنتجنب ما سقطوا فيه من أخطاء وبُعْدٍ عن الله.

ومن تقسيمات القرآن الكريم أيضا وفقاً لمناهج علوم القرآن أنه مقسم إلى قسمين الأول مكي والثاني المدني، ومن ينظر بعناية في القرآن المكي سيجد أن أهم ما يميزه عن المدني هو نزول قصص الأنبياء الكاملة في هذه المرحلة أي المرحلة المكية، تلك المرحلة التي كانت تتميز ببناء العقيدة الصحيحة في الجيل الذي سوف يحمل هم الرسالة الإسلامية بعد ذلك، وقد كان، فكان ينزل القصص القرآني على رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ليمهد لهذا الجيل الناشئ أمرَ دينهم، وعقيدتهم، ومهمتهم، ورسالتهم التي سوف يحملونها بعد ذلك، وهذا ما يبرز أهمية القصص التاريخي المؤثر في بناء الأمة الإسلامية، فإذا كانت أهميته بهذه القوة والخطورة بأن يكون قرأنا يتلى إلى يوم الدين، وكان نزوله في مرحلة البناء، فكل هذا إشارات إلى أهمية هذا التاريخ والقصص التاريخي.

وفي مرحلة المدينة، اهتم القرآن بالإشارة إلى القصص القرآني ولو بجزء من قصة موسى أو عيسى أو نوح أو هود عليهم السلام، فهذا أيضا يؤكد على أهمية التاريخ والقصص التاريخي، بالقرآن الكريم الذي هو دستور ومنهج هذه الأمة التي يجب أن تتبع ولا تتبدع.

كذلك تجد كثيراً من الآيات الكريمة التي يذكرها القرآن الكريم تُنَبِّه إلى أهمية التاريخ والأحداث التاريخية التي حدثت للسابقين لنا فقولُه تعالى: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ

وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(١).

ففي هذا إشارة من رب العزة -عز وجل- إلى الأمة كاملة أن انتبهوا إلى ما حدث من قبل للأمم السابقة الذين كانوا أشد قوة منا ورغم ذلك هلكوا وولّوا وانقضوا نتيجة الأخطاء التي وقعوا فيها والتي لا بد أن نحذرنا.

وكذلك في قوله تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} ففي قوله تعالى قل سيروا في الأرض، أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المكذبين: سافروا في الأرض فانظروا واستخبروا لتعرفوا ما حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب، وهذا السفر مندوبٌ إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار، والعاقبة آخر الأمر، والمكذبون هنا من كذب الحق وأهله لا من كذب بالباطل.

وسنجد في القرآن الكريم تكرارًا لكلمة أُولَمْ يَرَوْا كما في قوله تعالى: {أُولَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَكْفُكُمْ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}^(٢)، وقوله تعالى: {أُولَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}^(٣).

بل إن القرآن يشير إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكلام واضح وجليٍّ إلى أهمية معرفة تاريخ الأمم السابقة، ويعرفه إياها، فنجد قوله تعالى {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ} فهنا نجد الرد القرآني بطريقة سرد الحدث التاريخي للأمم السابقة ليكون حجة على أهل الكتاب ليكتبهم ويبهتهم

(١) سورة الروم الآية ٩

(٢) الرعد الآية ٤١

(٣) السجدة الآية ٢٧

فتجد قوله تعالى في ذات الآية {قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.
فكل هذا إشارة إلى أهمية التاريخ وأهمية الاستفادة من تجارب الأمم السابقة، بل هو فرض على المسلمين أن يعرفوا عن الأمم السابقة لأخذ العبرة والعظة، فننتهج نهجهم في طاعتهم وتقدمهم ورقبيهم، ونتجنب أفعال الظالمين والعصاة وما ترتب عليها من عاقبة، وإلى غير ذلك من العبر والعظات.

ولأن السنة هي جزء من الوحي الرباني على رسول الله؛ فلذلك جاءت موافقة للقرآن من حيث الاهتمام بالتاريخ، بل إن السنة النبوية والتي يجب على المسلمين فهمها بشكل جيد حتى نعيش حياتنا وفق لما يريد الله سبحانه-إنما هي تاريخ وإن كانت كلمة السنة تختلف باختلاف المجال الذي يتم تناولها فيه، فإذا أُخِذَتْ في مجال العبادات فيُقصدُ بها السنة التي يُثاب فاعلُها ويُلام تاركُها، وإذا أُخِذَتْ في مجال التاريخ فيُقصدُ بها سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم -.

ولا يخفى على أحد أهمية السيرة النبوية إلى يومنا هذا، والتي هي بداية التاريخ الإسلامي، الذي يبدأ بمولد النبي وتنتهي بوفاته -صلى الله عليه وسلم -.

ففهْمُ السيرة النبوية وأحداثها فهْمًا صحيحًا يجعلُك تحب النبي -صلى الله عليه وسلم - وتحب دينك حبًا شديدًا وتسعى للمحافظة عليه والعمل به، والزج عنه، بل تجعلك تفهم لماذا بكى الصحابة بكاء شديدًا عند موت النبي -صلى الله عليه وسلم -حتى صاروا في الطرقات يتخبطون كأنهم طيرٌ بلَّه المطرُ، وتفهم لماذا يضحى الصحابة بالغالي والنفيس في سبيل نصره هذا الدين، وتفهم لماذا يفعل المجاهدين ذلك، ولماذا تُرْفَضُ الأموال الطائلةُ والمناصبُ والكراسيُّ في سبيل هذا الدين، ولماذا تُقْتَلُ الأنفسُ ولا يَمَسُّ الدينُ بأذى.

فعلم السيرة هو علم الآخرة والدنيا كما قال الإمام الزهري، بل روي عن إسماعيل بن محمد بن سعد أنه قال "كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وسراياه ويَعُدُّها علينا ويقول: يا بني هذه مآثرُ آبائكم فلا تضيعوا ذكرَها" أي كان يربي أبنائه على فهم السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بفهم صحيحٍ واعٍ بل، وكان يَعُدُّها عليهم عداً.

وفي هذا الصدد تجدُ الإمام ابن الجوزي -رحمه الله- يقولُ في صيد الخاطر: رأيتُ
الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق
والنظر في سيرة السلف الصالح، وأصلحُ السير سيرةُ نبينا -صلى الله عليه وسلم-.

ففهم السير والتاريخ الإسلامي يجعلنا نفهم أموراً كثيرة ونتعلم أموراً أكثر:
كتعلمنا أخلاق النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضوان الله عليهم- كيف كانوا
يعيشون؟ وكيف يتعاملون؟ في السراء والضراء، في الجلم والغضب، في كل
الأحوال.

بل فهم السيرة النبوية التي هي جزء من التاريخ الإسلامي تجعلنا نحقق شرط الشهادة
الثاني وهو شهادة أن محمداً رسول الله، إذ بفهمنا للسيرة النبوية يساعد على تطبيقها
تطبيقاً صحيحاً بعد ذلك كما في زمن الصحابة -رضوان الله عليهم-.
وتجعلنا نتأسى بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ونستخرج الدروس والعبر من سيرته
العطرة وكذلك من التاريخ ككل.

ومن الأدلة الهامة في السنة النبوية والتي تؤكد على أهمية القصص التاريخي
وتجارب الأمم السابقة كي نأخذُ بها ونعرف منها ونستفيد ما حدث بقصة الإسراء
والمعراج، فعندما أُسري بالنبي إلى السماء وفرضت الصلاة خمسين صلاةً، ونزل
من عند سِدْرَةِ المنتهى ووجدَ موسى -عليه السلام- الذي لما علم بذلك قال: اسأَلْ رَبَّكَ
التخفيفَ، وفعل النبي، حتى أصبحت خمس صلوات في اليوم والليلة، وقد علل ذلك
بقوله إني جربتُ الناسَ قبْلَكَ، فمقصدُ الكلام هنا أن التجربة معتبرة ولا بد من الأخذِ
بها ووضعها موضعَ النظر، بل إن النبي في هذا الأمر عمِلَ بكلام نبي الله موسى
لأنه جرَّبَ الناسَ من قبلُ ويعلم تحمُّلهم وطاقتهم، فسأَلَ الله التخفيفَ حتى وصلت
خمسًا بالعمل وخمسين في الأجر.

فكل هذا وغيره يؤكِّد أهمية التجارب السابقة للأمم، وأهمية التاريخ والقصص
التاريخي، والتراجم والسير.

فالتاريخ هو ذلك العلم الأبدي، الذي ما إن استمرت في الدنيا حياة استمر، فهو قائم بوجودها، ومستمر على استمرارها، ويموت بموتها، لذا فهو العلم الأول للمعرفة الإنسانية، بل به تُعرف الإنسانية حقيقتها، فتقف عليها، وتتخذ منه سراجاً ونوراً لما تبقى من الحياة لها، فلا تقترف ما أقترفت، وتدارك ما يرتكب، وتعي ما يجب أن يفعل.

فيه نعرف كيف قامت ونهضت واستمرت حياة الأمم، وكيف أفلت وولت وانقضت، فلكل دولة من الدول نشأتها وهويها وطبيعتها التي لا تُعرف إلا بالتاريخ، فهو مرآتها، حيث يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم من خلاله مستقبلها.

لجأ إليه الأعداء الباغون والكارهون للأمة- فيما لجأوا إليه- لتفريق جمعها، وتشيت أمرها، وتهوين شأنها، فدسوا فيه من الأمور خبيثها، ومن الأقوال فاسدها حتى يفسدوا كثيراً من الحقائق، ويقلبون كثيراً من الوقائع، ليقيموا تاريخاً يوافق أغراضهم، ويخدم مآربهم، ويحقق ما يصبون ويربون إليه، من تشيت لشمنا، وتمزيق لأحلامنا، وتدمير ديننا، فنصبح فارغى العقيدة، مطموسي الهوية، مشردي الهيئة وغريبي أطوارها، فنصبوا إلى الغرب الذي صاروا حلماً يُبغى وهدفاً يُرجى، فيتخذ منهم القدوة وتسير إليهم الرحل، فيصبحون المنبر، والبوق الذي يبت السموم في قول معسول، وفعل ممدوح، يستخفون به العقول، فنصبح عقولاً وقلوباً غريبة، ولكن بالأسن العربية.

بل إن فهم التاريخ فهماً صحيحاً يجعلنا نفهم الواقع الذي نحياه الآن فهم العارفين، ونتصرف تصرف الحكماء المتفهمين، ويجعل القرارات التي نتخذ في المواقف الحاسمة على قدر المقام.

فمعرفة التاريخ بمعرفة المتفهمين وليس معرفة القارئ العابر الذي ينتقي ما يعجبه ويمر، تجعل الفاهم للتاريخ يستطيع أن يتكلم مع الناس بفهم راقٍ ومحبة خالصة، بل

تجعله قادراً على انتقاء الكلام والأحداث التي يعرضها، وينتقي طريقة لعرضه التي ستختلف وفقاً لتفهمه لواقع الناس.

ففي الحديث المرفوع والذي أخرجه مسلم في خطبة كتابه أن ابن مسعود، قال: مَا أَنتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَتْلُوهُ عُقُولُهُمْ؛ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ" وَقَالَ عَلِيٌّ حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!

فيدون الفهم الصحيح للمنطق التاريخي بتحليل للأحداث والوقائع لن تستطيع أن تحدث الناس بما يفهمون.

بل حتى على الجانب السياسي فمعرفة ما حدث فيما مضى يجنبنا الأخطاء التي قد تقع فيها، فكما قيل في الحديث لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين، فإذا علم الإنسان أن موقفًا ما يحدث ويعودته للتاريخ يجد مواقف مشابهة له فهُنا يحسن التصرف السياسي ليكون على درجة عالية من الحكمة وحسن التصرف، ولذلك نقول إنه فرض على كل حاكم يريد أن يتقدم ببلده أن يفهم التاريخ فهماً عالياً، إذ التاريخ يعرفنا أعداءنا وحلفاءنا ولم ولن نستطيع بدون الفهم التاريخي أن نعرف مع مَنْ نتحالف ومع مَنْ نُبرِّمُ الاتفاقيات والمعاهدات، ومن نعادى، ومن الذي سيفي بعهدي ومن الذي لن يفي بعهود.

فلذلك نقول إنَّ التاريخ هو بوابة المستقبل؛ لأنه يوضح لنا الرؤية بجلاء شديد؛ مما يجعلنا على دراية بالأمر، فإذا عدنا للتاريخ على سبيل المثال سنجد أن اليهود لم ولن يفوا بعهود وأن هذه عادتهم التي يؤكدوا القرآن، وبإسقاط على الواقع الذي نعيشه الآن، فاليهود كذلك لا يمكن إبرام معاهدات معهم دائمة، لأنهم قوم خيانة ولذلك لا يمكن أن تسند ظهرك وتستريح نظير إبرام معاهدة معهم.

وكذلك الحال في كون إبرام معاهدة مع دولة تدين بالبروتستانتية، فهؤلاء لا يمكن توقيع معاهدة معهم تكون في غير صالح اليهود، ذلك لأن ولاءهم الأول

والأخير لليهود واليهودية ثم أي شيء آخر بعد ذلك ولو كان مصالحهم، وذلك كحال الأمريكان^(٣)، ولكن بالحديث عن الكاثوليك فستجد أنهم والأرثوذكس من الممكن إبرام معاهدة معهم ولكن بحذر.

فخلاصة ذلك نستطيع القول بأن التاريخ هو بوابة النصر ذلك إن أردنا الانتصار في المعارك، أو التقدم على العدو بخطوة، فلن يتأتى ذلك إلا بمعرفة نقاط قوته، ومواطن ضعفه، وهذا لن يكون إلا بمعرفة تاريخه، وتاريخنا معرفة صحيحة، وافية، فجنور العدو التاريخية، هي البوابة الصحيحة للنصر.

فالتاريخ سلاح فتاك، به تحيا النفوس وتتهزم، ولهذا يلعب أعداؤنا به بتشويبه في أعيننا وتجهيلنا وإبعادنا عنه، حتى لا نعرف كم نحن أقوياء، فالتاريخ بوابة النصر.

وقبل طرق هذا الباب، لابد من أولاً الإيمان بالله وذلك قبل أن تطرق الباب، وثانياً معرفة تاريخك وما يؤهلك لأن تطرق هذا الباب، وثالثاً معرفة عدوك تجعلك أهلاً لأن يوضع لك المفتاح استعداداً لفتحه، ورابعاً ما إن تبدل الجهود بأقصى ما تستطيع فهذا يجعل الباب يفتح لك على مصراعيه.

وإياك وأن تخطو خطواتك عمياء بلا معرفة ظناً أن هذا سبيل نصر، فهذا جهل يؤهلك لأن تسحق شر سحقة، تحت أرجل الأعداء، فالمعرفة بالتاريخ تجعلك حذراً في خطواتك، بل عارفاً فاهماً لما قد يدبره لك الخصوم لذلك نؤكد أن التاريخ بوابة النصر.

ونختم بإضافة نقطة توضح إحدى استخدامات التاريخ عندما يكون علم آلة إذ به نستطيع أن نعرف التعارض بين الروايات ومعرفة الرواة الكذابين والمُدَّسِين

(٣) وتوجد شواهد كثيرة تؤكد مثل أحداث السفينة لوبرتي.

وغير ذلك، فمثلاً لو قال رأيته قبل عام من وفاته أو شهر ونحو ذلك فهذا يوضح بجلاء تاريخ يبنني عليه أشياء أخرى.

وقد قال سفيان الثوري-رحمه الله - "لَمَّا اسْتَعْمَلَ الرِّوَاةُ الْكَذِبَ اسْتَعْمَلْنَا لَهُمُ التَّارِيخَ"، وعن حسان بن زيد قال "لم يُسْتَعَنْ على الكذابين بمثل التاريخ، يُقال للشيخ سنة كم وُلِدَتْ، فإذا أقرَّ بمولده مع معرفتنا بوفاة الذي انتمى إليه عرفنا صدقه من كذبه"

وعن حفص بن غياث القاضي قال إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين.

وسأل إسماعيل بن عياش رجلاً اختياراً أي سنة كتبت عن خالد بن معدان فقال سنة ثلاث عشرة ومائة فقال: أنت تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين، وروى سهيل بن ذكوان أبو السندي عن عائشة وزعم أنه لقىها بواسط، وهذا كذب؛ فموت عائشة كان قبل أن يخط الحجاج مدينة واسط بدهر.

ومن ذلك ما ادّعه اليهود أن كتاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بأسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادة الصحابة- رضي الله عنهم - وذكروا أن خط علي- رضي الله عنه فيه وحمل الكتاب في سنة سبع وأربعين وأربعمائة إلي رئيس الرؤساء أبي القاسم علي وزير القائم، فعرضه علي الحافظ الحجة أبي بكر الخطيب فتأمله ثم قال: هذا مزور، فقيل له من أين لك هذا، قال: فيه شهادة معاوية، وهو أسلم عام الفتح، وفتح خيبر كان في سنة سبع، وفيه شهادة معاذ وهو قد مات يوم بني قريظة قبل فتح خيبر بسنتين، فاستحسن ذلك منه واعتمده وأمضاه ولم يجز اليهود على ما في الكتاب لظهور تزويره.

فالتاريخ يفتح أبوابه للمعرفة بلا حدود وفي كل المجالات، وإننا نحاول أن نظهر ونُجمل في القول لإيضاح فوائد العلم التاريخي وحتى لا نطيل أكثر من ذلك فإننا سنوضح هذه الأمور بشكل أكبر في مؤلف خاص بها إن شاء الله تعالى.

وبعد كل هذا العرض الذي أوضحنا فيه أهمية التاريخ من حيث القرآن والسنة والواقع وغير ذلك فقد يتبادر إلى الأذهان تساؤلٌ عن أهمية معرفة الشخصيات وكذلك ما أهمية دراسة الحقبة العثمانية؟

فبدائية وعن أهمية فكرة الشخصيات من حيث دراستها وتفنيدها وتوضيح ما بها من نقاط قوة وضعف، بل ونوصي بالشخصيات التي أضافت للمسلمين أن تكون قدوة؛ وذلك لأن الأحداث التاريخية لا تصنع نفسها بنفسها، وإنما يصنعها أشخاص تحركوا خطوات نحو هدفهم سواء من يحاول أن يخدم أو يهدم دين الله تعالى؛ فبتحركه يبدأ الحدث التاريخي وبالتالي تظهر بجلاء أهمية دراسة الشخصيات التي سنفهم بها الحدث التاريخي بشكل أكبر وخصوصاً عند فهم عقائد الأشخاص والمجتمعات فتتضح الصورة بجلاء أكبر.

أما عن فائدة التاريخ العثماني وخصوصاً ونحن نتحدث عن أحداث ووقائع وشخصيات سواء التي أفادت الإسلام أو التي كانت تحاول أن تهدم قلاعه لما يقارب ستمائة عام، فقد انتهت الخلافة العثمانية نهائياً على يد أتاتورك، وانتهى دورها فما فائدة معرفة هذه الحقبة؟

إنَّ التاريخ العثماني قد احتل مساحة زمانية ومكانية مديدة، استطاعت بصعوبة بالغة وتوفيق من الله تعالى أن تخوض في غمار الأحداث التاريخية فتخرج بصلّة ربط بين العصرين الوسيط والحديث والجناحين الشرقي والغربي، فكان لها تأثير كبير على ساحة الغرب، وتأثير أيضاً في ساحة الشرق، وكل ذلك على مدار ستة قرون متتالية، وفي هذه الفترة الزمنية سقطت إمبراطوريات وتغيرت جغرافيات وأعيد تقسيم الأرض بشكل جديد، ولعبت الدولة العثمانية دوراً مهماً في منطقة امتدت من بلاد فارس والخليج العربي شرقاً وحتى بلاد النمسا والمغرب غرباً ومن جنوب موسكو والقوقاز وبولندا شمالاً وحتى بلاد الحبش والمحيط الهندي جنوباً، فكانت العنصر الفعال في حالات المد والجزر في تلك المنطقة وتلك الحقبة الزمنية، بل إن المناطق

التي لم تصل إليها كانت تخشاها أشد الخشية، فكانت الدولة العثمانية إحدى أهم العوامل في ضعف هذه الدول سواء الخصوم أو الحلفاء وكذلك عوامل قوة.

بل أن هذا التأثير يرجع ويمتد إلى عصرنا الحالي، الذي نحياء الآن فقد نتج عن المخاض الأخير للدولة العثمانية مشكلات إقليمية ما زالت تلعب دوراً مهماً في السياسة الدولية حتى اليوم، الأمر الذي يجعلنا إن أردنا فهم هذه المتغيرات في هذه البلدان فهماً صحيحاً لنبنى عليه آراء صحيحة وأحكاماً واقعية لا تصطدم بعد ذلك والواقع التاريخي، فإنه لابد من فهم الحقبة العثمانية فهماً واعياً، وبالتالي تبرز أهمية دراسة التاريخ العثماني وهذه الحقبة التي ظلمت ظلماً جارفاً لم يظلم مثله أحد في التاريخ.

فحتى في الوطن العربي الذي تلجمه الآن النعرات القومية، بالصرخات نحو القومية العربية والعروبة، فإن أردنا أن نعرف عوامل ازدهاره، وكذلك عوامل ضعفه ونقاط ومواطن الانهيار، فإنه لابد من دراسة التاريخ العثماني دراسة مستفيضة، حتى نفهم ما الذي يحدث في أوطاننا الآن، وما الذي وصلنا إليه من سوء حال؟ وكيف نهض من هذه الكبوة، والتخلي عن القوميات والنعرات الكاذبة، والبداية إلى طريق الوحدة بين أطراف المسلمين، وإزالة عراقيل القوميات بينهم، ولن يكون هذا إلا بالعلم والمعرفة التي هي أول سبيل النصر، وبدونها لن نخطو خطوة صحيحة تقربنا من التقدم والسيادة والريادة.

ويعد من أهم الأسباب التي جعلتنا نتحدث عن التاريخ العثماني أنه من أكثر الحقب بالتاريخ الإسلامي التي تعرضت للظلم البين والتشويه والتزييف والتزوير سواء من جانب المستشرقين، أو من جانب من نقل عنهم من الكُتّاب العرب والمسلمين، حيث نقلوا عنهم بعباراتهم وألفاظهم الحاقدة والناقمة على الخلافة العثمانية والبعيدة كل البعد عن الحياد والموضوعية، إذ نقلوا نقل النساخ وليس المحققين.

ولا ألوم هؤلاء المستشرقين عما يكتبون إذ إنهم يكتبون بعقيدة التي لا بد أن تطغى على الكاتب، وخصوصاً عندما تكون عقيدة محرفة فاسدة، ولكن أتعجب من الكتاب المسلمين الذين ينقلون حرفياً ودون تحقيق أو تمييز بين الحق والباطل، فهل يعقل أن يدون كاتب نصراني حاقداً على الإسلام أو مستشرق باغضاً لدين الله الحقائق في إطارها الصحيح، دون أن يُسقط ما في قلبه من حقد وبُغضٍ على الإسلام، وذلك في عباراته وكلماته التي يدونها عن الوقائع والأحداث والأشخاص، فتجد البعض يدون عن السلطان بايزيد ما لا يُعقل وعندما تتبّع من أين جاء بهذا الجنون تجد المصادر النهائية لكلامه هي من قِبَل مستشرقٍ حاقداً ناقمٍ على الإسلام بدون دليل واضح، بل ألقى فريئةً وسار على هديها من نَقَلَ عنه، فأين كان عقل الناقل المُسلم الذي ينقل إلى العربية؟!.

وكذلك تجد الأعاجيب عند الحديث عن السلطان عبد الحميد، وكذلك عند الحديث عن الأخوان بارباروسا، وكذا السلطان القانوني، والفتاح وغيرهم.

فالحقيقة أن من الأسباب التي دعتني إلى الحديث عن هذه الحقبة هو من جانب رفع الظلم وإظهار الحقائق، وليعرف الجميع أن التاريخ العثماني هو تاريخ مليء بالإنجازات والفتوحات التي تصب في صالح الإسلام، إضافة إلى كمٍ كبيرٍ من التوضيحات التي لا تعد ولا تحصى.

وحتى نكون منصفين، فإن هذا التاريخ -العثماني- ليس تاريخاً لملائكةٍ لا يُخطئون، بل به من الأخطاء ما به إلا أنه رغم ذلك لا يمكن أن تمحى الإنجازات العظيمة لصالح دين الله وابتغاء مرضاته وخاصة في العهود الأولى منه، وألا نكون كالذباب الذي يبحث عن الخبث ليقف عليه، وأردنا أن ننوه بهذا حتى لا يظن البعض أننا من الطبوليين.

فالحق أحق أن يُتبع، وهذا هو منهجنا في السرد التاريخي، حيث يجب أن يوزن الأشخاص بميزان الشرع، فمن يخطئ ينوّه بخطئه ويذكر به، ومن يصلح يرفع فوق

الرأس، وهذه هي طبيعة البشر دائرة بين الصواب والخطأ، ولهذا يجب أن نذكر الجانبين، لا أن نسلط الضوء كما يفعل أعداؤنا على نقاط السواد فقط، أو مثل المرئدين الذين يمدحون في كل وقت وحين، بداعٍ أو بدون، فالحق هو أن يذكر الأمر بما له وما عليه.

وخلاصة القول فالتاريخ العثماني إنما هو سلسلة من الأحداث والوقائع المؤثرة في مجرى التاريخ، والتي استمرت لقرون مما يستدعي معرفتها معرفة واعية لفهم الواقع الذي نحياه الآن.

مصطفى محمود زكي

Mostafa.zaki89@yahoo.com

الأتراك قبل الدولة العثمانية

تاريخ الأتراك قبل الدولة العثمانية

إن الأتراك هم ذلك العرق الأبيض عريض الجمجمة، وغالباً كان يطلق عليهم لفظ طوراني والذي جاءت منها بعد ذلك القومية والعصبية الطورانية التي استخدمت ضد العصبية والقومية العربية التي استغلها أعداء الدين لتقسيم العالم الإسلامي، وإقامة الثورات والحروب بين بعضنا البعض.

والمتتبع لتاريخ الأتراك سيجد أنهم كانوا رحالة مهاجرين متنقلين من مكان لآخر ولا يستقرون في مكان واحد لفترات طويلة، الأمر الذي أدى إلى الانتشار في كل مكان وعلى أوسع نطاق حتى إنك لتجد أتراكاً في الهند ومصر والشام والأناضول وفي العراق... إلخ، وأدى في ذات الوقت إلى صعوبة التدوين التاريخي لهذه الفترة.

فالتاريخ حتى يدون بأريحية ويوثق بمصادقية لا بد من الاستقرار، أي لا بد من وجود دولة بنظام وحدود حتى نستطيع أن ندون تاريخها، وإلا فسيعترض ذلك كثيراً من الحوَلِيَّات والقصاص والأساطير التي تدور حول هذه الفترة أي في فترة الترحال والتنقل.

ولذلك نجد أن المؤرخين يدونون التاريخ العثماني من الفترة التي أسسها عثمان وهي عام ١٢٩٩ ويديرها البعض من عام ١٣٠٠ إلى عام إلغاء الخلافة العثمانية ١٩٢٤م.

وهذا من الأخطاء التي يقع فيها الكثيرون فهذه الدولة التي أسسها عثمان لم تنشأ في يوم وليلة، بل كان قبلها أحداث كثيرة لا بد من ذكرها حتى ولو كانت متناثرة فلا بد من ذكر ما صح منها وترك الباقي، وخصوصاً وأنه كان يوجد استقرار ولو نسبي بالنسبة للقبيلة التي خرجت منها الدولة، وذلك لأهمية هذه الأحداث في إيضاح الصورة كاملة، ناهيك أن الدولة العثمانية قد تمخض عنها جمهورية تركيا التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا وإن كانت بثوب مختلف.

وتاريخ الترك نستطيع أن نستوضحه بجلاء في الدول التي أسست على أثره والتي وفقا لما حصرها البعض كانت ستة عشر دولة أبرزها على الإطلاق كانت الدولة العثمانية ومن قبلها السلاجقة والغزنويين، والقراخانيين وكذلك الكوك تورك التي كانت أبرز دولة تركية في التاريخ القديم.

وتعتبر دولة الكوك تورك أول تشكيل سياسي يحمل معنى الدولة في تاريخ الترك وقد حكمت منطقة تمتد من البحر الأسود ومنغوليا حتى حدود الصين الشمالية خلال الفترة من ٢٥م - ٧٤٤م. ولكن الحقيقة تؤكد أن سمات هذه الدولة لم تختلف عن حالة البدية والرعي التي كان عليها الأتراك ولكن أبرز ما في الأمر هو وضع أطر سياسية للدولة مثل الحدود واتخاذ عاصمة لها وخضوع حكام محليين للحاكم العام، وكانت تدين بالديانة الشامانية.

وقد انقسمت هذه الدولة بعد تأسيسها بفترة قليلة إلى قسمين شرقيّ وغربيّ، وقد خضع هذان الفرعان خلال القرن السابع الميلادي لحكام شمالي الصين خضوعا اسمياً وفي عام ٦٨٢م استطاع القسم الغربي استعادة استقلاله وتمكن من المحافظة عليه حتى عام ٧٤٤م، ثم تطورت الأحداث حتى انهارت دولة الكوك تورك وانقسمت ممالكها في بلاد ما وراء النهر، وكان من بين هذه القبائل التي تعيش تحت كنف دولة الكوك تورك عشائر الأغوز والقارلوق الذين سيطروا على المناطق التي تقع بين نهر جيحون والبراري الشمالية الشرقية، أما الإيغور فقد سكنوا حوض نهر ينسي حتى استطاع القرغيز طردهم من هناك ثم تمكن القبقاق من السيطرة على المنطقة الممتدة من نهر إيركش وحتى نهر جيحون، والحقيقة أنه لم تستطع أي من هذه الدول أن تملأ الفراغ الذي خلفته دولة الكوك تورك، ف وقعت جميعاً بعد ذلك تحت تأثير الحضارة الإسلامية فراحت ضفاف نهر جيحون تشهد اندماجاً حضارياً إسلامياً، وبذلك تنتقل الأتراك من مرحلة ما قبل الإسلام إلى مرحلة الالتقاء الإسلامي.

فقد اجتاز الأمير قتيبة بن مسلم الباهلي نهر جيحون ودخل تركستان وفتح بخاري وسمرقند حتى صار الأتراك وجهاً لوجه مع القوي الإسلامية والأهم من ذلك أمام ذلك

الدين الجديد الذي ذاع صيته وعدله في شتى ربوع الأرض، وكانت المواجهة قوية في البداية إلا أنها راحت تقل مع الوقت حتى دخل الكثير الإسلام، فالأتراك ليس لديهم تعصب لدين منذ البداية، وخصوصاً مع التقاء كثير من معتقداتهم وعاداتهم مع أفكار الإسلام كما سنوضح لاحقاً.

ومع تطور الأحداث، اشترك بعض الأتراك في الجيش الإسلامي الذي كان يعاديه في البداية، إذ عندما أصبح الأمير العباسي زياد بن صالح الذي ابتعد عن قاعدته مسافة كبيرة حتى أصبح في وضع صعب أمام الجيش الصيني في تالاس عام ٧٥١م فلم يتردد الأتراك من الاشتراك في المعركة مع الجيش المسلم ضد الصينيين عدوهم اللدود وقد انتهت المعركة بفتح الصين لصالح المد الإسلامي، ومع تطور الأمور وظهور قوة الأتراك العسكرية التي لفتت النظر بل وأصبحت عامل حسم في المعارك، وميول كثير من الأتراك للدولة العباسية بل وانضمامهم إلى جيش الخليفة الخاص وارتقى البعض إلى مرتبة الأمير وقادة للجيش في دولة الخلافة الإسلامية، بل اعتمد بعضهم على قوته العسكرية وحاول التحكم في الخليفة العباسي.

وقد أسلم كثير من الأتراك الذين جاءوا إلى الأقطار الإسلامية وعاشوا في دولة الخلافة ولكن الكتلة الكبرى التركية بقيت محافظة على دينها، ولكن ما يهمنا هنا أن الأتراك أصبح لهم مكانة كبرى في العالم الإسلامي، بل وأصبح منهم أعلام في مجالات علمية مثل العالم الفارابي وغيره من علماء الأمة.

وبدأ الإسلام في الانتشار شيئاً فشيئاً حتى أسلم الخاقان الأكبر قره خانلى بغراخان - رحمه الله - والذي وقف موقف سعد بن معاذ لما علم عن هذا الدين وقال للقبيلة إنه أسلم وإنهم عليه حرام إلا أن يسلموا، فأسلمت القبيلة كاملة، والتي كان تعدادها ما يقارب المليون نسمة في ليلة واحدة، وأُعلن الدين الإسلامي الحنفي السني هو الدين الرسمي للقبيلة وأصبحت نقطة تحول تاريخية.

والملاحظ للأمر في الدولة العباسية أنها كانت تعتمد في البداية على العنصر الفارسي إلى أن تشكلت أول فرقة تركية في عهد المأمون كحرس خاص به ليقوى العنصر التركي على حساب العنصر الفارسي نظراً لأن أخيه يتعصب للفرس حيث إن أمه فارسية؛ فأراد هو أن يقوي جبهته بالترك، ثم في عهد الخليفة المعتصم وصلت أعدادهم إلى ما يقارب أربعة آلاف جندي تحت قيادة الترك، فاستكثر المعتصم منهم حتى وصلوا إلى ثمانية عشر ألف مملوكاً تركياً، ولما شكا أهل بغداد منهم ومن تصرفاتهم بني لهم مدينة سامراء بالعراق حيث جعلها مقراً لحكمه وهكذا دخل الترك وبقوة الديوان العباسي حتى تمكن العنصر التركي من التفوق مع مرور الوقت واعتمد عليهم في كثير من شئون الإدارة والحكم.

وفي عهد الخليفة الواثق والمتوكل بدأت السيطرة من الأتراك على مقاليد الحكم، ونظراً لشعور المتوكل بزيادة نفوذ الترك على الدولة نقل العاصمة إلى دمشق، إلا أنه لم يطب له المقام فيها فعاد إلى سامراء، وقد حاول التخلص من نفوذ الأتراك عليه فقتل في نهاية الأمر.

وتمكن الأتراك من تأسيس إمارات ودول مستقلة عن الدولة العباسية سواء في مصر والشام وبلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران والهند والأناضول فاستطاعوا تأسيس الدولة الطولونية والأخشيدية في مصر والقره خانيون في بلد ما وراء النهر والغزنويون في الهند وغيرهم ولكن أبرز من جاء بعد ذلك كانت دولة السلاجقة التي أسس على أشلائها بعد ذلك الدولة العثمانية.

والدولة السلجوقية أو بني سلجوق هم بكات قبيلة قنق من الأوغوز أو الغز وهم ذات الفرع الذي انحدر منه العثمانيون، وكان قسم من الغز قد أسسوا دولة بين الخزر وأرال التي تسمى الوطن العلوي وورث سلجوق هذه الدولة والتي سميت بعد ذلك باسمه وأصبحوا قادة كباراً في نهاية القرن الثامن وحوالي عام ٩٩٠م أصبحوا ملوكاً لها، ومع تقدمهم ودخولهم الإسلام حديثاً بعد احتكاكهم بالدولة الغزنوية القوية آنذاك، وحدثت الوشائات للسلطان محمود الغزنوي الذي سعى للحد من نفوذهم، فدعي قادتهم بالقرب من

نهر جيحون ثم قبض عليهم وعلى رئيسهم إسرائيل ابن سلجوق ووضعهم في سجون الهند، فاختار السلاجقة آنذاك خليفة لهم ميكائيل الذي قرر الانتقال بهم إلى خراسان واستأذن الغزنوي فأذن له وهناك كونوا قوة كبرى لم تستطع حتى الدولة الغزنوية وخصوصاً بعد وفاة السلطان محمود الغزنوي أن تتصدي لهم بل دان لهم الأمر هناك وأصبحوا قوة معترف بها، وبعد تولى طغرل بك القيادة باتفاق زعماء الدولة بدأ يرسخ لنفسه في العراق وإيران بشكل أكبر.

ولما كانت تدين الدولة السلجوقية بالمذهب السني وكانت متعصبة له ضد المذهب الشيعي، بل كانت تُخطب الخطبة باسم الخليفة العباسي، الذي سرعان ما اشتد عليه الضغط البويهّي، ونفوذ الأتراك، إذ كان قائد الترك في بغداد شيعياً يميل للفاطميين (البيّدين) يحاول بسط النفوذ الشيعي، ويتحين الفرصة ليسقط الخليفة العباسي نفسه الذي استجد بطغرل بك الذي أسرع لإنقاذه من تبعية النفوذ الشيعي وسيطر على مركز الخلافة العباسية وطرد الشيعة خلال عشرة أيام، وأعلن الخطبة باسم الخليفة العباسي، وأنه هو السلطان الروحي العام للمسلمين بينما السلطة الدنيوية للدولة السلجوقية، وحاول طرد الشيعة بالكامل فنجح من طردهم من سوريا ولكن لم يستطع طردهم من مصر إذ اشتعلت الحروب الصليبية.

وقد خَلَفَ السلطان طغرل بك ألب أرسلان الذي ازدهرت الدولة في عهده بشكل كبير وكان معه وزير يسمى نظام الملك الطوسي وهو من أشهر الوزراء في التاريخ، إذ رسماً سويّاً سياسة الدولة وحددا أهدافها واستقر الأمر على تثبيت دعائم الدولة في المناطق التي تبسط نفوذها عليها، ولكن حدث صراع مع الدولة الرومية المجاورة له والتي كانت تحاول طردهم أيضاً والقضاء على هذه الشرذمة الكفرة فحدثت موقعة ملاذكرد التي غيرت مجرى التاريخ، إذ كتب فيها النصر للجيش المسلم السني السلجوقي وكان نصراً ساحقاً.

خلف ألب أرسلان ملكشاه الذي ما إن توفّي والدُه توجه نحو خراسان وجلس على عرش نيسابور وأسند الوزارة إلى نظام الملك الطوسي، ولكن نازعه في السلطان عمه

قاورد فُقْتِل بعدما قامت حرب بينهما وأقر مُلكشاه أن كرمان تكون لأبناء قاورد فسميت في التاريخ بعد ذلك دولة سلاجقة كرمان، بينما أسند الشام إلى أخيه تاج الدين تتش وسمح له بالفتح فوصل إلى دمشق وأتخذها مقرّاً لحُكمه وسُمّيت الدولة بعد ذلك باسم دولة سلاجقة الشام.

وعمل ملكشاه على توطيد مُلكه في الأناضول فعين سليمان ابن قتلмыш والياً عليها وسُمّيت بعد ذلك في التاريخ باسم دولة سلاجقة الأناضول، وقد سعي لتوطيد ملكه ففتح أنطاكية وكانت تحت حكم الروم إلا أنّ فتحها أشعل فتيل الحرب بين أبناء البيت السلجوقي، فحدثت الحرب بين ملكشاه وسليمان ابن قتلмыш والتي انتهت بمقتل سليمان وانتصار ملكشاه الذي استطاع أن يبسط نفوذه على هذا الإقليم، ولكن مع ظهور المذهب الشيعي بشدة وظهور الحركة الباطنية بقيادة حسن الصباح واختلاف أبناء البيت السلجوقي والصراعات الداخلية حيث لم يكن يهتمهم سوي قضاء بعضهم على بعض فأدّى الأمر في النهاية إلى سقوطهم جميعاً وخصوصاً مع مصرع الوزير نظام الملك؛ فكل هذه الأسباب وغيرها أدت إلى ضعف الدولة في نهاية عهد ملكشاه.

لما توفي ملكشاه تولى خلفاً له بركياروك الذي أطلق سراح قليج أرسلان ومكنه مما كان تحت نفوذ أبيه، فبسط يده على إزنيق وجعلها عاصمة لملكه، واستطاع إعادة الدولة إلى تماسكها وقوتها من جديد، وبعد وفاة بركياروك أعلن قليج أرسلان استقلاله وحاول السيطرة على عرش الدولة وانتهى الأمر بموته غريقاً وانقسمت الدولة من بعده إلى أقسام ثلاثة: قسم تحت سلطة قليج أرسلان الثاني وقسم تحت سلطة شاهنشاه والأخير تحت سلطة نظام الدين ياغي بسان ، إلا أن قليج أرسلان الثاني استطاع أن يبسط نفوذه على الدولة ويوحدها تحت إدارته، إلا أنه ارتكب خطأ جسيماً إذ قسم الدولة في حياته بين أبنائه مما أحدث الصراع الشديد بين الإخوة، ولكن استطاع ركن الدين سليمان التغلب على إخوته وبسط نفوذه على الدولة فوحد إدارة الدولة تحت قيادته.

وخلال عصر علاء الدين قيقباد الذي يعتبر أزهى عصر سياسي واقتصادي وعمراني للدولة سقطت دولة خوارزم تحت الضغط التتري، الذي بدأ يجتاح العالم؛ مما دفع كثيراً

من القبائل التركية للهجرة صوب الأناضول، وتذكر بعض المصادر أن من هذه القبائل كانت قبيلة سليمان شاه والد أرطغرل، وإن كان بعض المصادر الأخرى تقول بأن قبيلة القايي (قبيلة أرطغرل) كانت قد هاجرت للأناضول منذ وقت بعيد عن ذلك بل شاركت في موقعة ملاذكرد أيضاً.

ومن عجيب الأمر في ذلك الزمان أن حكام المسلمين سواء من السلاجقة والخوارزميين والأيوبيين والأرتوقيين^(١) لم يتخذوا التدابير لمواجهة هذا الخطر التتري القادم والزاحف نحوهم فاستمروا في خلافاتهم الداخلية العقيمة التي تسعى كلها نحو السلطة، مما سمح للمغول بالقضاء على الأخضر واليابس، ومن ذلك أيضاً حدوث موقعة **كوسه داغ** التي انتصر فيها التتر على السلاجقة وفر غياث الدين كيخسرو وأصبحت السلاجقة تابعة للمغول، ورغم كل هذا فلم يتوقف أبناء البيت السلجوقي عن النزاع الداخلي بل استمروا فيه مما أضعف الدولة رغم ضعفها الشديد، ولم يستطع الأهالي دفع ما للدولة من ضرائب، وأصبح أمراء الحدود لا يعترفون بأي تبعية للدولة السلجوقية، بل وانقسمت الدولة على نفسها فأصبح يوجد إمارات مستقلة داخل الأناضول مثل "قره سي" و"صاروخان"^(٢) و"أيدين"^(٣) و"تكه" و"الحميد" و"القرمان"^(٤) و"كيرمان" و"قستموني"^(٥) و"منتشا"^(٦) و"قونية"^(٧) والتي سيكون لها أثر بالغ في تاريخ الدولة العثمانية فيما بعد نتيجة الصراعات التي ستحدث من هؤلاء والتنافس على السلطة الذي

(١) الأرتوقيين: نسبة إلى أرتق بن أكسب، ومنه سلالة الأراتقة أو الأرتقيين أو بني أرتق التركمانية، حكمت جنوب (شرق الأناضول) "ديار بكر" و"مردين" وشمال الجزيرة الفراتية، ما بين 1098م - 1232 م، واستمرت بعض الفروع حتى 1408م.

(٢) صاروخان: تقع شمال أزمير على بحر إيجه.

(٣) أيدين: تقع في جنوب غرب تركيا.

(٤) قرمان: جنوب الأناضول.

(٥) قستموني: وتكتب قسطموني وتقع في شمال الأناضول على بعد مائة كم عن البحر الأسود.

(٦) منتشا: تقع جنوب أيدين على بحر إيجه.

(٧) تقع في وسط جنوب الأناضول.

وصل بالبعض من التعاون مع أعداء الإسلام كرهاً في الدولة العثمانية، وكان من ضمن القبائل التي استقلت بعد ذلك قبيلة عثمان ابن أرطغرل التي سيكون لها شأن كبير وستصبح دولة عظمى تسيطر على ما يزيد عن ثلاثين دولة وتبسط نفوذها في ثلاث قارات فيما يزيد على ستمائة عام^(١).

مسألة دخول العثمانيين الإسلام:

من المسائل الجوهرية عند الحديث عن أي دولة على وجه الأرض هي معرفة نشأة هذه الدولة وعقيدتها والمرحلة الزمانية التي نتحدث عنها، ولمسألة العقيدة أهمية كبرى في هذا الصدد إذ بمعرفتها تتضح أمور عدة وتنجلي، فعلى سبيل المثال عند الحديث عن أوروبا لا بد أن نحدد الوقت الذي نتحدث فيه، أفى العصور الوسطى أم بعد ذلك، فإذا كان في العصور الوسطى فبذلك نكون حددنا الدولة والزمان ونأتي لمسألة العقيدة، فسنجد أن أوروبا في ذلك الوقت يتزعمها المذهب الأثناسيوسي بينما الشرق يسوده المذهب الأريوسي^(٢) ولذلك قامت الحروب على هذا الأساس، بل عند فهم مصدر المذهب وأساسه سنفهم كيف تطرف المسيحيون في عقيدة السيد المسيح ووصلت للتأليه والتثليث وما شابه ذلك بل وسنفهم جذور الصراع الحالي في العصر الحديث.

وبإسقاطٍ على محور حديثنا وهو الدولة العثمانية حيث العصور الوسطى أيضاً فلا بد أن نفهم عقيدة هذه الدولة التي قامت بالفتوحات، ونشرت الدين الإسلامي، وبسطت قوتها على مدار ستة قرون وفي ثلاث قارات، ذلك لأنه بفهم عقيدة الدولة العثمانية سنفهم أموراً عدة، مثل لماذا قامت حروب الدولة، وعلى أي أساس تأسس ملكها وفكرها، ولماذا عادت بعض الدول وأقامت التحالفات مع أخرى، ولماذا عفت عن بعض الأفراد وأوقعت

(١) راجع تاريخ الترك قبل العثمانيين: سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية-يلماز أوزتونا تاريخ الدولة العثمانية العيروس التاريخ العسكري ج ١، راجع أيضاً الدولة السلجوقية لدي الدكتور على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط -الدكتور محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

(٢) أما الآن فأصبح المذهب الكاثوليكي هو الغربي مع المذهب البروتستانتي بينما الشرق المذهب الأرثوذكسي.

العقوبات على آخرين؟، وغير ذلك من الأمور التي لا تتضح إلا بمعرفة العقيدة الرئيسية للدولة.

وبنظرة أولية يظن البعض أن الإجابة على التساؤل القائل: ما عقيدة الدولة العثمانية؟ أمرٌ سهلٌ وبسيطٌ، ولكن الحقيقة أن المصادر ضعيفة جداً في هذه الفترة وخصوصاً قبل عثمان، حيث إن الإجماع في عهد عثمان كانت الدولة تدين بالإسلام أو بمعنى أدق في أواخر الثلث الأول من عهد عثمان كانت دولة مسلمة، فهذا هو ما عليه الإجماع، أما ما قبل هذه الفترة فيوجد اختلاف كبير، الأمر الذي يترتب عليه أن عثمان كان في بداياته مسلماً أم لا أي وُلِدَ لأبوين مسلمين أم أنه اعتنق الإسلام بعد ذلك، وكذلك هل كان أرطغرل مسلماً أم لا، وينسحب الأمر إلى سليمان شاه والد أرطغرل، وعلى هذا نطرح السؤال هل كان العثمانيون من المسلمين أم كانوا غير ذلك؟

وبداية وللإجابة على هذا التساؤل لابد أن نفرق بين الأتراك وبين العثمانيين حيث إن العثمانيين فرع من الأتراك ولذلك لابد أن نفرق عند تناول هذه المسألة بين أمرين الأول هو إسلام الأتراك والثاني هو إسلام العثمانيين حتى لا يحدث أي لبس.

إسلام الأتراك:

فاستناداً إلى رواية محمد بن جرير الطبري فإن دخول أول جماعة تركية في الإسلام كان في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب وتحديداً سنة ٢٢هـ | ٦٤٢م حين احتكت جماعة من الترك بقيادة ملكها شهربراز بالقائد المسلم عبد الرحمن بن ربيعة، وذلك عندما وصلت غزوات المسلمين إلى بلاد الترك وتحديداً بلاد ما وراء النهر. فطلب ملك الترك شهربراز الصلح من القائد عبد الرحمن بن ربيعة الذي وافق مبدئياً عليه لكنه أحال شهربراز إلى القائد العام وهو سراقه بن عمر الذي وافق على الصلح بشرط أن يوافق

عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي أقر الصلح^(١)، وعلى ذلك دخل الترك في الإسلام وقاتلوا مع الجيش المسلم ضد الجماعات الأرمنية النصرانية في المنطقة، وكانت البداية لترك تلك الجماعات التركية العقائد الوثنية وتطبعت بخلق الإسلام وتمرست في المؤسسات الإسلامية خاصة الدينية والعسكرية مما ساعد الترك في المستقبل من الترقى وخصوصاً في سيادة مبدأ أنه لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوي. ولذلك ازدادت الجماعات التركية في الدين الإسلامي تدريجياً في عهد الخلافة الراشدة ثم الأموية وصولاً إلى العهد العباسي، وخصوصاً بعد ازدياد فتوحات ما وراء النهر حيث الموطن الأصلي للأتراك، وقد تمكن الأتراك بقوة من التغلغل في الدولة والمناصب الإدارية والعسكرية منها في عهد الخليفة المعتصم الذي سلم الأتراك المناصب العليا وخاصة الإدارية والعسكرية. وأسس مدينة سامراء لتكون لهم وتبعدهم عن العرب نتيجة لظهور كثير من المشاكل الذي نتج عن الاختلاط بالعرب آنذاك^(٢).

إسلام العثمانيين:

أما عند تناول مسألة إسلام العثمانيين، وذكر ما قيل فيها من آراء سواء من متعصبين للدولة العثمانية الذين يغالون فيصلون بنسب آل عثمان إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم -وهذا كذب وافتراء، وكذلك ستجد من يعاديهم ويصل بهم أنهم لم يدخلوا الإسلام لفترات طويلة حتى بعد تأسيس دولة آل عثمان وهذا أيضاً كذب وافتراء، وحتى تتضح الصورة بجلاء يجب الاطلاع ولو بقليل من الذكر على دين العثمانيين قبل اعتناق الإسلام.

(١) وهذا ما يحدث في المعاهدات الدولية التي تعتبر وفقاً لـدساتير كثير من الدول بعد توقيع رئيس الدولة مشروطة بموافقة مجلس الشعب أو عرضها على استفتاء دستوري.

(٢) راجع الطبري ج ٣ دمشق، دار الفكر ص ٢٥٦: ٢٥٧ طريق عبد الفتاح حسن أبو عليه، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ٢٤: ٢٦ بتصرف.

العثمانيون قبل الإسلام:

كانت القبائل التركية المهاجرة والمتقلة ومن بينها قبيلة القايي وهي قبيلة عثمان بن أرطغرل كانوا يؤمنون بدين الشامانية أو الكوك تنجري.

وهذه الديانة ليس لها نبي ولا كتاب مقدس ولا معبد ولا عبادة منظمة ولكن لها معبود واحد وهو تك تنجري أو تك تنكري، وهو رب الأتراك فقط وليس رباً للعالمين كما لدينا في الإسلام، ويقصدون السماء والماء والأرض^(١)، ويدفنون الموتى ويمكن تحنيطهم وتدفن معهم حاجياتهم الضرورية لاستعمالها في الحياة الأخرى، وذلك مثل القدماء المصريين. ولا يجوز لأي فرد في المجتمع التركي أن يصبح عبداً أو جارية داخل مجتمعه التركي، ولذلك يستخدم الأتراك آنذاك العبيد والجواري من الأقوام الأجنبية، فكل تركي حر وكلهم محاربون، حتى المرأة تمتطي الحصان وتستعمل السلاح ولا تتحجب وتختلط بالرجال ولا تنفر منهم، ولا يربى الخنزير حيث إن تربية الخنزير وأكل لحمه هي علامة من علامات المغول فلا يؤكل إلا عند المجاعة ويهتم المجتمع التركي بالبركة وعفة المرأة اهتماماً كبيراً، فعدم الاكتراث بالغير وإكرام النساء للغير هي من علامات المغول أيضاً، ولذلك كانت العقوبة الوحيدة لهتك العرض هي الإعدام إلا إذا وافقت المرأة التي اعتدي عليها بالزواج ممن اعتدى عليها وذلك في حال كانت غير متزوجة أو كانت أرملة.^(٢)

دخول العثمانيين الإسلام:

اختلفت النظريات التي قيلت في هذا الصدد فمنهم من يقول إن الإسلام قد دخل إلى الدولة العثمانية وذلك بإسلام عثمان بن أرطغرل أي أن أرطغرل كان على الوثنية ومنهم من يري أن أرطغرل كان على النصرانية، ومنهم من يري أن سليمان شاه هاجر مسلماً

(١) لذلك ستجد كثير من أغاني التراث التركي أو الأناشيد التركية القديمة مذكور فيها وبكثرة السماء والأرض والماء.

(٢) يلماز ازوتونا، تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ١٧، ١٨ بتصرف.

مع قبيلته وكانت مسلمة آنذاك ولكن أهم هذه الآراء والتي تؤخذ في كثير من المراجع هي آراء جيبونز، ولذلك لابد من عرضها ونقدها.

ولكن وقبل أن نعرض لذلك الرأي فلا بد من التذكير بقصة التقاء أرطغرل بالسلاجقة لأن من هذه النقطة ينبني عليها عدة أمور تعد غاية الأهمية يعد على رأسها بداية تأسيس ملك الدولة العثمانية.

فأرطغرل كان مهاجراً مع قبيلته الصغيرة التي انفصلت عن القبيلة الكبيرة وذلك بعد موت سليمان شاه وأثناء هجرته هذه وجد جيش علاء الدين السلجوقي يواجه جيشاً آخر من النصاري وفي رواية أخرى من المغول ولكن الأصح لدي أن الجيش كان من النصاري فدخل المعركة وانتصر مع جيش علاء الدين الذي منحه قطعة أرض والإذن بالفتح على حساب الروم.

آراء جيبونز:

فجيبونز يري أن أرطغرل في مثل هذا الوقت وقبيلته كانوا على الوثنية وكانوا في طور البداوة من حيث المقياس الحضاري ووظيفتهم الأساسية هي الرعي والتنقل من مكان إلى آخر في سبيل كسب الرزق. ويرى جيبونز أن سبب دخولهم للإسلام أنهم احتكوا بالدولة السلجوقية بعد ذلك، واختلطوا فيهم فدخلوا في الإسلام كأبناء جلدتهم من السلاجقة، وأثار فيهم هذا الدين الجديد رغبة في إدخال الناس فيه؛ فأرغموا جيرانهم الإغريق الذين كانوا يعيشون في صداقة معهم على الدخول في الإسلام، ولم يكن تحت إمرة عثمان آنذاك سوي أربعمائة محارب يقيمون في دورهم ويزاولون حياة فارغة وادعة. وقد ضوعف عدد العثمانيين ما بين ١٢٩٠ و ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى قاربت حدود البيزنطيين وأدى ذلك إلى ظهور جنس جديد هو الجنس العثماني وكان جنساً مختلطاً ناشئاً عن ذوبان العناصر الأصلية وقوامها الأتراك والوثيون والإغريق والمسيحيون. ويستمر في عرض وجهة نظره بأن عثمان دخل الإسلام وبعده قبيلته

مستنداً على قصة تروي في الأساطير والحوليات ولا تجد لها أساساً أو مرجعاً صحيحاً يستند عليه^(١).

الأسطورة التي يستند عليها جيبونز:

والقصة تقول بأن عثمان قضي ليلة في دار أحد الزهاد المسلمين وقبل أن ينام جاء صاحب الدار ووضع كتاب على رف فسأله عثمان ما هذا الكتاب فقال له إنه القرآن ثم أجابه حين سأله عن محتواه بأنه كلمة الله أنزلت للناس بطريق النبي -صلى الله عليه وسلم - ثم نام فيما يري النائم كأن ملاكاً يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم لقاء احترامه للقرآن^(٢).

نقد نظرية جيبونز:

بداية إن أمثال جيبونز وغيره من المستشرقين إنما يريدون أن يجدوا مبرراً منطقياً لدخول العديد من الناس تحت لواء الإسلام طوعاً وحباً، بل ويبدلون الغالي والنفيس نظير نصرة دين الله تعالى وبغية رفع لوائه عالياً خفاقاً في شتى بقاع الأرض.

ولذلك ستجد هؤلاء يضعون نظريات تتوافق مع ما عرفوه وما تعلموه في حياتهم وخبراتهم وليس ما يوافق الحدث الحقيقي نظراً لبعدهم عن الإسلام وتعاليمه.

فإنه يتعجب من كون قبيله صغيره تتكون من أربعمئة فارس التي ينسبها إلي عثمان ويقرر أنه كان معه هذا العدد على الرغم من أن الذي كان معه الأربعمئة الفوارس هو أرطغرل والذي عاش لسن التسعين عاماً في قبيلته فكيف استمر هذا العدد على ما هو عليه دون زيادة أو نقصان، وأن الزيادة حدثت في عهد عثمان، بل ويقرر أن عثمان جاء

(١) راجع فؤاد كوبريلي ترجمة احمد السعيد سليمان، قيام الدولة العثمانية ص ١٣: ٨

(٢) راجع فؤاد كوبريلي ترجمة احمد السعيد سليمان، قيام الدولة العثمانية ص ١٣: ٨

وأرغم الجيران النصارى الذين كانوا يعيشون في سلام قبل اعتناق عثمان للإسلام الذي حوله إلى طاغية يجبر الناس على دين غير دينهم فيدخلونه ويحاربون لأجله رغماً عنهم.

ربما هو يقرر ذلك نظرًا لأن هذا كان سائدًا لدى بعض الدول والحضارات، ففي النصرانية مثلما فعل قنسطنطيوس الذي عرف بولائه للمذهب الأريوسي المسيحي^(١)، مما جعله فرض هذا المذهب على أجزاء الإمبراطورية الواقعة تحت سلطته كرهاً وغصباً، أو من السائد في هذا العهد لدى التتر من إرغام الدول المهزومة بالدخول تحت لواء التتر والمحاربة في جيشهم بل وفي مقدمة الجيش حتى يكونوا درعاً حامياً لهم.

فالرواية الواهية السابق ذكرها التي يستند عليها وهي قصة الشيخ الذي بات عنده عثمان، إنما ستجد لها متناً آخر مخالفاً لما ذكر فيها، وفي ذات المصدر وهو الأساطير والحواليات.

وذلك بأن عثمان طلب من الشيخ أدب عالي -أي في هذه المرة ذكر اسم الشيخ، ولم تأت مجهلة كما يوردها جيبونز- أن يتزوج ابنته فرفض طوال عامين وفي إحدى الليالي وفد إلى ذلك الشيخ الزاهد ونام في بيته فرأى فيما يرى النائم أن قمراً يخرج من صدر ادب عالي ويقع في صدره هو ثم تخرج من سرته شجرة يغطي ظلها الأرض ولماً قص ذلك على الشيخ قال له: إنك ستحكم العالم وزوجه ابنته.

وهذه الرواية بذات المتن أو متن مقارب لها قيلت في حق تأسيس دولة السلاجقة وليس العثمانيين. ذلك لأن الأساطير التي قيلت في تأسيس الدول لا تعد ولا تحصى ففي تأسيس الدولة العباسية قيلت مثل هذه الروايات، وفي تأسيس الدولة الغزنوية حيث تذكر الأساطير والحواليات أنه وقبل أن يولد فاتح الهند محمود الغزنوي بساعة واحدة رأى أبوه

(١) هو مذهب مسيحي وإحدى الطوائف التي لم يعد لها وجود في الوقت الراهن، تنسب إلى أريوس (حوالي 336 - 250) أحد كهنة الإسكندرية وتتمحور تعاليمها المختلفة عن سائر الطوائف في علاقة أقانيم الثالوث الأقدس ببعضها البعض، وطبيعة هذه الأقانيم مع بعضها البعض.

سووك تكين فيما يري النائم كأن في بيته شجرة تخرج من موقد نار وتظلل الأرض كلها، وأنباه عابر الرؤي بأن ابنه سيكون غازياً وفاتحاً^(١).

بل إذا عدنا بالتاريخ إلى عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين فس نجد مثل هذه الرؤى، حيث يروى أن قسطنطين^(٢) -أثناء زحفه لمحاربة خصمه- رأى هالة من النور على شكل صليب وذلك أثناء غروب الشمس، فلما نام رأى رؤية وكأن المسيح ومعه الصليب وقد أتى ليأمره باتخاذ الصليب شعاراً له والزحف على عدوه وأنه سينتصر بفضل هذا الصليب، لذلك اعتنق قسطنطين النصرانية^(٣).

فمثل هذه الروايات لا يجب أن تؤخذ على محمل الجد، بل إن هذا نوع من أنواع التزوير والتزييف للحقائق ولكن بطريق المدح وليس الذم، ذلك لأن التزوير لا يحمل معني التشويه فقط، بل إن للتزوير نوعين: الأول يكون بالتشويه، وهو المعلوم لدى الجميع، والثاني يكون بخلق روايات وقصص لتمجيد شخصية أو دولة أو لتبرير فعل ما، ولذلك فهذه الرواية أي رواية إسلام عثمان حتى لو أخذناها على محمل الجد فهي مضطربة وملينة بالضعف الذي يرتقي لدرجة الإنكار، أي لا يجوز الأخذ بها حتى ولو على سبيل الاستحسان.

وبالعودة إلى كلام جيبونز وما يقرره بأنه قد نشأ جنس جديد يسمى العثمانيين فهذا قول خاطئ فمصطلح العثمانيين إنما هو مصطلح سياسي يطلق على الدولة وليس على العرق أو الجنس، حتى ولو اندرج تحت لواء هذه الدولة أكثر من دولة أو عرق أو جنس آخر، فالدولة العثمانية بسطت لواءها على أكثر من ثلاثين دولة في ثلاث قارات فهل هذا

(١) قيام الدولة العثمانية، محمود فؤاد كوبريلي ترجمة احمد السعيد سليمان.

(٢) كان من السياسيين البارعين والراجح أنه لم يكن نصرانياً وإنما سعي بذكاء ودهاء لأجل إظهار ذلك لأبعاد سياسية على رأسها أن القوي العالمية في ذلك الوقت كانت تتجه صوب الشرق ولذلك لابد من مداعبته بالتوحد في العقيدة ولو ظاهرياً ولم يكن هو الوحيد الذي يفعل ذلك بل يوجد اباطرة كثر فعلوا مثل هذه الفعلة مثل تيمور لينك الذي سوف يأتي الحديث عنه إن شاء الله.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٧

يعني نشوء عرق أو جنس جديد؟ بالتأكيد لا، ولكن هذا يعني نشوء دولة جديدة، فالحال مشابه لدولة السلاجقة أو الدولة البيزنطية أو مثل تأسيس الدول الأوربية كفرنسا أو ألمانيا وعلى ذلك فالمصطلح السياسي ليس له علاقة بنشوء جنس أو عرق جديد.

ومن عجيب الأمر أن جيونز يتناسى القبائل التركية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ودخلت بعد ذلك تحت لواء الدولة العثمانية وزادت من عدد وقوة العثمانيين، ويضع نظريته على أن تزايد أعداد الدولة نتيجة إجبار النصارى على الدخول في الإسلام وبهم فتحت الدول، أي ينسب الفتوحات الإسلامية إلى قوة النصارى، وهذا القول كله معطوب ومغلوط، فالقبائل التركية بشتى فروعها التي دخلت تحت لواء الدولة العثمانية هي التي غول عليها في الحروب ثم بعد ذلك الجيش الانكشاري الذي أسلم أبناؤه الذين ربوا على عقيدة الجهاد في سبيل الله، ثم دعوات الجهاد التي كانت تجد من يليها من سائر الأقطار الإسلامية، ثم آخر شيء وهو الاعتماد على الدول النصرانية مثلما كان يفعل بايزيد من إدخال جنود من الدول التابعة له عند الحاجة إليها.

القول الثاني أنهم كانوا نصارى:

وهذا القول ضعيف في كل أركانه للدرجة التي لا ترتقي لمستوى عرضه، فأربابه يوردونه وعند ذكر الموقعة التي حدثت بين الجيش السلجوقي وبين الجيش البيزنطي الأنف ذكرها والتي شارك فيها أرطغرل مع الأربعمائة فارس وقلبوا موازين الحرب التي انتهت بنصر المسلمين على النصارى ، فأرباب هذا الرأي لا يفسرون لماذا شارك أرطغرل مع المسلمين ضد بني عقيدته رغم ما يذكرونه من شهامته وشجاعته وتعصبه لعقيدته وغير ذلك من الأمور التي تتنافى مع ما يقولون، إلا أن ردهم يكون في بعض الأحيان أن أرطغرل لم يكن يعلم عن عقيدة الجيش بل هو تحرك لنصرة المظلوم أو الضعيف بعيداً عن العقيدة التي عرفها بعد الحرب، فأى عقل يستوعب ذلك، حيث إن الجيوش ترتدي أزياء وتطلق صيحات وترفع أعلاماً، و أرطغرل خبير عسكري في القتال فكيف يجهل كل هذه الأمور ولا يعلم لأى حرب يأخذ كل جنوده إليها، ويشارك ضد بني جلدته كما يزعم أرباب هذا القول.

القول الثالث أنهم كانوا مسلمين:

فبداية إن معرفة الأتراك بالإسلام ليست جديدة فكما ذكرنا أن الأتراك كانوا يعرفون الإسلام منذ عهد عمر ابن الخطاب، وانتشر في عهد الدولة الأموية والعباسية بشدة، وقد احتك الأتراك بقوة في عهد الدولة العباسية بالإسلام والمسلمين حتى كان للأتراك شوكة كبيرة في مثل هذه العهود وفي ظل هذه الأوقات.

ولذلك من يبني نظرياته على كون العثمانيين على جهل بالإسلام وأنهم جاؤوا إلى تلك الأراضي ففوجئوا بوجود دين جديد يسمى الإسلام فهذا قول مغلوط ومعيب.

ولكن الراجح في هذا الصدد هو كون العثمانيين على الإسلام إبان مجيئهم إلى الأناضول، بل يوجد بعض الأقوال في هذا الصدد توضح أن الأتراك وتحديداً قبيلة عثمان كانوا ممن جاءوا مع السلاجقة إبان فتح تلك الأراضي بل وشاركت في موقعة ملاذكرد مع ألب أرسلان، أو ممن جاء بعد ذلك على غرار هذا الفتح لتلك المناطق، ولذلك فهم كانوا يعرفون عن الدولة السلجوقية السنية ودخلوا تحت لوائها واختلطوا بها وعرفوا الإسلام واسلموا على أيدي هؤلاء منذ زمن بعيد، أي أن سليمان شاه جد عثمان ووالد أرطغرل كان مسلماً على أرجح الأقوال.

بل ومشاركة أرطغرل الجيش السلجوقي ضد الجيش البيزنطي أكبر دليل على كونه ينتمي إلى الإسلام بعيداً عن كل الترهات التي تذكر في هذا الصدد.

بالإضافة إلى أن كل الأقوال التي تحاول تشويه صورة العثمانيين بأنهم كانوا على غير الإسلام بلا أي دليل يذكر، وكل من يستند على تلك الحوليات أو هذه الأساطير إنما هو قول ليس له أساس، كمثال الذي يستند على حديث موضوع عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم يأتي ويقول كيف للإسلام أن يأمر بمثل هذه الأفعال.

ويرجع دخول الأتراك في الإسلام لعدة أسباب، بل يمكننا القول إن الإسلام في ذلك الوقت كان ينتشر بصفة عامة وبقوة للأسباب الآتية:

أولاً: كان للمسلمين قوة تحمي هذا الدين، حتى ولو كان في منطقة أو في بلد ذات ضعف فستجد أنها في آخر ذات قوة، بل كانت الدول الإسلامية تنشأ بين الحين والآخر، وما تنهدم دولة حتى تظهر الأخرى على الساحة بسرعة وبقوة، فتجد الإسلام قوي في الهند والسند والعراق والشام ومصر وغير ذلك، فإذا ضعف هنا قوي هناك، وحتى مع ظهور تلك القوي التنارية أو الصليبية، فقد كان المسلمون يتصدون بكل حسم وحزم لأي من هذه الهجمات، وكانت في مناطق أخرى حروب سجال بين القوتين، أي كانت قوة الإسلام على الساحة ظاهرة وبقوة.

ثانياً: التقدم العلمي في ديار الإسلام كان قوياً للدرجة التي تجعل القاصي والداني ينبهر انبهاراً شديداً بالدرجة التي عليها هذه المجتمعات مما جعلنا في وقت من الأوقات مثلاً للتحضر والرقى وتنمى كل الدول أن تتشبه بنا حتى الكارهين لنا.

ثالثاً: حسن التعامل في كثير من الدول الإسلامية مع الرعية المسلمة وعدم أكل الحقوق نظراً لمكانة القاضي القوي والشيخ المؤثرة في المجتمع فلا يسمح بتمرير الظلم، أو تبريره للحاكم.

رابعاً: حسن معاملة الدول الإسلامية للبلاد المفتوحة سواء في السلم أو الحرب، الأمر الذي يرفع شأن هذه الدول ويسهل دخول الآخرين في الإسلام.

خامساً: الأسر المشردة نتيجة الحروب كانت الدول الإسلامية تأخذها وتحسن رعايتها وتعامل الأبناء فيها بأفضل معاملة وأخرجت من بينهم جيشاً قوياً على عقيدة صحيحة.

سادساً: توافق الإسلام وأحكامه مع الفطرة السليمة والطبائع البشرية النظيفة، ولذلك ستجد في عادات الأتراك كثير من أحكام الإسلام؛ الأمر الذي جعل دخول هؤلاء أمراً ميسوراً، لأنهم وجدوا من يخاطب عقلهم وقلوبهم وعاداتهم الفطرية السليمة.

وقد أردنا أن نوضح هذه النقاط في عجلة نظراً لأن البعض يسند مسألة إسلام العثمانيين إلى أمور في غير نصابها، وكذلك من باب رفع الظلم، بل وأوجزنا أسباب

دخول الأتراك وغيره إلى الإسلام، لنعلم أسباب عزوف الكثير في أيامنا هذه عن الإسلام، لان الأمور معكوسة تماماً، فالمسلمون اليوم في شتات وتشرذم وضعف وهوان على الناس، بل وحكامهم أدلة لدى الغرب الذي يرفع أصواته عليهم عياناً ببياناً ويعلن بكل فخر أن الحكام العرب ضعفاء بدون حماية الغرب.

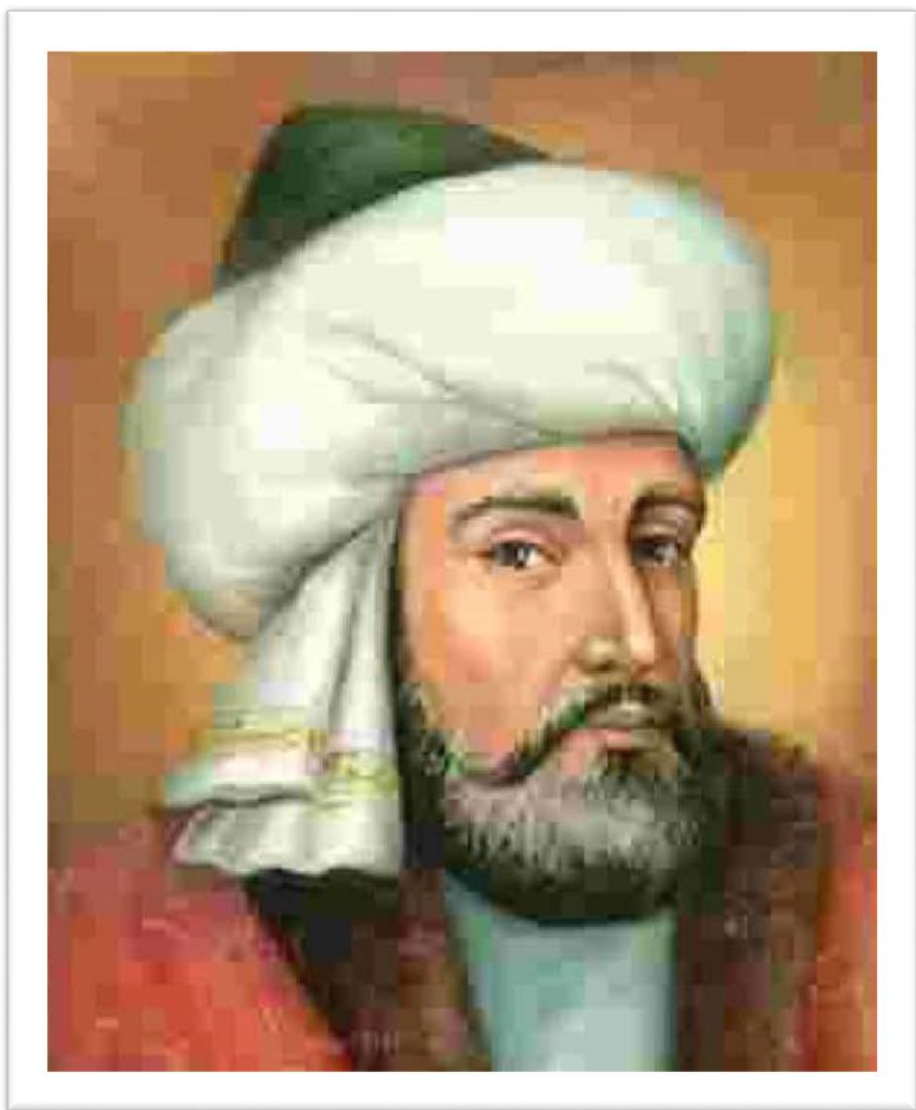
فأي مهانة هذه التي وصلنا إليها وأي ذل ذلك الذي نحن فيه، وأي مستوى علمي الذي انحدرنا إليه، وأي تخلف اقتصادي، وأي مستوى صحي واجتماعي وأخلاقي الذي نحياه ونعيشه، ثم نسأل لماذا يبتعد الغرب عن الإسلام؟

فباختصار شديد قديماً كانت هناك صورة مشرفة للإسلام وأهله تشجع على الدخول فيه رغم كل الصراعات والحروب التي خاضتها الدول الإسلامية التي كانت ترفع رايات الجهاد عالية خفاقة، بينما الآن ونحن في سلم وهمي كاذب وبدون حروب مباشرة، فنعيش في ذل وهوان أي كغذاء السيل فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغذاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت»^(١).

وفي ختام ذلك نذكر بما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم حيث يصف حالنا وعلاجه في قوله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ١٠)، والرويانى في مسنده (ج ٢٥ / ١٣٤ / ٢)

(٢) هذا الحديث رواه أحمد (٤٩٨٧) وأبو داود (٣٤٦٢) وصححه الألبانى في صحيح أبي داود.



أرطغرل بن سليمان شاه

يقال إن الفرصة قد تأتي للإنسان مرة واحدة، فإذا استغلها فقد ظفرَ وفازَ، وإن ضاعت منه فلن تتكرر، وقد نتفق بعضُ الشيء مع هذا القول.

ففي الجزء الأول منه، نراه قد يكونَ صحيحاً، حيث الفرصة قد تأتي في شكلها الذي جاءت به مرة واحدة، بحيث إن تجددت مرة أخرى، قد تكون الظروف غير مواكبة كما كانت في عهدها الأول، أما الجزء الثاني فنتفق معه ولكن مع ضرورة أن يكون استغلالها بما يرضى الله تعالى وفي إطار شرعه القويم، فلا تترك الكلمة هكذا مطلقة؛ لما قد تحمله من عوار في الفهم، وحديثنا عن شيء من هذا القبيل.

فحديثنا عن شخصية عظيمة من شخصيات الدولة العثمانية الكبار الكرام، حديثنا عن رجل كان مقدماً شجاعاً، قد أقول إنه من نواذر الرجال، فحديثنا عن أحد المؤسسين الأوائل في تأسيس مُلك العثمانيين، فحقاً إن المؤسس الأول لها هو السلطان عثمان، والذي نسبت إليه الدولة بعد ذلك، ولكن هذا التأسيس لم يأت هباءً أو عبثاً، بل سبقه ترتيبات كثيرة وأحداث وإرهاصات أكثر، من بينها الأحداث التي دارت مع شخصيتنا هذه وهي شخصية "أرطغرل بن سليمان شاه".

فالعثمانيون ينتسبون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان^(٢٥)، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي في ذلك الوقت بقيادة جنكيز خان على العراق ومناطق شمال آسيا الصغرى فإن سليمان^(٢٦) -جد عثمان- ووالد أرطغرل هاجر في عام ٦١٧ هـ -

^(٢٥) تكون من كلمتين كرد وستان أي بلاد الكرد مصطلح يستعمله الأكراد للإشارة إلى منطقة جغرافية كبيرة ممتدة في عدة دول، ولقد استعمل هذا الاسم لأول مرة من قبل الآشوريين في العصور القديمة، وكردستان تشمل ثلاثة أجزاء رئيسية، يطلق عليها كردستان تركيا وكردستان إيران وكردستان العراق، بالإضافة إلى أطراف صغيرة على الحدود الجنوبية لأرمينيا.

^(٢٦) يقال إن اسمه كوندز ألب وليس سليمان شاه، وورد أن الاسمين لشخص واحد، وتذكر الروايات أنه قد مات غرقاً.

١٢٢٠م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول، فاستقر في مدينة أخلاط (٢٧) ثم وافته المنية في عام ٦١٧هـ - ١٢٣٠م ، وخلفه من بعده ابنه الأوسط أرطغرل (٢٨)، ويقال أيضاً "طغرل" (٢٩) الذي واصل التحرك نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمئة فارس (٣٠).

ونريد سوياً أن نتخيل الصورة التي عليها قبيلة أرطغرل الآن، حيث إنهم مهددون بالخطر من كل جانب، وفي كل وقت من هجمات التتار، ناهيك عن قطاع الطرق الذين يترصدون لأخذ أي غنيمة لهم، أي أن الوضع خطر عسكرياً بشكل كبير جداً، إضافة إلى أن المؤن المتواجدة قد تنفذ في أي وقت، وبالتالي لا بد من تحركات فورية للبحث عن طعام، وهذا أيضاً يحمل بعض الخطورة في ذاته ولكن لا بد منه، فالعشيرة بها أطفال لا تتحمل، هذا إن تحمل الكبار.

فالوضع في هذه الصورة غير مستقر بالمرة، وهذا هو الابتلاء الشديد الذي نراه **منحة** من رب العزة - عز وجل - إلى هؤلاء الرجال وخصوصاً الأربعمئة الفوارس، حيث أصبح الاهتمام العسكري لديهم في غاية الأهمية وعلى أعلى المستويات؛ وبالتالي كانت التدريبات العسكرية لهؤلاء الفرسان دائمة ومستمرة، رغم قلة عددهم، فلا بد من حماية لهذه العشيرة؛ فكانوا من الفرسان المجاهدين، وربما أيضاً لشدة الأزمة أصبح التعلق بالله على أعلى ما يكون، ناهيك عن التربية الدينية القوية والتي ظهرت منذ سليمان الجد الأكبر لأولاده، وزعيم القبيلة ككل.

(٢٧) مدينة شرق تركيا الحالية.

(٢٨) على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٤١.

(٢٩) محمد سهيل طقوش تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ص ٢٤.

(٣٠) على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٤١ - راجع أيضاً كارل بروكلمان تاريخ الشعوب ص ٣٨٥

خلاصة القول نرى أن كل هذه العوامل قد اجتمعت لتربي وتزكي نفوس هذه العشيرة وهؤلاء الرجال، حيث حب الجهاد في سبيل الله والتعلق به، والعمل على طاعته والرغبة في نصرته دينه، وبالتالي كانوا فرساناً على حق ما يكون المسلم، حتى إذا أتى الاختبار كانوا على قدره، فباختصار نرى أن ما مرت به هذه القبيلة الصغيرة كان مرحلة إعداد وتأهيل لما اختبرت له.

وبالفعل كان الاختبار الحقيقي، والفرصة الخطيرة، التي قد لا تتكرر، إذ أثناء مسير أرطغرل بالعشيرة يسمع جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين^(٣١) ونصارى^(٣٢) وكانت الغلبة في هذا الوضع للجيش البيزنطي^(٣٣).

وقفة:

ونريد أن نقف وقفة لنعرف قدر الرجل المجاهد في موقف كهذا، فالوضع كما ذكرنا من قبل يتسم بالصعوبة، فعشيرة مشتتة غير مستقرة، والحرب الدائرة أمامه بين نصارى ومسلمين والنصر يقترب بشدة في اتجاه النصارى، فأصبح بين أمرين إما أن يعرض نفسه والفرسان للخطر الشديد بالنزول مع الجيش المسلم الذي قد ينهزم وينهزمون معه؛ وبالتالي ترتفع مستويات الخطورة إلى أعالي المستويات على عشيرته كلها، أو الاختيار الثاني وهو الرجوع وإكمال المسير بعيداً عن أجواء المعركة، فهو لم يُرَ لآن ولم يشعر به المسلمون ولا النصارى، فلن يجد كلمة توبيخ من جانب المسلمين ولا عدا من قبل النصارى، وأحسب أن اختيار التراجع والانسحاب سيكون محبداً لدى كثير من الساسة والخبراء العسكريين اليوم، لأنهم يحسبونها حسيبة دنيوية بحثة، فماذا إذن كان رد فعل أرطغرل؟

(٣١) يقال في بعض الروايات أنه لم يكن يعلم عقيدة أي الفرقتين المقاتلتين ولكنه ناصر الضعيف فيهم، وهذا قول مغلو.

(٣٢) جند من نصارى الروم ضد جند من السلاجقة

(٣٣) على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٤١.

فكر أرطغرل في نصرته المسلمين الذين ينهارون أمامه في حربهم مع النصاري، ولذلك اتخذ القرار الجريء السريع ابتغاء وجه الله تعالى.

فتقدم بكل حماس وبسالة وثبات لنجدة إخوانه في الدين والعقيدة، فقلبت المعركة رأساً على عقب بنزول هؤلاء الفرسان بصيحات التكبير التي خلعت القلوب النصرانية وثبتت قلوب قوم مؤمنين فكان النصر حليفاً للجيش المسلم بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة الساحقة.

وقد أظهر أرطغرل وجنوده بسالة رائعة وشجاعة نادرة وأثبتوا كفاءة قتالية عالية لفقت نظر السلطان السلجوقي آنذاك، الذي أراد أن يستغل هذه المواهب العسكرية في نصرته الإسلام وحراسة الحدود من البيزنطيين^(٣٤)، فأقطعه أرضاً في الحدود الغربية بالأناضول بجوار الثغور في الروم وسمح لهم بالتوسع على حساب الروم، فحقق السلاجقة بذلك علاقة حميمة مع قبيلة أرطغرل، نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين،^(٣٥) بل ويدافع بحمية المؤمن المقاتل الذي لا يريد سوى رفعة هذا الدين.

فريّة: (٣٦)

وأود أن أقف على فريّة أُلقيت على أرطغرل، حيث يذكرها المؤرخون الغربيون وكذلك بعض الكتاب العرب، أن السلطان السلجوقي وقائد الجيش الذي قاتل معه أرطغرل لم يمنحه سوى قطعة الأرض فقط وما أذن له بالتوسع على حساب الروم، بل إن أرطغرل هو الذي توسع من تلقاء نفسه باسم السلطان، وإنني أتساءل عن مصادر الكتاب العرب في هذا؟

(٣٤) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ص ٢٥ بتصرف

(٣٥) على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٤١

(٣٦) لغة هو الكذب والجمع فري، واصطلاحاً قد يطلق على القذف.

فسوف تكون الاجابة مصادراً هم كتبٌ غربية فقط، إما عن مستشرق أو حاقد أو حاسد على الإنجازات الإسلامية، والتساؤل الذي يطرح نفسه في هذا الوقت، كيف للسلطان السلجوقي آنذاك أن يترك أرطغرل يفتح المناطق الرومية باسمه ولا تنسب له وتكون تحت ملكه؟ بل كيف أصلاً يسمح له بفعل أشياء تثير عدااء الروم وهو الذي قد كان سيهزم جيشه لولا فضل الله ثم تدخل أرطغرل؟ أليس في فتح مناطق جديدة بأرض الروم إثارة لعدائهم؟ وقد يترتب عليها حرب بينهم!

وغير ذلك من الأمور والتساؤلات التي لن تجد لها إجابة سوى أن السلاجقة سمحوا لأرطغرل بالتوسع فعلياً، لأن في ذلك فوائدٌ عدة، من بينها سد الثغور، وإغلاق الروم، وعمل حائط صد قوى يقوى من وقت لآخر، إضافة إلى نشر الإسلام عن طريقهم.

وعلى هذا بدأ التوسع في الأراضي من قَبْلِ أرطغرل، الأمر الذي مهد لمن أتى بعده وهو عثمان بن أرطغرل أن يجد مراده في بذر تلك الدولة التي سوف تشق الأرض وتتوسع وتتجذر، ولكن أصل هذه البذرة والتي وجدت من يروبها ويحرسها ويرعاها كان أرطغرل بن سليمان شاه الذي أخلص لله تعالى فَوْقَ أن يتوسع، ويترك مقاطعة كبيرة تصل إلى ٤٨٠٠ كم تقريباً^(٣٧)، كما وُقِّقَ أبناؤه من بعده للقيام بهذه المهمة الثقيلة وهي تأسيس الدرع الحامي للمسلمين ونشر دين الله في ربوع الأرض.

وفاته:

ونتيجة لغزواته المستمرة مع البيزنط لقلب بالغازي، وتوفي -رحمه الله- عام ١٢٨١م وعمره ٩٠ سنة^(٣٨)، فرحم الله المقاتل المجاهد الفذ أرطغرل بن سليمان والد عثمان وجد سلسلة كبيرة عظيمة من الرجال الفاتحين من بينهم محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية.

رسالة إلى الأمة:

إن الابتلاء يأتي على قدر الرجال وإيمانهم بالله تعالى ولأن الله رحيم بالمؤمنين فلا يكلفهم ما لا يطيقون، ولذلك كان التأهيل أولاً في المحنة التي مر بها أرطغرل ومن معه؛ حتى يكونوا على قدر الاستعداد وذوي قوة وبأس شديد ليكونوا على قدر المهمة التي ستوكل لهم.

، Bölüm ١، OSMANLI DEVLETİ TARİHİ (SİYASİ TARİHİ)، YILMAZ ÖZTUNA^(٣٨)
sayfa 18

وعلى هذا أقول للأمة الإسلامية نحن الآن في فترة المحنة، في فترة الابتلاء، في فترة التأهيل والتميز والتنقية والتصفية للصفوف لنكون على قدر المهمة؛ حتى إذا جاء وقت الاختبار نكون أهلاً له، وننتصر بإذن الله تعالى.

ولو لم يكن للمحن فضل سوى إظهار المنافقين ومكر الماكرين، وإبراز الثابتين وصدق الصادقين، فكفاه من فضل يرتقى ليكون سبيلاً للنصر. فالمحن في طياتها منح ولكن لمن يفقه ويعي.



عثمان بن أرطغرل ووصيته الرائعة

عندما تشتدُّ المحنةُ على المسلمين إلى أقاصي الدَرَجاتِ، عندمَا يشتدُّ الظلامُ، عندما تصلُّ المصاعبُ والضغوطاتُ من الأقصى إلى الأقصى، فيُخرج الله من رحم المحنةِ منحةً، ففي زمانٍ كان المسلمون فيه بأشدِّ الأوقاتِ والمحنِ التي مرت عليهم على مر التاريخ، حيث التتار الذين اجتاحوا الأخضر واليابس بقيادة جنكيز خان زعيم تلك القبائل البشعة التي ما عرفت رحمةً إلا بعد أن دخل الإسلام في قلوب بعضاً منها^(١)، فخلال خمس سنوات دمروا الحضارة الإسلامية فخرّبوا بلادًا وقتلوا عبادًا لا يُحصى لهم عدد، فعلى سبيل المثال لا الحصر دخلوا مدينة "مرو" المسلمة وكان تعداد سكانها ٧٠٠ ألف نسمة، فقاموا بقتل كل سكان المدينة حتى فنيت عن آخرها^(٢)، فكانوا بهذه البشاعة، ثم جاء حفيده هولاكو وأتم مهمته فاستولى على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية، فنهبها وأحرقها وقتل معظم سكانها الذين بلغوا في ذلك الزمان قرابة الثمانمائة ألف نسمة بما فيهم الخليفة وحاشيته عام ٦٥٦ هـ، ١٢٨٥ م.

ففي خضمِّ تلك الأحداث البائسة، وفي زحام تلك المحنة الحالكة يُخرجُ الله تعالى المنحةَ، ففي العام الذي انهارت فيه دولة الخلافة الإسلامية ودخل هولاكو بغداد، وتعاضمت الفتنة على القلوب والعقول حتى زلزلوا زلزالاً شديداً، بل ظن البعض أنها نهاية الدنيا وأن هؤلاء هم يأجوج ومأجوج الذين يأكلون الأخضر واليابس، وجلس الآخر في انتظار خروج الشمس من المغرب وقيام القيامة^(٣)، ففي خضم كل هذا ولد طفل كان البذرة الأولى والنواة للدولة التي استطاعت في أقل من قرنين من الزمان

(١) وسمى الذين دخلوا الإسلام منهم بالقبليّة الذهبية على يد بركة خان والذي كان له فضل كبير في نصرته الإسلام والمسلمين ومحاربة التتار ذاتهم.

(٢) راجع دكتور راغب السرجاني، قصة التتار.

(٣) راجع ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية عن التتار.

أن تمتد جناحيها شرقاً وغرباً وجنوباً وتدق أبواب فيينا باسطة لواء الإسلام على معظم ما يُعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية واليونان وجزر الأبيض المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا كما استطاعت أن تُخضع لسيطرتها الأرض الممتدة من شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الإفريقية جنوباً وحدود المغرب الأقصى غرباً كما أنها مدت جناحها الشرقي حتى بلاد فارس وجبال كردستان شاغلة مساحة من الأرض قدرت بأكثر من ١٠ ملايين ميل مربع فكانت أقوى دولة في العالم آنذاك، وكل ذلك كان بميلاد عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية المجيدة التي لها فضل كبير على المسلمين في ربوع العالم وإلى يومنا هذا^(١).

توليهِ الحكم:

فبعد أن توفي أرطغرل تولى بعده عثمان، والذي بدأ يوسع إمارته فتمكن أن يضم إليها عام ٦٨٨ هـ قلعة "قرا حصار" (القلعة السوداء)^٢ أو "أفيون حصار"^٣، فسُرَّ الملك علاء الدين بهذا كثيراً، فمنحه لقب بيك، وسمح له بضرب العملة، وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة^(٤).

كل ذلك جعل من عثمان مكانةً كبيرة في عيون بقية الأتراك والقبائل المجاورة والتركمان، الأمر الذي سيفيد عثمان بعد ذلك وسيجعل دخول هؤلاء تحت لوائه أمراً

(١) راجع على حسون، تاريخ الدولة العثمانية ص ١١، ١٢ بتصرف.

(٢) وتكتب في المراجع العربية قره حصار.

(٣) تقع ولاية أفيون قره حصار (Afyonkarahisar) أو "أفيون" كما يتداولها الناس، في إقليم إيجة، وتصل منطقة غرب الأناضول بداخل الأناضول، وتعتبر عاصمة السياحة العلاجية لما تحتويه من ينابيع معدنية حارة تفيد في علاج الكثير من الأمراض، وتعتبر كذلك منتجاً هاماً للرخام والمواد الغذائية. وفي عام ٢٠٠٥ أصبح اسمها الرسمي أفيون قره حصار بعدما كان أفيون فقط.

(٤) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، الجزء ٨ ص ٦٢

يسيرًا، بالإضافة إلى ما عرف عن عثمان أنه ذو قلبٍ طيب، شب على البسالة والإقدام والكرم والحكمة والحلم وحسن القيادة.

عثمان يعلن استقلاله:

بعد أن أغار المغول سنة ١٣٠٠م على دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى، وحدث ما كان متوقعا إذ زالت دولة الأتراك السلاجقة وتوفي علاء الدين كيقيباد الثالث سنة ١٣٠٧م^(١)، فقام الأمراء -وعددهم ثلاثة عشر- أميرًا-بإعلان استقلالهم ومن بينهم عثمان الذي كان يحظى بالشهرة الأكبر والذي أسس الدولة الكبرى بعد ذلك وسميت باسمه -رحمه الله-^(٢).

فتوحاته:

بعد أن استتب لعثمان الأمر على المستوى الداخلي ومن ناحية الشمال، حيث وصل إلى البحر الأسود وبحر مرمرة وهزم جيوش الإمبراطورية البيزنطية واطمأن إلى عدم قدرتها على مفارعة قريبًا.

فحوّل أنظاره نحو حدود إمارته الجنوبية فهاجم البلدات والقرى والحصون الرومية المحيطة بمدينة «يكي شهر»^(٣) تمهيدًا لفتح هذه المدينة.

(١) قيل إنه لجأ إلى إمبراطورية بيزنطة ومات هناك وقيل أيضا أن المغول قتلوه، وإن كان الراجح لدى هو مقتله على أيدي المغول - راجع محمود شاكر التاريخ الإسلامي ج ٨ ص ٦٢

(٢) محمد حسن العيدروس التاريخ العسكري العثماني الأول ص ٤٥

(٣) ويقال لها يني شهر yeni şehir أي المدينة الجديدة، وأظن أن هذا هو الأصح وفقاً للغة التركية، وتقع في الجنوب من بحيرة إزنيق في شمال غرب الأناضول.

وقام عثمان بفتح المدن المحيطة بها والاستئثار ببعض هذه المقاطعات حتى فتح مدينة "يكي شهر"^(١) واتخذها عاصمةً له، كما اتخذ الراية التي ماتزال إلى يومنا هذا العلم التركي المؤلف من الهلال والنجمة، ودعا نفسه بادشاه آل عثمان،^(٢) وبذلك فقد أسس عثمان دولةً أو بمعنى أدق وضع الأسس لتلك الدولة التي انشغل برعايتها وتأسيسها على طاعة الله، وجعل لها علماً وعاصمة وجيشاً وفكراً ووعياً^(٣).

عمل على توسيع ملكه في أزميت ثم إزنيق، ولكنه لم يتمكن من فتحها فعاد إلى عاصمته وأخذ في تحصينها وتأمينها وزيادة جيشها حتى إذا أطمأن وتجهز للقتال؛ أرسل إلى أمراء ببلاد آسيا يخبرهم بين أمور ثلاثة:

١- دخول الإسلام.

٢- الجزية.

٣- الحرب.

فأسلم البعض، وأنضم البعض إليه، وقبل البعض دفع الجزية واستعان الباقون على السلطان عثمان الذي هباً لمحاربتهم جيشاً جراراً تحت إمرة ابنه أورخان فسار إليهم مع عدد ليس بالقليل من أمراء الروم ومن ضمنهم كوسه ميخائيل صديق عثمان الذي

(١) بعد أن فتحها؛ عمل على تحصينها وتقوية أسوارها، فراح يرسل الحملات ضد المدن البيزنطية، ففتح قلاعاً عدة منها: لفكه، وأق حصار، وقوج حصار، وحصن كته، وحصن كبوه، وحصن يكيجه طرا قلو، وحصن تكرر بيكاري، وقلعة مرمره جق، وقلعة كوبري حصار.

فأصبح حول العاصمة مجموعة من القلاع سالفة الذكر التي كانت كحزامٍ أمنيٍّ على بني شهر، فأحاطها عثمان بذلك بسلسلةٍ من الحصون الأمامية لدرء أي خطر عنها.

(٢) على حسون، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٣-راجع أيضاً محمد حسن العيدروس التاريخ العسكري العثماني الأول ص ٤٥.

(٣) وإن كنا نرى مع من يرى أن أرطغرل هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، بينما عثمان هو الذي وضع أطرها كدولة عظمى بعد ذلك.

أسلم، وبعد أحداث كثيرة استطاع الجيش بقيادة أورخان أن يفتح بورصة وما حولها من قلاع وحصون^(١).

أي نستطيع القول باختصار قد كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهادًا بالحرب وسعيًا بالتخطيط الإداري والتنفيذ في الإمارة فكان موكلاً إلى علماء الدين وكانوا يحيطون بالأمير ويتولون مسؤولياتهم.

وفاة ووصية:

وتوفي^(٢) عثمان عندما كان ابنه أورخان يحاصر مدينة بورصة، ولكنه وهو على فراش الموت قد أوصى بوصية لتكون سراجاً لابنه في الحكم وكذلك لمن بعده، وقد سجلها المؤرخ العثماني عاشق جلبي والتزم بها أورخان -رحمه الله- وكل من جاء من بعده من سلاطين العثمانيين خصوصاً الأوائل منهم، وهي:

"يا بُنَيَّ إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موقلاً."

يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة."

(١) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني الأول ص ٤٦

(٢) اختلف المؤرخون في تحديد موعد وفاة عثمان، فقيل إنه توفي يوم 21 رمضان 726 هـ الموافق فيه 21 آب (أغسطس) 1326 م، وله من العمر سبعين سنة. وقال المؤرخ العثماني روجي چلبی الذي عاش خلال القرن الخامس عشر الميلاديّ ودوّّن تاريخ الدولة العثمانية حتى سنة 1481م في كتابه حامل عنوان «تاريخ آل عثمان» «أنّ وفاة عثمان الغازي كانت سنة 1320م. ووفقاً للمؤرخ أوروچ بن عادل الذي عاش في عهد محمد الفاتح وبايزيد الثاني حتى سنة 1502م فإنّ عثمان توفي في سنة 1327م. ويذكر المؤرخ التركي المعاصر نجدت صاكا أو غلو أنه على الرغم من عدم وجود وثائق تذكر اسم عثمان بعد سنة ١٣٢٠م، فإن هناك وثائق تؤكد تولّي أورخان الإمارة في سنة 1324م، واعتماداً على ذلك فإنّ وفاة عثمان غازي تكون قد وقعت في ذات السنة سالفة الذكر وفق هذا الرأي.

يا بُنَيَّ: إنك تعلم أن غایتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله.

يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل"^(١).

ونريد أن نقف وقفةً صغيرةً مع هذه الوصية الرائعة التي تعتبر نبأاً للحكم ودستوراً للدولة إن سارت عليه نجحت وارتقت وعلت وتفوقت مثلما فعل أبناء وأحفاد عثمان -رحمه الله-.

فبداية إن هذا الكلام لا يخرج إلا من رجل ذي عقل مستنير بنور الله تعالى وتقواه وإيمانه، فهو رجل تربي على أيدي العلماء وعاش معهم ومع كتاب الله، فالوصية ما هي إلا تعاليم وأحكام وضوابط مستقاة من شرع الله تعالى ومن حياة الرسول والصحابة والتابعين، يستنبطها الحاكم الصالح من أمثال عثمان بن أرطغرل، وعلى هذا سنأخذ هذه الوصية بالتوضيح والبيان لعلها تعود بالفائدة لمن يريد أن يحكم دولة بشرع الله أو من يريد الارتقاء والتقدم في سلم رقي الأمم.

يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فأتخذ من مشورة علماء الدين مؤناً:

إن طاعة الله هي الملاذ الأمن والصرح الذي لا ينهار والبناء والحصن الحصين الذي به نحيا وعليه نموت، فلذلك كانت بداية الوصية الرائعة هي ألا ينشغل الحاكم بشيء لم يأمر به الله تعالى، وبالنقيض أن يُشغل الحاكم نفسه بمرضاة الله رب العالمين، فعلى هذا سילقي رب العزة، وليكون سبباً وسبيلاً للنجاة يوم القيامة، لعله يدخل في

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ١٦

إطار السبعة الذين يستظلون عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله ليكون الإمام العادل.

وفى ذلك إشارة إلى المناهج التي تنتهج في نظام الحكم فلابد أن تكون على دين الله وألا تبتعد عن جادة طريقه سبحانه.

فاليوم نجد النظم العلمانية والليبرالية وغيرها من نظم الحكم التي لا تمت للإسلام بصلة على الرغم من قوله تعالى {إن الحكم إلا لله}؛ فبحكم الله وشرع الله تنجو الأمة وتتقدم، وبغير ذلك تكون الأمة الإسلامية كمثل ما هي عليه الآن من التشرذم والتحزب، والاختلاف فذهبت ريحنا، وضغفت قوتنا وانقض علينا الأعداء من كل حذب وصوب، وانتشر المنافقون، والأفاكون والكاذبون.

فالأمة الإسلامية من أساسياتها أن لها رسالة واضحة، فإنها لا تتحرك بالحماسة فقط، لكن يجب أن يكون التحرك بعلم وفهم ووعى ودين، ثم الحماسة ولذلك إن انشغلت الدولة عما يخالف هذا الشرع وهذا المنهج شغلت بنفسها واقتنلت وانهارت والعكس بالعكس صحيح.

ويكمل عثمان بأمر في غاية الأهمية وهو أمر الشورى فيقول لأبنيه أورخان وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين مونا، فالشورى هي الركيزة الأساسية للحكم استناداً إلى قوله تعالى "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (١) فليس عبثاً أن يسمي الله تعالى في كتابه العزيز سورة كاملة باسم الشورى، ألا يعطى هذا لبنى الإسلام إشارة لأهمية هذا الأمر وجلاله؟، ألا يشير إلى أن نتوقف عن استيراد أنظمة فاسدة؟.

(١) سورة ال عمران الآية ١٥٩

فلأسف الشديد نستبدل اليوم بأنظمتنا الإسلامية أنظمة ما أنزل الله بها من سلطان كالديمقراطية، التي مفادها ومختصرها ما يتفق عليه الأغلبية مهما كان، مما يعنى البلاء والطامة الكبرى على الأمة كاملة، ولعل هذا يستدعي أن نتطرق إلى أمر التفرقة بين الشورى والديمقراطية حتى تتضح الصورة جلية.

وبداية لا يجب أن نأخذ الأمر ونحن بصدد الحديث عن الديمقراطية أن العلاقة بينهما علاقة تضاد، فكل نظام استقلاله التام بأسسه ومبادئه وآلياته، فالشورى صورة من صور المشاركة في الحكم في الإسلام، أما الديمقراطية فهي نظام الأغلبية للتفويض في الحكم، ويوجد بينهما اتفاق واختلاف يستدعي أن نحاول إيجازه في نقاط صغيرة للإيضاح، ولأن المقام لا يتسع لهذا كله، فسنذكر أوجه الخلاف بين الشورى والديمقراطية:

أولاً: من حيث المصدر:

الشورى مصدرها شرع الله - عز وجل - المنزل على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ولذلك، فهي منهج من لدن حكيم خبير، بينما الديمقراطية من ابتداع البشر أي أنها وضعية المصدر.

ثانياً: طبيعة الحكم تكون لمن:

وهذا يعد أبرز الخلافات الجوهرية بين الشورى والديمقراطية والتي تعتبر وفقاً لمفهومها أن الحكم يكون للشعب وليس لأي أحد آخر ولو كان لرب العزة سبحانه.

أما في الشورى، فالحكم لله ولا يكون إلا لله، أما القول بأن أخذ الشورى يكون وفقاً لإرادة أهلها، أي وفقاً للهي، فهذا قول مردود ذلك لأن أهل الشورى إنما يسيرون في إطار أحكام الله تعالى ولا يخرجون عنها بأي حال من الأحوال، بل حتى إن حاولوا الخروج عنها فيمكن ردهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، لأن هذين هما النبراس

الذي نسير عليه والفيصل بين المختلفين، عكس الديمقراطية التي مردها هو قول الأغلبية فقط.

ثالثاً: مبنى الشورى والديمقراطية:

فالشورى مبناها الرأي لا العدد، أي الاعتماد على أهل الخبرة والرأي في كل مجال من المجالات ولا يفرق العدد في ذلك خارج إطار أهل الشورى والرأي والتخصص والعلم، أيأ كان عدد آراء العوام المخالف لرأى أهل العلم والتخصص من أهل الشورى، فالأولى رأي أهل التخصص والعلم في إطار الشرع؛ وفى ذلك اختلاف بينها وبين الديمقراطية التي مبناها العدد لا الرأي، فوفقاً لها محور الأمر وخلاصته هو ما يتفق عليه الأغلبية مهما كان رأى أهل التخصص وعلماء الدين.

رابعاً: سيادة الشرع أم سيادة الشعب:

فالديمقراطية تمارس في ظل مبدأ سيادة الأمة والشعب لا سيادة الشرع، وذلك عكس الشورى التي مبناها الأساس سيادة الشرع مهما اتفقت الدنيا كلها على مخالفته.

خامساً: حدود الشورى والديمقراطية:

إن الشورى والشرع مرتبطان ارتباطاً وثيقاً لا يقبل التجزئة لذلك فهي تحدد بإطاره ولا تخرج عنه بأي حال من الأحوال، وذلك عكس الديمقراطية، التي لا يحددها حد ولا يوقفها شيء، فإن أرادت الجماعة أن تحل الزنا أحلته وإن أرادت شرب الخمر شربته وإن أرادت مساواة الرجل بالمرأة في الميراث فعلت وكذا في كل الأمور، عكس الشورى التي لا تخرج عن إطار شرع الله.

سادساً: حكم ترك العمل بهما:

إن العمل بالشورى إنما هو أمر مرتبط بالعقيدة لارتباط الأحكام الشرعية بالعقيدة الإسلامية، حيث لا انفصام فيها، وعلى هذا فالعمل بالشورى واجب وضرورة

شرعية لا جدال فيها، وترك العمل به هو مما لا يجوز شرعاً وتحاسب عليه الأمة الإسلامية^(١).

أما العمل بالديمقراطية التي هي قائمة على أساس قطع الصلة بالإحكام الشرعية من حياة الفرد والمجتمع، أي أنها تقوم على مبدأ العلمنة الذي يفصل الدين عن الدولة، وأنه لا صلة للأديان بالجوانب التشريعية والتنفيذية والقضائية في الدولة، أي أنها قائمة على علاقة تضاد بين الدين والدولة، وهذا قطعاً لا يجوز العمل به بأي حال من الأحوال، فما فرضته الدول الغربية علينا منذ الاحتلال التي حدثت في بلداننا لا يجوز الاستمرار فيه ولا بد من تركه حينما تسنح الفرصة، وهذا الدور غير منوط به الحكام فقط بل والشعوب المسلمة أيضاً.

سابعاً: طبيعة النظام المطبق فيه:

إن الديمقراطية غالباً ما كانت تمارس في أنظمة سياسية لا دينية لا سيما في الغرب لأن الاعتقاد السائد في هذه البلدان أن الحكم الديني يَنْتُج عنه طبقة كهنوتية تتحكم في مقاليد الأمور، وبالتالي مصادرة أي مخالفة للرأي وإصدار أحكام بالزندقة لمن يرتقي بالعلم أو يعارض الكنيسة أو غير ذلك مما حدث في القرون الوسطى المظلمة بأوروبا وخصوصاً قبل الثورة الفرنسية، فهذه هي طبيعة هذه الدول وهذه هي عقيدتها وهذا هو تاريخها.

أما في دولنا الإسلامية فالأمر جُلّه مختلف عن هذه الأحداث وهذه البنيات الأساسية في المجتمع الغربي، فالشوري ونظام الشورى لا يخلف طبقة كهنوتية البتة، بل أهل رأي وشورى في كل تخصص وأهل علم وفن من الفنون يبذلون الرأي ويظهرونه جلياً وفقاً للمصلحة الشرعية أولاً ثم الحياتية ثانياً وإن كان لا انفصام بينهما إن

(١) ويفرق الأمر قطعاً كون الأمة تركت هذا مقتنعة بوجوب تركه أم مكرهه عليه، كما يفرق بين القادر على فعل شيء من تغيير مجريات الأمور وهو مقصراً في ذلك، وبين العاجز المكره الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوي الدعاء.

سارت حياتنا وفقاً لمقتضيات الشرع لا الهوى، وعلى هذا فإن طبيعة البلدان الغربية إن تقبلت الأنظمة الديمقراطية، فهي لا تتماشى مع بيئتنا ومجتمعنا.

وإن كان الواقع يؤكد أن الانتخابات تزور بهذه الدول الغربية، ويتم التلاعب بنتائج الانتخابات وذلك بالأعيب وسبل كثيرة من بينها "فكرة احتساب المقاعد في البرلمان" فيوضع عدة أنظمة تخدم الأكثرية أو تفتت المجتمع بحجة الأقلية أو غير ذلك من الأمور التي أثبتت أن هذه الأنظمة غير جديرة بتحقيق التوازن المجتمعي بأي حال من الأحوال^(١).

فإذا كان الوضع كذلك ومجتمعاتنا تختلف عن هؤلاء جذرياً فلماذا نصر على استيراد هذه المفاهيم وهذه السبل؟ ونحن لدينا ما يصلح لنا، وما صلحنا إلا به من قبل وكنا أسياد العالم عندما عملنا به.

ثامناً: أهداف الشورى والديمقراطية:

إذا تم حصر أهداف الديمقراطية فسنجد أنها تدور في فلك القضايا المادية وتبعد كل البعد عن القضايا الروحية، وذلك عكس الشورى التي تحقق التوازن بين القضايا المادية والروحية، إذ إنها مستقاة من روح الشرع الحكيم الذي قوامه تحقيق التوازن بين الروح والجسد.

(١) يوجد كتب كثيرة تحدثت عن طرق الانتخابات وفكرة احتساب المقاعد وغير ذلك من السبل والطرق يمكن مراجعة أي منها لفهم هذا الأمر والتأكد من تزوير الانتخابات في هذه الدول وبالقانون، إذ أن المجال هنا لا يسمح بتنفيذ أكثر من ذلك.

تاسعاً: المنوطون بالتطبيق:

من أبرز التمايزات بين الشورى والديمقراطية فكرة أهل الشورى من يكونون؟، وأهل الديمقراطية من الذين يقررونهم؟ أي من هم المنوطون بتطبيق الشورى أو المنوطون بتطبيق الديمقراطية؟

فإذا نظرنا إلى الوضع في الديمقراطية سنجد أن أهلها يقولون أن المنوطين بتطبيقها هم الشعب ككل بجميع أفرادهم، وإن كان تحقيق ذلك وفقاً لهذا المفهوم مستحيلاً ولم يتحقق في أي دولة من دول العالم حتي وقتنا الحالي، ولكن على الأقل نستطيع أن نقول إنهم يقصدون غالبية الشعب، بمن فيهم من يعي ومن لا يعي، من يفقه قيمة الشيء الذي سيصوت عليه ومن لا يفهم، من جاء بدافع المصلحة العامة، أو من جاء بدافع المصلحة الشخصية، ولذلك سنجد أن أغلب الديمقراطيات يسهل التحكم فيها وتوجيهها دون أدنى صعوبة في ذلك سواء من الحكام، أو من يديرون مثل هذه الألاعيب، فعلى سبيل المثال لا الحصر سنجد أن المتحكم في الانتخابات الأمريكية هو اللوبي الصهيوني رغم عظم مساحة الولايات المتحدة وكثرة التعداد السكاني بها وقلة عدد اليهود فيها مقارنة بعدد السكان من غير اليهود، إلا أن المتحكم في الانتخابات هو اللوبي الصهيوني الذي أغلبه بمدينة نيويورك، فهل هذا هو التمثيل الصحيح للانتخابات وللديمقراطيات؟

وحتى في دولنا العربية التي يظهر فيها بجلاء دور الرشوة في تحريك الانتخابات وفقاً للمسار الذي يريده الحزب الحاكم، بل يعيد هيكلة النظام الانتخابي وفقاً لأهوائه، حتى في نهاية المطاف يفوز الحزب الحاكم، وبأغلبية ساحقة وفقاً للنظام الديمقراطي، فيكون له الحكم الديكتاتوري تحت مسمى برّاق وهو الديمقراطية.

بينما الوضع في الشورى يختلف إذ إنه مرهونٌ بأهل الحل والعقد من العارفين والعالمين بما سوف يصوتون عليه وما يدلون فيه من الرأي، وقد يثور تساؤل أليس من الممكن أن ينحرف أهل الحل والعقد ويتجهوا إلى ما يخالف الشريعة الإسلامية؟

إن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه دون أن يُكشف على الفور، ذلك لأن الأصول الإسلامية ثابتة لا جدال فيها ولا خلاف، أما الفروع فهي التي فيها الخلاف، وهذه الفروع لن تضر أحدًا إن اتُخذ فيها قولٌ من الأقوال وفقًا للصالح العام.

فعلي سبيل المثال، لو أن أهل الشورى قرروا فرض ضريبة في وقت من الأوقات وقالوا إن هذه الضريبة ستكون مدي الحياة، فهنا فورًا يكشف العوار الذي قامت به إذ إن الضريبة في الإسلام لها ضوابط وشروط من بينها أنها مؤقتة حتى لا يرهق كاهل المسلمين.

وحتى على سبيل المعاهدات الدولية، فإذا أقرت الدولة معاهدة مع عدو من أعداء الإسلام بجعل سلام دائم بيننا وبينهم فهنا يُكتشف عوار مثل هذه الأمور إذ إن الهدنة أو الاتفاقيات الدولية في الإسلام بيننا وبين الأعداء لا تكون إلا بوقت مثلما حدث في صلح الحديبية.

أما الفروع في هذا وذاك، هو تأقيت مدة الضريبة هل ستكون شهر أو سنة، حسب الظرف الراهن، وكذلك في مدة المعاهدة هل تكون عشر سنين أو خمس عشرة سنة، وفقًا أيضًا للوضع الراهن، إلا أن هذا كله في الختام يكون في إطار الشريعة الإسلامية ولا يخرج عنها.

يا بني أخط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

ينصح السلطان عثمان أبناءه من بعده في هذا الجزء بنصائح في غاية الأهمية كسابقتها، وإن كان في هذا الجزء هلاك الأمة إن لم يعمل الحكام بهذه الكلمات الطيبة، وذلك لأنها مستقاة من القرآن الكريم والشرع الحكيم.

فيقول أخط من أطاعك بالإعزاز، وهذا من الأمور المهمة التي تجعل الرعية يحبون حاكمهم وبطبيعونه حباً لا كرهاً، بل حتي إنه من الشروط والضوابط التي لابد للخليفة القرشي (سنفصل في ذلك لاحقاً) أن يعمل بها وهي بسط الرحمة للرعية ما إن استرحم ففي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ، إِنْ لَهِمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ حَقًّا مِثْلَ ذَلِكَ، مَا إِنْ اسْتَرْحَمُوا رَحِمُوا، وَإِنْ عَاهَدُوا وَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا عَدَلُوا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١)، فأصبح إحاطة الرعية التي تطيع الحاكم بالرحمة والعدل من الشروط المهمة للخليفة والتي إذ لم يفعلها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وقوله أنعم على الجنود: فتجد ذلك القول من وحي الشريعة الغراء بل من إعجاز التشريع الإسلامي الذي يراعي النفس البشرية فجعل للجنود نصيباً محفوظاً في الغنائم^(٢) التي تغتنم في الحرب، وسواء كان التوزيع في دار الحرب بعد انهزام العدو

(١) رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك

(٢) الغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار عن طريق الحرب والقتال.

أنواع الغنائم:

الغنائم التي يأخذها المسلمون من الكفار ثلاثة أنواع:

١ - الأموال المنقولة كالنقود والحيوان والطعام.

٢ - الأسرى والسبايا كالنساء والأطفال.

٣ - الأرض.

كما قسم النبي -صلى الله عليه وسلم- غنائم بني المصطلق في بلادهم، وكما قسم غنائم خيبر فيها، أو أن تقسم الغنائم في طريق العودة إلى البلد مرة أخرى كما قسم النبي -صلى الله عليه وسلم- غنائم حنين في الجعرانة قرب مكة، وكما قسم الغنائم بذي الحليفة قرب المدينة.

فخلاصة القول: جعل الإسلام للجنود نصيباً مفروضاً معلوماً في الغنائم لأن النفس البشرية قد تغلب على الجندي الذي يرى جهداً بُذِلَ، ونصراً تَحَقَّقَ، وغنائم تَغْتَنَمُ، وهو يخرج من كل هذا خاوي الوفاض وبلا أدنى نصيب في الدنيا، ولا أي منافع، ولذلك كان لابد من الإنعام على الجنود، حتى بعد ذلك إذا أراد الحاكم أن يعاقب الذي يخون أو الذي يقصر فيكون له كامل الحق في ذلك دون أن يكون عليه ذرة لوم^(١).

ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك: وهذا من أروع ما قاله من نصيح منبعه القرآن الكريم، فإذا رأينا ذا القرنين وهو الذي يملك الجنود والمال ويتحكم في الشعوب والبلاد والعباد بالعدل قائلاً "قال هذا رحمة من ربي"^(٢)، فكانت هذه العبارة المباركة إشارة إلى عدة معاني:

وتسمى الأنفال؛ لأنها زيادة في أموال المسلمين.
حكم الغنائم:

أحل الله الغنائم لهذه الأمة، ولم يحلها للأمم السابقة؛ لأن الله عز وجل علم ضعفنا وعجزنا فطبيها لنا.
١- قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩].
٢- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَعْطِيتُ خُمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأَجَلْتُ لِيَ الْمَغَانِمَ وَلَمْ تَجَلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». متفق عليه.

(١) وهذا ليس تبريراً لمن أراد أن يخون في وقتنا المعاصر، فالخيانة من كبائر الأمور

(٢) الكهف الآية ٩٨

منها "ونظر ذو القرنين إلى العمل العظيم الذي قام به؛ فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه...." (١).

فإن من أعظم صور الذكر أن يتذكر العبد فضل الله عليه فيستشعر عظم فضل الله عليه عظيم؛ فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر. (٢)

وقوله تعالى {حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} فهذا دلالة واضحة على أنه لولا رحمة الله تعالى لما كُتِب نصرٌ حتى للرسول، وإن النصر ليس بالقوة والعدة والعتاد إنما بفضل الله تعالى ورحمته؛ فلا يغتر المغترون بقوة الجيش ولا عتاده، وإن كان من الواجب على المسلمين أن يهتموا بالتسليح والجند وما إلى ذلك ولكن دون أن يغتروا به، أو يוכלوا أسباب النصر إليه، فما نفع فرعونَ جنوده، ووزرائه، بل كانوا كلهم في مصاف جهنم وبئس المصير ولذلك ستجد الآيات تضعهم في مصاف واحد طريقه جهنم {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} (٣)، فلا يغتر الحاكم بجنده وإلا كان هو وجنده في جهنم وبئس المصير.

وقول عثمان -رحمه الله- وإياك أن تباعد عن أهل الشريعة فهذا أيضاً منبعه القرآن الكريم وذلك من قوله تعالى {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ

(١) تفسير الطلال ج ٤ ص ٢٢٩٣

(٢) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٦٣

(٣) سورة القصص، الآية ٨

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ^(١) وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٢) وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ
عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا^(١).

فالأمر من الله تعالى واضح، وجلي، أن سبيل النجاة في الآخرة هو طريق الصالحين
فلا نعدو الأعين عن هؤلاء، ونسير في رحابهم، وعلى نصحتهم، ومشورتهم، وذلك
إن أردنا الجنة في الآخرة، والفلاح والصلاح في الدنيا، وعلى هذا سار عثمان ابن
أرطغرل، وعلى هذا نصح من بعده، وعلى هذا سار أبنائه وخصوصا الأوائل منهم.

**يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا
كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله.**

إن رضا المولى -عز وجل - هو غاية كل مسلم عمومًا، والقادة خصوصًا، الذين
يرجون نصره دين الله عز وجل، لا الذين يحبون الدنيا مثلما نحيا الآن بينهم
ويحكمون البلدان بعيدًا عن شرع الله، وتحت مسميات قانونية وألفاظ مستوردة من
الخارج، ما أنزل الله بها من سلطان، ولذلك لا نعجب من قول الله تعالى الذي ربط
رضاه سبحانه وتعالى بالجهاد في سبيله، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ
الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُوَافِقُوا رَبَّهُمْ رَبُّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ
ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٢) فقد جعل الله عز وجل الخروج في سبيله شريطة ابتغاء
مرضاته.

(١) سورة الكهف، الآية ٢٨

(٢) سورة الممتحنة الآية ١

وقد ورد ذكر الجهاد كثيراً في الكتاب والسنة، فمن ذلك قول الله تعالى في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} وقوله سبحانه: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} (١)

ومن ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» (٢).

ولذلك فإن العزة والذلة مقرونة بالتمسك بالجهاد وتركه، فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» (٣)

ولهذا فلا نعجب من حال الأمة الإسلامية اليوم حيث الذلة والمهانة؛ ذلك لبعدها كل البعد عن أمر الله وعن جهاده الذي هو ذروة سنام الإسلام.

يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل.

إن هذه الفقرة من الوصية تبين طبيعة تكوين الدولة العثمانية وسر نجاحها وتفوقها، وما يميزها عن غيرها من الدول، إذ الغاية التي قامت من أجلها هي الدفاع عن

(١) سورة الفرقان الآية ٥٢

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٤٦) والترمذي رقم ٢٦١٦ وابن ماجه ٣٩٧٣ عن معاذ بن جبل، وسنده جيد.

(٣) حديث صحيح من مجموع طرقه، وقد شرح الحديث الإمام المناوي في فيض القدير فقال: إذا تبايعتم بالعينة بكسر العين المهملة وسكون المثناة تحت ونون: وهو أن يبيع سلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه بأقل ليبقى الكثير في ذمته، وهي مكروهة عند الشافعية، والبيع صحيح، وحرمها غيرهم تمسكاً بظاهر الخبر، سميت عينة لحصول العين أي النقد فيها، (وأخذتم أذناب البقر) كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث، (ورضيتم بالزرع) أي بكونه همتمكم ونهتكم (وتركتكم الجهاد) أي غزو أعداء الرحمن ومصارعة الهوى والشيطان، (سلط الله) أي أرسل بجهده وقوته (عليكم ذلاً) بضم الذال المعجمة، وكسر ها ضعفاً واستهانة (لا ينزعه) لا يزيله ويكشفه عنكم (حتى ترجعوا إلى دينكم) أي الاشتغال بأمور دينكم.

الإسلام ورفع رايته في مشارق آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت تهدد المسلمين في ديارهم، ومن ثم لقب زعيم هذه الدولة الناشئة بلقب الغازي، أي المجاهد في سبيل الله، وكان يتلقى هذا اللقب في حفل مشهود بتسليمه راية الجهاد من عالم كبير وأن الغازي عثمان دعا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد في سبيل الله فاستجاب الكثير من المؤمنين الصابرين تحدوهم جميعاً رغبة شديدة في الانتصار لدين الله تعالى والقضاء على الدولة البيزنطية ذلك العدو الذي أرق كاهل المسلمين لفترات طويلة^(١).

قصة زواج عثمان بن أرطغرل:

كثير منا قد يعلم عن السلطان عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية الشهيرة التي ملئت الدنيا ووصلت بالإسلام من أقصاها إلى أقصاها، وذلك في زمن قوتها، إلى أن تكالب عليها الأعداء من الداخل والخارج فانهارت وألغيت الخلافة العثمانية الإسلامية عام ١٩٢٤.

ولكن هل يعلم أحد عن قصة زواج عثمان بن أرطغرل؟ فأنها قصة رائعة من العجائب.

فقد كان عثمان أثناء مسيره قد رأى رجلاً صالحاً مصادفة، وفي هذه الأثناء خرجت ابنته التي رآها ومذ رؤيتها تعلق قلبه بها لدرجة كبيرة، وقرر أن يطلبها للزواج ولكن أباه رفض، ولا تذكر المصادر سبب الرفض.

ولكن عثمان كان قلبه شغوفاً بها لأقصى الدرجات، فقد امتنع عن الزواج من النساء نهائياً إلى أن يبسر الله له الأمر من هذه المرأة التي تعلق به قلبه، وانشغل بها فكره وعقله، وملئت كيانه بمجرد رؤيتها حباً وسعادةً وسروراً.

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٦٦.

وفى يوم من أسعد أيامه نزل عثمان على هذا الرجل الصالح ليطلب منه ابنته مرة أخرى، ولكنه أصر على الرفض، فنزل عليه ضيقاً، وهو مهموم محزون، ولكنه متعلق بالله - عز وجل - فنام في بيت الرجل الصالح هذا - كضيف - فرأى رؤيا من أعجب الرؤى، قام من نومه على أثرها فرحاً ونادى الرجل الصالح هذا وقص عليه الرؤيا بإخلاص وصدق، فصدق الرجل ووافق بعدها على الزواج من ابنته.

ويروي صاحب الشقائق النعمانية هذه الرواية محدد هوية الشيخ وهو "أدب عالي" (١) فيذكر أنه كان من علماء زمانه وقد ارتحل لطلب العلم وتفقه فيه إلى أن عمل بخدمة عثمان بن أرطغرل وقد قام ببناء زاوية في الأراضي العثمانية، ليبين فيها المسافرين، وكان يبيت فيها عثمان، وهي التي رأى فيه الرؤيا (٢).

أتعلمون ما هي هذه الرؤيا التي كانت سببا في تزويج هذه البنت من عثمان؟!!

قد رأى عثمان القمر صعد من صدر هذا الشيخ وبعد أن صار بدراً، نزل في صدر عثمان ثم خرجت من صدره شجرة نمت في الحال حتى غطت الأكوان بظلمها، ونظر أكبر الجبال تحتها وخرج النيل ودجلة والفرات والطنجة (الدانوب) من جذعها ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يأخذها الريح حول مدينة القسطنطينية.

فكانت هذه شجرة آل عثمان المباركة التي فتحت الدنيا وأعادت الفتوحات والأمجاد مرة أخرى بعد أن توقفت وخمدت لفترة طويلة (٣).

تعقيب صغير:

عند تتبع هذه الرؤيا وغيرها من الرؤى التي تتحدث عن تأسيس الدول، نجد أنه على مر التاريخ قد دُست أمثال هذه الرؤى كما في رؤيا الإمام محمد العباسي لقيام الدولة

(١) وهو المعروف في الكتب التاريخية العربية باسم أده بالي

(٢) الشقائق النعمانية ص ٦

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية للأستاذ: محمد الخضري بك المحامي بتصرف مع التعقيب ص ١١٥، ١١٦ طبعة دار النفائس الطبعة الثانية عشر ٢٠١٢ بتحقيق الدكتور إحسان حقي.

العباسية وكذلك كما في رؤية تأسيس الدولة الغزنوية كما أوضحنا سابقًا حيث تذكر الأساطير والحوليات أنه وقبل أن يولد فاتح الهند محمود الغزنوي بساعة واحدة رأى أبوه سووك تكين فيما يري النائم كأن في بيته شجرة تخرج من موقد نار وتظلل الأرض كلها، وأنبأه عابر الرؤى بأن ابنه سيكون غازيًا^(١)

بل إن مثل هذه الرؤى ليست بالأمر الجديد بل هي أشياء توجد عبر التاريخ القديم وفي العصور الوسطى وفي شتي الدول سواء إسلامية أو نصرانية أو غير ذلك.

فإذا عدنا بالتاريخ إلى عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين فستجد مثل هذه الرؤى، حيث يروى أن قسطنطين أثناء زحفه لمحاربة خصمه رأى هالة من النور على شكل صليب وذلك أثناء غروب الشمس، فلما نام رأى رؤية وكان المسيح ومعه الصليب وقد أتى ليأمره باتخاذ الصليب شعارًا له والزحف على عدوه وأنه سينتصر بفضل هذا الصليب، لذلك اعتنق قسطنطين النصرانية.^(٢)

إضافة إلى أن غالبية الرؤى التي وردت في أمثال قيام الدول كروية عثمان التي هي موضع حديثنا، إما سندها ضعيف أو مرسل أو حالها مضطرب كما في هذه الرواية، ولكن أردنا ذكرها بتعقيب حتى يتم العلم للجميع بضعف هذه الرواية، وغيرها من الروايات المتعلقة بقيام الدول.

وللعلم فالدولة العثمانية لا تحتاج إلى مثل هذه الرؤى حتى يلمع نجمها، أو تلمع شخصياتها، فهي عظيمة في ذاتها كريمة بأهلها، عظيمة بجهادها.

ومن بين طيات الكتب أيقنت أن أسباب سقوط الدول هي تخليها عن العوامل والمقومات التي نهضت بها، وعلى رأس ذلك العقيدة.

(١) محمود فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة احمد السعيد سليمان.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٧



أورخان بن عثمان منشي نواة الإسلام بأوروبا

(٧٢٦هـ، ١٣٢٧م – ٧٦١هـ، ١٣٦٠م)

إن شخصية أورخان -رحمه الله- من الشخصيات التي ساهمت وأسست ملكًا استمر لقرون، ملكًا حافظًا على شوكة الإسلام قوية، ودافع عنها ونشر الإسلام أيما انتشار، فحديثنا عن أحد المؤسسين العظماء للدولة العثمانية، عن الرجل الذي حافظ على البناء الذي تأسس في عهد والده عثمان بن أرطغرل -رحمهم الله- جميعًا، فحديثنا عن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه.

مولده:

ولد -رحمه الله- بمدينة سُكود عاصمة الإمارة آنذاك سنة ٦٨٧هـ الموافقة لسنة ١٢٨١م^(١)، وقد نشأ على تربية والده بعقيدة صحيحة وجهاد في سبيل الله^(٢)، ويتضح ذلك من وصية أبيه له التي تتم على دين هؤلاء، والتي سبق وذكرناها.

(١) راجع الدولة العثمانية المجهولة ٣٠٣ سؤل وجواب عن الدولة العثمانية ص ٦٣.

(٢) والدته هي مال خاتون بنت الشيخ «أدبعالي»، وجدّه لأبيه هو الأمير الغازي أرطغرل بن سليمان شاه، وجدّته لأبيه هي حلّمة خاتون.

تولييه الحكم:

فبعد أن توفي عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية، أو بمعنى أدق من نسبت إليه الدولة، فخلف بعده أولادًا ستة، وهم علاء الدين وهو الابن الأكبر، وأورخان، وتشوبان، وملك، حميد وبازار لو وابنة واحدة اسمها فاطمة^(١)، كانت الوصية أن يتولى أورخان الحكم على الرغم من كونه ليس الابن الأكبر لعثمان، إلا أنه من الواضح أنه أظهر براعة في الإدارة والحكم تفوق بها على الجميع؛ لذلك كانت الوصية له وليس لأخيه الأكبر علاء الدين، وقد سار أورخان على نفس سياسة أبيه - رحمه الله - في الحكم والفتوحات، وعملاً بوصيته^(٢).

وقد كان أورخان - رحمه الله - عبقرية عسكرية وطارت شهرته إلى الآفاق في وقت قصير، ولعل سر نجاح ذلك أن الرأي كان يقوم على الشورى مع كبار رجال الدولة والاستفادة من خبراتهم من أمثال "علاء الدين باشا، ابن الوزير الحاج كمال الدين ومع أخيه علاء الدين باشا والملا تاج الدين الكردي وهو من صنف العلماء أيضًا والوزير خير الدين باشا والوزير "لاله شاهين" وهو من عظماء عصره والقاضي "جاندرلي قره خليل باشا" الذي كان قاضيا في بيلجك أولًا ثم في بورصة^(٣)، ويتضح من اختيارات أورخان للشورى أنها تجمع بين الخبرات العسكرية والأحكام الشرعية، وهو الأمر الذي لا يحمل أي انفصال نهائيًا فالشرع لا ينفصل عن الحياة، بل إن الشرع هو الحياة.

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ص ٣٣

(٢) راجع عبد السلام كمال، مظاهر حضارية من الثقافة العثمانية ص ٢١

(٣) راجع الدولة العثمانية المجهولة ٣٠٣ سؤل وجواب عن الدولة العثمانية ص ٦٤

ولعل أهم الانجازات التي حققها العثمانيون في أواخر عهد عثمان هو تخطي الإمارة العثمانية بعد وفاته دون تكبد أي خسارة لوحدها، ذلك أن العثمانيين لم يتبعوا التقليد التركي والمغولي، كما فعلت الإمارات التركمانية المحيطة بها، القائم على اقتسام السلطة وتوزيعها بين الإخوة^(١)، وكذلك مثلما يفعل المغول أيضاً من تقسيم الملك بعد موت الحاكم الأكبر للبلاد، مثل جنكيز خان الذي ما إن توفي حتى قسمت الإمارة المغولية على أبنائه مما ترتب عليه قصر عمرها بعد ذلك وسهولة التنازع الداخلي بينها والانقراض عليها.

وربما الأساس في ذلك أن الهوية لهؤلاء الرجال واضحة حيث إنهم يعلمون إلى أي دين ينتسبون، وينظرون إلى المهمة الثقيلة التي على كاهلهم وخصوصاً في ظل هذه الظروف العصيبة التي تمر بها الأمة الإسلامية من الخطر التتري، والخطر الصليبي في أن واحد، إضافة إلى أصحاب الأهواء والطامعين من كل حدب وصوب؛ فلذلك كانت الوحدة هي الأساس الواجب أن يكون دائماً وأبداً بصفة عامة، وفي هذه الأثناء بصفة خاصة، وإعمالاً لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢)، فالوحدة هي أساس النهوض بالأمة، وبدونها تفرق ونفشل وتذهب ريحنا فينقض علينا الأعداء وهذا هو ما حدث بالضبط للأمة الإسلامية، فبعد أن كانت وحدة واحدة لا يفصل بينها حاجز، وتربطها كلها رابطة الدين والعقيدة، فعمل أعداؤنا على إحلال روابط جديدة بعيدة عن العقيدة كروابط القومية والعصبية والقبلية، فأصبحت الحدود

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ص ٣٣

(٢) آل عمران - الآية ١٠٣

هي الأساس وتأثيرات العبور هي المعول عليها، بعد أن كان الإسلام فقط هو تأشيرة العبور.

أورخان والجهاد:

كان - رحمه الله - مجاهدًا محبًا للجهاد منذ أيام أبيه حين فتح بورصة دون سفك الدماء وجعلها عاصمة لدولته، وأضحت كلُّ من "نيقوميديا"^(١) و"نيقية" هدفًا لسياسته التوسعية^(٢)، فبعد أن تولى الحكم قد عين أخاه علاء الدين^(٣) وزيراً^(٤) له وأمره بوضع الشرائع ثم نقل كرسي الحكم إلى بورصة، وجعلها مركزاً للسلطنة واهتم بعدئذ بتوسيع البلاد بالجهاد، فأقام أخاه وكيلاً عنه لمّا تبين إخلاصه، وزحف بجيش جرار يبلغ عشرين ألف مقاتلٍ على بلاد اليونان واشتبك معها في حربٍ يشيب لهولها الولدان، وكتب له النصر بفضل الله تعالى، وانتزع قلعتي إزميت^٥ وإزنيق^٦، وأمتلك ولايتي "قره سي" و"يرغمه"، ثم حاصر قلعتي "سمندرة" و"أبيدوس" زمناً طويلاً حتى استولى عليها وأسر صاحب قلعة سمندرة.

(١) نسبة إلى نيقوميديس.

(٢) Gibbons pp55,56 طريق محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٣٨

(٣) يذكر البعض أن أساس تولية عثمان لابنه أورخان ليكون خلفاً له من بعده هو ميل أورخان للجهاد، وأنه رأى فيه شخصية القائد، بينما علاء الدين وهو الابن الأكبر فكان ميله إلى الورع والعلم. راجع محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية-ص ١٢٢، ولا نعلم لماذا يصير بعض المؤرخين على القول إنه كان يوجد صراعات بين الأخوين على السلطة وأن علاء الدين كان طامعاً فيها على الرغم من عدم وجود دليل واحد يؤكد وجهة نظرهم بل على العكس فكل الوقائع تؤكد أن الأمر تم بالرضي التام وعملاً بوصية الوالد واتفاقاً واتساقاً مع اختياره لأورخان لأنه الأصلح لهذا المكان، بل وعين أورخان علاء الدين وزيراً له، وترك له الوكالة في حالة غيابة التي كانت فترات طويلة في بعض الأحيان

(٤) يعتبر علاء الدين هو أول وزير عثماني في الدولة العثمانية.

(٥) معروفة في المراجع العربية باسم أزמיד

(٦) معروفة في المراجع العربية باسم إزنيك

أورخان والعلم:

وفي عام ٧٢٧هـ - ١٣٢٧م سقطت في يده - رحمه الله - نيقوميديا^(١)، والتي بعدها توقف وقفة إذ أولى اهتمامه تجاه العلم، حيث إنه يقدر قيمة العلم ويعلم فضل العلماء، وإنه لا سبيل للنهوض بهذه الأمة بدون العلم والرقى بطلبته وتذليل كل الصعوبات لهم وتيسير الأدوات اللازمة لهم للقيام بنهضة علمية تربوية أخلاقية تقوم على ثوابت العقيدة، فقام بإنشاء أول جامعة عثمانية، وقد عهد بإدارتها إلى داود القيصري، وهو أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا في مصر^(٢).

حيث كانت مصرفي ذلك الوقت أهلاً للعلم، بل كانت شرفاً كبيراً لمن يتعلم فيها، وكان يُقدم على غيره لأنه تعلم في مصر، ونسأل الله لمصر وأهلها النهوض، لأنها إذا نهضت تنهض الأمة كلها، فهي من الأوتاد الرئيسة للأمة الإسلامية، بل ومن الحصون الحصينة لدين الله تعالى في الأرض.

تأسيسه للدولة على أسس صحيحة:

وتظهر قدرات أورخان في كونه ورث دولة ليست لها قوانين أو حدود واضحة، يحيط بها جيران أقوى منها، فكان عليه أن يقيم دولة راسخة الأقدام والتوسع على حساب جيرانه وتحويل أتباعه من قبيلة تتسع إلى أمة تحمل زمام الأمور، وهم الدين، ونشر الإسلام^(٣)، ولذلك كان على رأس أولويات أورخان هو تأسيسه لجيش عظيم

(١) تقع في شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة إسطنبول وهي مدينة أزميت الحالية.

(٢) راجع على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٦٦.

(٣) حلیم إبراهيم بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٦ بتصرف

عريقٍ منظمٍ، على أفضل الأسس العسكرية في ذلك الزمان وتنظيم الأمور بأسس إدارية ليصح إطلاقه لفظ دولةٍ عليها.

أورخان وتأسيس الجيش:

إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامي وحرصه على إدخال نظام خاص بالجيش، فقسمه إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة، أو ألف، حسب الاحتياج أو على حسب الرؤية العسكرية^(١)، فقام بتشكيل جيش من ألف شاب تركي أطلق عليه اسم "يايا"^(٢)، أي المشاة وجيش آخر من ألف فارس أطلق عليه اسم "مسلم" وعيّن قاضيا للجيش بعد التشاور مع العالم علاء الدين الأسود، وهكذا تم تعيين أول قاضي عسكر في الدولة العثمانية وهو جاندرلي قره خليل الذي كان قاضي بورصة^(٣) وخصص خمس الغنائم للإنفاق على الجيش، وجعله جيشاً دائماً، بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب وأنشأ مراكز خاصة يتم تدريبه فيها^(٤)، وهذا يوضح رؤيته للأمور وبعد نظره الثاقب، بل وبعد نظر عثمان والده في اختياره دون إخوته.

كما أنه أضاف جيشاً آخر عُرف باسم الإنكشارية، شكله من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة والانتصارات الكبيرة التي حدثت والحروب مع غير المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من أبناء البلاد المفتوحة في الإسلام، ثم

(١) كان اعتماد العثمانيين قديماً منذ أول ظهورهم في التاريخ، على نظام إقطاعي الهدف منه تأمين مصدر ثابت من الجنود يقوم على منح الجنود قطعة من الأرض مقابل الالتزام والاستعداد للحرب متى طلب منهم ذلك.

yaya (٢)

(٣) - راجع الدولة العثمانية المجهولة ٣٠٣ سؤل وجواب عن الدولة العثمانية ص ٦٦.

(٤) راجع محمد سهيل طقوش، قيام الدولة العثمانية ص ٣٤، ٣٥.

الانضمام في صفوف المجاهدين^(١) في سبيل نشر هذا الدين العظيم. فبعد أن اعتنقوا الإسلام، يتم تربيتهم تربية إسلامية فكرياً وحريياً ويُعَيَّنون في مراكز الجيش المختلفة، وقد قام العلماء والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حب الجهاد، والذود عن الدين، والشوق إلى نصرته أو الشهادة في سبيله وأصبح شعارهم "غزياً أو شهيداً"، يردد ويطلق في الأصداء عندما يذهبون إلى ساحة الوغى^(٢)، وقد سار هذا الجيش طوال فترة العهد العثماني على عقيدة صحيحة إلا أنه مع مرور الوقت بدأ يصبح عبئاً على الدولة بل ومتحكماً في زمامها يُعَيَّن الخليفة ويعزله كيفما شاء إلى أن قام بإلغائه السلطان محمود الثاني بعد ذلك كما سنرى^٣.

وتذكر بعض المصادر أن الأسباب الرئيسة التي دعت السلطان أورخان لتأسيس هذا الجيش الجديد أن الجيش الأساسي سواء المشاة أو الفرسان لم يكن من الممكن الاعتماد عليه وحده لتقوم الدولة كما يأمل، بل قد ظهرت بعض الأصوات المخالفة لقاضي العسكر ووصلت إلى عدم طاعة الأوامر في بعض الأحيان، ولعل سبب ذلك أن أمر الجيش النظامي الدائم يعد أمراً جديداً عليهم، فهم كما ذكرنا لم يكونوا يتجمعون إلا وقت الحاجة للحرب فقط، فحينها يكون الجيش ثم يتم التفرق بعد ذلك كل في قبيلته وعشيرته وما إلى ذلك، فكانت فكرة الدولة والجيش النظامي تعد جديدة، فلذلك قام أورخان وبناء على نصيحة ومشورة من معه بإنشاء هذا الجيش الجديد والذي كان يعتمد على أبناء المسيحيين من الأسرى أو ممن دخلوا في طاعة السلطان أورخان، سواء من دخل منهم الإسلام أو من قبل بالطاعة^(٤).

(١) وكان يوجد بين الصفوف من أبناء المسيحيين الذين دخلوا في طاعة السلطان دون الدخول في الإسلام،

(٢) راجع، على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.

(٣) سيتوقف هذا الكتاب عند إعلان الخلافة وسيكون الحديث عن السلطان محمود في كتاب آخر بإذن الله.

(٤) راجع الدولة العثمانية المجهولة ٣٠٣ سؤل وجواب عن الدولة العثمانية ص ٦٧.

بعض الفريات والأكاذيب على أورخان - رحمه الله - :

لقد زعم معظم المؤرخين الأجانب أن الإنكشارية تكونت من انتزاع الأطفال النصرانية من بين أهاليهم وجبرونهم على اعتناق الإسلام بموجب نظام إسلامي زعموا أنه نظام الدفشرية، وأن هذا النظام كان يستند إلى ضريبة إسلامية شرعية أطلقوا عليها اسم ضريبة الغلمان وأسموها أحياناً ضريبة الأبناء، وهي ضريبة على حد زعمهم تبيح للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية، باعتبارهم خمس الغنائم التي هي حصة بيت المال.

والحقيقة تقول إن ضريبة الغلمان هذه ما هي إلا كذبة دُسّت في التاريخ للتشويه والتقليل من شأن الدولة العثمانية عمومًا والسلطان أورخان خصوصًا، وقد انسحبت هذه الفرية بعد ذلك على من بعده من العثمانيين قاطبة فلم يكن نظام الدثرمة أو الدفشرية هذا إلا اهتماماً من الدولة العثمانية بالمشردين من الأطفال النصاري الذين تركتهم الحروب المستمرة أيتامًا أو مشردين، فالإسلام الذين تدين به الدولة العثمانية يرفض رفضاً قاطعاً ما يسمى بضريبة الغلمان التي نسبها المؤرخين الأجانب إليها^(١) وكذلك بعض الكتاب العرب الذين نقلوا عن الغرب دون أن يدققوا في هذه الرواية، بل إن الشريعة الإسلامية لا يوجد بها نهائياً أي ضريبة تحت هذا المسمى، أو حتى قول لعالم يبيح ذلك.

ولعل البعض نسب الي الدولة العثمانية ذلك من قبيل ما كان يفعله التتار من أخذ الرجال القادرين على القتال ووضعهم في مقدمة الجيش للتضحية بهم في المعارك ضد إخوانهم من المسلمين، ولكن الدولة العثمانية دولة كانت قائمة على شرع الله وسنة رسوله، ولم يكن لها هذا قط، بل لم يثبت هذا إلا لدى الكتاب

(١) محمد على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٦٨.

المستشرقين الغربيين الحاقدين على الدولة العثمانية، ولا أتعجب من هؤلاء، ولكن العجب من الكتاب المسلمين الذين ينقلون مثل هذه الأمور دون تدقيق فيها.

وكذلك من الروايات التي لم أجد لها أصلاً أو مصدر ثقةً يوثقها هي القول بخصوص قرار أورخان بمنع تزويج الجيش الإنكشاري نهائياً وبالتالي ينقطع لهم السبيل والأمل في تكوين أسرة، وينقطعوا لخدمة الجيش فقط، وفي الحقيقة إنه لا يوجد عقل واحد سليم يقبل هذه الرواية على عواهلها هكذا، فكيف لدولة تدين بدين الإسلام أن تحرم الزواج على مسلم دخل الإسلام، أو حتي على غير مسلم قُبِلَ العمل في صفوف الجيش، بل وكيف لدولة تريد أن تتقدم أن تمنع الزواج للجند وكبت هذه الفطرة السليمة التي فُطِرنا عليها، مما يحدث اضطراباً نفسياً لدى الجند فيؤثر بالقطع على الدولة ككل، فسنة الزواج هي من دعائم الاستقرار المجتمعي وبدونه يتولد انهيار أخلاقي واجتماعي كبير، بل التساؤل الأكبر إن كانوا لا يتزوجون فكيف يتزايدون، صحيح إن المدن كانت تفتح ولكن الجيش وفقاً لهذا الرأي كان يأخذ الصغار الجدد، فهل كان هذا العدد يكفي للفتوحات التي تمت في عهد الدولة العثمانية وخصوصاً على يد هذا الجيش الإنكشاري الذي أثبت جدارة وقدرة عالية فائقة في نصرة الإسلام، بل وهل سيكون الولاء التام للدولة هكذا إذا منعه من القيام بفطرة مثل فطرة الزواج.

خلاصة القول، إننا نرى أن ذلك من جملة الافتراءات التي أُلقيت على كاهل الدولة العثمانية للتشويه كذباً وزوراً وبهتاناً.

ومفاد كل ما سبق أن أورخان قد أنشأ الجيش الجديد وهو عبارة عن جيش نظامي دائم الاستعداد والوجود قريباً منه في حالة الحرب أو السلم على حد سواء،

فشكله من فرسان عشيرته، ومن مجاهدي النفير^(١) الذين كانوا يسارعون لإجابة داعي الجهاد ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام قلوبهم، وحسن إسلامهم، بعيداً عن تلك الأكاذيب التي لا ترتقي إلى أي مستوى سوى الافتراء والضلال، من كون السلطان فرض ضريبة الغلمان وما شابه ذلك مما ذكر.

ما بعد الجيش:

وكعادة آل عثمان خصوصاً الأوائل منهم، تقدير العلم والعلماء لذلك كان لهم دائماً التقدم والازدهار والرقى فما كان أورخان ينتهي من تنظيم الجيش حتى سارع إلى حيث يقيم العالم المؤمن التقى الحاجي "بكتاش"^(٢) بأماسيا^(٣) وطلب منه أن يدعو له خيراً فتلقاهم العالم المؤمن ووضع يده على رأس أحد الجنود ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم ويجعل سيوفهم حادة قاطعة، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الله ثم مال تجاه أورخان وسأله هل اتخذتم اسماً للجيش؟ فقال لا، قال فليكن اسمه "ينى تشري" أي الجيش الجديد^(٤)، وكانت راية الجيش من قماش أحمر وسطها هلال، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم ذي الفقار تيمناً بسيف سيدنا

(١) أي الذين استجابوا للسلطان رغبة في الجهاد في سبيل الله فقط، فالنفير أي نفير الجهاد استناداً إلى قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}.

(٢) لم نتوصل إلى معلومات كافية حول هذا العالم نظراً لضعف المصادر، وتفخيم ووضع روايات أسطورية حوله لم نرد ذكرها، لأنها غير صحيحة.

(٣) تعتبر "اماسيا" في الشمال التركي؛ مدينة الأمراء العثمانيين، أي "الشهزادة" كما يطلق عليهم باللغة التركية.

وتقع المدينة في وادي ضيق يسمى بـ "وادي هرشينا" الواقع على ضفاف نهر "يشيل إيرماق". وتبلغ مدينة "اماسيا" من العمر نحو سبعة آلاف عام، وهي مدينة خرج منها العديد من العلماء والفنانين، وكانت مركز تدريب للأمراء العثمانيين قديماً. ومن أهم معالم المدينة:

جامع "اماسيا"، "جسر الميدان" "شاغلايان"، "متحف "اماسيا"، جامع "أبي بكر محمد بن حمزة، قصر "هزرانلر"، متحف "أمراء أماسيا"، الجامع "الفضي".

(٤) يشكك البعض في رواية الحاجي بكتاش هذه ويرى أنها ليست حقيقة على أساس من قوله إن هذا العالم قد توفي قبل ذلك بقرن كامل وإنما من فعل ذلك هو أحد خلفاء هذا العالم أو بمعنى أدق أحد تلامذته

علي-رضى الله عنه- ومن الجدير بالذكر أن علاء الدين أخا أورخان الأكبر وابن عثمان كان هو صاحب فكرة العلم فقد كان عالمًا بالشرعية ومشهورًا بالزهد والتصوف الصحيح^(١).

وبدأ أورخان بتنظيم الحياة القانونية في المجتمع الجديد الذي بدأ يتسع ويكبر وأصبح في حاجة التنظيم.

سياسة أورخان:

كانت أهداف أورخان واضحة وجليّة، وهي نصرّة الإسلام والمسلمين، ولذلك ركز كل جهوده على العدو الواضح الجلي وهو الروم فكانت غزواته متوجهة إلى هناك.

إلا أنه في عام ٧٣٦هـ - ١٣٣٦م توفي أمير "قرة سي"^(٢) وهي إحدى الإمارات التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية بالروم (سلاجقة الروم) فاختلف ولده من بعده وتنازعا الإمارة، فاستفاد أورخان من ذلك التشرذم الذي يهدد الأمة الإسلامية وانتهى به الأمر بضم قرة سي إلى ملك العثمانيين وبذلك تتسع رقعة الدولة في جو مستقر، وبقوة تكون قادرة على حماية أركانها ونشر الإسلام^(٣).

(١) إن كلمة التصوف تثير لدى الناس شعوراً سينا ولكنها في الحقيقة ليست كما نعرفها اليوم بذلك المعنى والمفهوم المخالف للعقيدة الإسلامية أما التصوف الحقيقي هو الالتزام بالحق والعلم والمعرفة بدين الله حق المعرفة والزهد في الدنيا ولكن ليس بمعنى النقشف والتجرب كما نراه في مجتمعاتنا ويسمونهم صفوة الله في أرضه أو أن هذا شيخ الطريقة الفلانية وآخر شيخ لطريقة أخرى إلى آخره من الطرق التي لا تمت للإسلام بصلّة.

(٢) أو قراصي، تعود أصولهم إلى قبائل الغز التركيين.

(٣) على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٧٠.

واهتم بتوطيد أركان الدولة وإصلاحها علميًا، وعمرانيًا، فبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية^(١)، فكانت كل قرية بها المدارس والشيخ والعلماء الذين يُعلمون النحو والتركيب اللغوية والعلوم الشرعية والهندسة والفلك ... الخ.

وقفة:

ولعل هذا يجعلنا نذكر في إيجاز أهم العلوم التي لا بد للمسلم أن يتعلمها ولا سيما طالب العلم، فأولاً لابد أن يتعلم اللغة العربية حتى ولو بدأ بمتن الأجرومية أو ملحة الإعراب، بحيث يكون مؤهل للحديث والكتابة والخطابة، بل وفهم النصوص فهمًا صحيحًا، ثانيًا القرآن الذي لابد منه لتسير حياتنا وفق النسق الصحيح، فعليه أن يحفظ من القرآن ما يقوم به أمر دينه، مع فهم تفسير الآيات ولو تفسيرًا موجزًا، ويلي ذلك فهمًا جيدًا لعلوم القرآن، والسنة المطهرة، وتعلم الأحكام الفقهية التي لا غنى عنها وقبل كل ذلك أن يكون هذا وفق عقيدة إسلامية صحيحة.

فعلى هذا كان يتربى الأمراء والملوك والسلطين الصالحين وكذلك القادة الذين قَدَّموا خيرًا للإسلام، فتجد كل هؤلاء تعلموا هذه الأمور، ومن هذا نخلص إنه إذا أرادت الأمة أن تتقدم فلا بد أن تسير في درب الصالحين الذين نفعوا الإسلام، وخُلدت أسماؤهم، وهذا هو المقصد الصحيح من دراسة التراجم والسير، لأخذ المنفعة منها، وليس التسلية وممصصة الشفاه.

(١) سالم الرشيدى، محمد الفاتح ص ٢٥.

ما بعد قره سي:

بعد أن فتح أورخان قره سي، استمر فترة عشرين عامًا دون حرب، حيث قضاها في صقل الدولة من حيث النظم العسكرية، وتعزيز الأمن الداخلي، وبناء المساجد، ورصد الأوقاف، وإقامة القلاع، والحصون، والمنشآت العامة الشاسعة.

وهذا مما ينم على عظمة أورخان، وتقواه، وحكمته، وبعد نظره، ويؤكد أنه ما كان يشن الحروب رغبة في التوسع الأعمى وإنما لتوطيد أركان الاسلام ولتثبيت دعائم دولة ناشئة بين ذئاب تحاصرها من كل جانب.

توفيق الله تعالى:

لأن الله تعالى يأمرنا أن نأخذ بالأسباب ونبذل الجهود حتى يتسنى لنا أن نرزق بتوفيقه تعالى، فكان أورخان قد أخذ بالأسباب وعمل بكل جهده وسعيه وأحسب على ذلك إخلاصه وإلا ما كان توفيق الله تعالى له.

فما إن أتم أورخان البناء الداخلي حتى يسر الله له الأمور بأن حدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية^(١) وطلب الإمبراطور "كونتاكوزينوس" مساعدة السلطان أورخان ضد خصمه فأرسل قواتٍ من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثماني في أوروبا، وفي عام ١٣٥٨م، أصاب زلزال مدن تراقيا فانهارت أسوار غاليبولي، وهجرها أهلها؛ مما سهل على العثمانيين دخولها، وقد احتج الإمبراطور البيزنطي على ذلك، ولكن دون جدوى، فكان رد أورخان: إن العناية الإلهية قد فتحت أبواب

(١) الإمبراطورية البيزنطية أو بيزنطة - وكانوا يعتبرون أنفسهم الروم وكذلك سمّتهم الشعوب المحيطة - فكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية امتدادًا من العصور القديمة المتأخرة وحتى العصور الوسطى وتمركزت في العاصمة القسطنطينية، وعرفها سكانها وجيرانها باسم الإمبراطورية الرومانية، أو رومانيا، وكانت استمراريًا مباشرًا للدولة الرومانية القديمة وحافظت على تقاليد الدولة الرومانية، ويجري التمييز اليوم بين بيزنطة وروما القديمة من حيث توجه الأولى نحو الثقافة اليونانية وتميزها بالمسيحية بدلًا من الوثنية الرومانية وكان سكانها في الغالب يتحدثون اللغة اليونانية بدلًا من اللاتينية.

المدينة أمام قواته، وما لبثت غالبيولى أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوروبا ومنها انطلقت الحملات الأولى التي توجهت بفتح كل شبه جزيرة البلقان^(١)، وأرسل أعداءً كبيرة من القبائل المسلمة، إلى المدن المجاورة بهدف الدعوة للإسلام، وكذا منع تمكن النصارى من المحاولات المستميتة من طرد العثمانيين من أوروبا^(٢)، وقام بإرسال الدعاة والعلماء إلى هذه المدن والقرى الجديدة لنشر الاسلام وتعليمه لهم.

فسبحان الله تفتح مدينة بغير قتال وتصير عاصمة للدولة وهي بورصة ويحدث زلزال لتفتح مدينة أخرى تكون بوابة لنشر الإسلام في أوروبا بعد ذلك، بل وفي توفيق لابنه الذي أرسله لفتح الحصون في مهمة قد يراها البعض انتحارية فيوفيق وتفتح الحصون التي فتحت باب خير سنتحدث عنه لاحقاً، فهذا لا يؤتى إلا بتوفيق من الله تعالى لعبده الذي استعان وتوكل عليه حق توكله، حيث أخذ بالأسباب وأعد العدة، فهنا يأتي النصر بقتال أو بدون قتال.

فرحم الله البطل المجاهد أورخان الذي أسس دولة كبيرة ووضع النواة لنشر الإسلام في ربوع أوروبا قاطبة، فحقاً إن هؤلاء حق علينا معرفتهم.

**علم – بعقيدة-في ظل وحدة-بجيش يحمي-على أسس الإسلام-يساوي دولة تقوم على
ظهرها أمة**

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني ص ٤٧ .

(٢) راجع المرجع السابق بتصرف.



شخصيات حق علينا معرفتها.

العظماء الثمانون

المنسيون

المجاهدون الثمانون^(١) عظماء منسيون

نسمع كثيرًا ونرى في الأفلام السينمائية الحالية كثيرًا من الأبطال الوهمية التي تقوم بأمر خرافية وفوق العادة من اقتحام لمواقع عسكرية، أو تدمير لأماكن بالغة السرية، وغير ذلك من الأفلام التي تُبثُّ خصيصًا، لزرع الأفكار الهدامة داخل العقول المسلمة، والتي غايتها تثبيط النفوس الإسلامية، وزرع الشعور بالضعف وأن هؤلاء أولي قوة وبأس شديد ونحن لا شيء مقارنة بهم، ولن نستطيع اللحاق بركبهم حتى ولو حاولنا ذلك.

ولكن إذا دققنا في تاريخنا الإسلامي سنجد الكثير من البطولات والمهام المستحيلة والحقيقية، والتي ترسخ في النفوس حب الجهاد والشهادة في سبيل الله ورفع راية الإسلام خفاقة عالية دون مبالاة لأي شيء آخر.

ومن هذه البطولات التي أحب وأسعد أن أذكرها في هذا المقام هي بطولة الثمانين المجاهدين الذين بهم ابتدأ العثمانيون نشر الإسلام في أوروبا^(٢)، فكل منا يعلم أن الدولة العثمانية كانت تبسط قوتها في ثلاث قارات من العالم، أوروبا وآسيا وأفريقيا،

(١) وتذكر بعض الروايات أنهم كانوا أربعين فقط وليس ثمانين راجع محمد فريد بك المحامي تاريخ الدولة العلية ص ١٢٦ - عبد السلام كمال، مظاهر حضارية من الثقافة العثمانية ص ٢٤.

(٢) ليس معنى ذلك أن بداية معرفة أوروبا بالإسلام كان من هذه اللحظة أو هذا الحدث، ولكن المقصد دخول الإسلام أوروبا عن طريق العثمانيين، فأوروبا كانت تعرف الإسلام من قبل ذلك، حيث كان هناك من دخل ونشر الإسلام فيها، والأندلس خير شاهد ودليل، بل وقد طرق الإسلام أبواب قارة أوروبا من الجهة الشرقية، وذلك بمحاولات المسلمين المتكررة لفتح القسطنطينية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ولكن تأخر فتحها لحصانتها حتى أتم الله عز وجل فتحها على يد المجاهد المسلم القائد محمد الفاتح في عام ٨٥٧ هـ الموافق ١٤٥٣ م، ومع أن دخول الإسلام إلى أوروبا كان له أعظم الأثر علميًا وحضاريًا وأخلاقيًا في قارة أوروبا، فإننا نتعجب من هذا العداء الدفين في نفوس بعض الأوروبيين للإسلام، والذي كانت آثاره واضحة في البوسنة والهرسك؛ حيث أعمل الصرب القتل في مسلمي البوسنة والهرسك بقصد واضح وهو التطهير العرقي.

ولكن عند الحديث عن أوروبا فهل منا من يعلم كيف بدأ فتح أوروبا عن طريق آل عثمان؟

فقد بدأ الفتح لدول أوروبا بقوة، وبالدرجة التي يمكن أن يقال إنها النواة التي تلت الفتوحات الأوربية للدولة العثمانية، في عهد أورخان -رحمه الله-

ففي عام ٧٥٠هـ، حيث عهدُ أورخان بن عثمان بن أرطغرل - رحمهم الله جميعًا - الذي اجتمع مع رجال قبيلة القايي الأشداء في ذلك الاجتماع الذي ذكّرهم فيه أنهم قد فتحوا مدينة بورصة التي كانت عاصمة الدولة العثمانية آنذاك، تنفيذًا لوصية والده عثمان - رحمه الله وغفر له - وكذلك فتحوا معقل الروم المجاورة لهم حتي اضطر إمبراطور الروم بعقد صلح معهم ولكن هذا الأمر لا يكفي إذ لا بد من إيصال الإسلام داخل أوروبا، وكان هذا الكلام لا يعني سوى أمر واحد فقط، ألا وهو الجهاد داخل الأراضي الأوروبية، ومن عجيب الأمر أن هذا الخبر قوبل بترحاب كبير، وكان في هذا الاجتماع يجلس سليمان باشا بن أورخان الذي تحمس لهذا الخبر وطلب من أبيه أن يكون علي رأس هذا الفتح، فقوبل هذا أيضًا بالموافقة والترحاب وذهب معه الغازي فاضل بك رحمه الله الذي هتف الله أكبر ... الله أكبر ... إيذانًا بالفتح الذي يأمل فيه.

وبدون أي تردد ولا تهاون ولا تراخٍ تحرك الجنود والرجال المجاهدون بُغية الجهاد بفتح أو شهادة، فتحركوا في الصباح في سرعة وحكمة وحذر، وأخذوا ينهبون الأرض نهبًا، حتى انتهى منهم البر ووصلوا إلي البحر الذي يفصلهم عن قارة أوروبا.

وهنا كانت المعضلة الكبرى كيف يعبرون هذا البحر دون أن يُكشف أمرهم؟! بل كيف سيمرون دون أن تتألم سهام الجنود النصارى من القلعة المواجهة للبحر؟! وكيف لهذا العدد من الجنود أن يعبر في الخفاء؟

بدأ الجنود المقاتلون في عرض الأمر علي سليمان باشا بأنهم مستعدون بالتضحية بالنفس، وإن أمرهم بالعبور لعبروا، ولكنه كان يهدف إلي فتح، وليس إلى توضحيات تذهب هباءً منثورًا ويكتب عدد من الشهداء دون تحقيق نصر.

مهمة داخل المهمة:

بعد أن استشار سليمان باشا من معه، انتهى به الأمر إلى اختيار بعض منهم في مهمة قد يسميها البعض انتحارية، تهدف إلى تقصّي الأحوال في الضفة الأخرى من أجل الوصول إلى ثغرة لدخول الحصن والسيطرة عليه.

وهنا انتظر سليمان باشا ورجاله حتى حل المساء وأعطى الأمر بعبور البحر الفاصل بينهم وبين أوروبا بجذوع الشجر، وكان من بينهم فاضل بك وعدد من الفرسان، وبالفعل وفقوا بفضل الله بالعبور سرًا مستغلين خفاء الليل وقلة العدد من العبور إلى الضفة الأخرى وهناك رأوا أحد الجنود وهو نائم فألقوا القبض عليه ورجعوا إلى قائدهم سليمان باشا -رحمه الله-.

واستطاع سليمان باشا أن يهدأ من روع هذا الجندي ومنه حصل على أعلى المعلومات وأكثرها أهمية على الإطلاق، حيث عرف المنافذ المؤدية إلى القلعة المواجهة لهم مباشرة والتي ستكون بوابة إلى أوروبا بعد ذلك.

المهمة الكبرى:

ولما تيقن سليمان باشا من صحة المعلومات، لم يتوان لحظة واحدة حيث في مساء اليوم التالي اختار **ثمانين من المجاهدين** الذين معه في مهمة انتحارية، استشهادية، لا تبغي إلا النصر أو الشهادة في سبيل الله تعالى، مهمة ذهاب بلا عودة، فعبّر هؤلاء الثمانون النهر سرًا بالليل حتي وصلوا إلى الضفة الأخرى وعبروا المنافذ التي دل عليها الجندي فوصلوا إلي ممرٍ سرّي والذي عن طريقته تسلل سليمان باشا وجنوده الثمانون إلى الحصن بكل هدوء، وذلك لأنه من نعم الله على عباده وصدق وإخلاص

الجنود أن كان هذا الوقت هو وقت الحصاد وجمع الفاكهة فلذلك كان السكان بل أكثرهم في البساتين والحقول المحيطة بالحصن؛ لذلك لم يصعب عليه الاستيلاء على الحصن ولم تتيسر المقاومة للأعداء فاستسلمت الحامية الموجودة حقاً لدمائهم وبالفعل لم يتعرض المجاهدون لهم بأي أذى.

ولم يدع سليمان باشا الوقت يمر بدون فائدة فأرسل رجاله الذين سيطروا على السفن الراسية في البحر والعائدة للحصن وانتقلوا بها إلى الضفة الأخرى ونقلوا الجنود الموجودين هناك الذين لم يتمكنوا من الإنطلاق مع سليمان باشا والثمانين المجاهدين في المرة الأولى.

فيتنقل كل هؤلاء إلى الحصن الجديد الذي فتح علي يد سليمان باشا ومن معه ولكن هذه المرة لم يتوقفوا في الحصن بل انتقلوا إلى فتح الحصن الذي يليه بسرعة وكُتب لهم النصر المبين بفتح الحصنين الكبيرين الذين أصبحا بعد ذلك بوابة العبور إلى أوروبا، حيث توالى الفتوحات تلو الأخرى حتى سيطر العثمانيون على مساحات كبيرة فيها ونُشر الإسلام بين أهالي هذه المنطقة بشكل كبير وذلك لما رأى السكان صدق الجنود والحكام، وكان الفتح المبين هذا بصدق وإخلاص هؤلاء وشجاعة وبسالة الثمانين المجاهدين الذين تقدموا في البداية وفتح الحصن الأول علي يديهم.^(١)

(١) راجع أورخان محمد علي، روائع التاريخ العثماني ص ١١ وما بعدها، - عزتو يوسف بك أصفاف، تاريخ سلاطين ال عثمان ص ٣٦ وما بعدها- عبد السلام كمال، مظاهر حضارية من الثقافة العثمانية ص ٢٤.

خاتمة:

إن التاريخ الإسلامي يزخر ويفخر بكثير من البطولات الحقيقة التي تكون قدوة للشباب المسلم، ولا ينقصنا سوى أن نقلب صفحات التاريخ الإسلامي للتعرف عليها، وذلك عكس الحضارات والأمم والدول الأخرى التي لا يوجد لديها مثل ما لدينا، فنحن لدينا كنزٌ ولكن نجهل قيمته الحقيقة، ولذلك تجد هؤلاء يعمدون إلى خلق قدوات ولو وهمية لشبابهم حتى يسيروا عليها وعلى نهجها.

تاريخنا كنز عظيم مهيب، لكن أهله يجهلون طريقه ويتركون الأعداء يعيشون فيه بالتغيير والتحريف والتشويه.



مراد الأول (شهيد الميدان)

كان -رحمه الله- من المجاهدين الأفذاذ الأتقياء الأنقياء، محباً للدين مضحياً لأجل نصرته، شغوفاً بالغزوات، وبناء المدارس والمساجد والملاجئ، ومن فضل الله عليه أن كان حوله مجموعة من خير القادة والخبراء العسكريين، فشكل منهم مجلساً للشورى وتوسع في آسيا الصغرى^(١) وأوروبا في آن واحد، وقد صرف سنوات حكمه الطويلة التي وصلت ثلاثين سنة في الفتح والغزو والجهاد، ولم يكن يرجو سوى الشهادة في سبيل الله وقد منّ الله عليه بها بعد نصرٍ عزيزٍ مؤزرٍ، كما لو أن الله أراد له أن يستريح بعد عناءٍ طويلٍ وجهادٍ عظيمٍ، وخُلدَ اسمه إلى يوم الدين ليكون قدوة لمن أراد أن يقتدي.

مولده:

وُلِدَ عام ٧٢٦هـ -١٣٢٦م^(٢)، وتربى -رحمه الله- تربية جهادية دينية، وبَقِيَ على كرم الأخلاق، مُزْدَانًا بحسن الخلق، ووفرة الحلم، وأشركه والده أورخان في كثير من الفتوحات وعوّل عليه الأمر خصوصاً بعد وفاة سليمان باشا -رحمه الله-.

فتولى الحكم بعد وفاة أبيه أورخان عام ٧٦١ هـ وله من العمر خمسٌ وثلاثون سنة، وكانت مساحة أملاك الدولة حين تولى تبلغ ١٠٠٠٠٠ كم تقريباً فواصل الفتوحات مستفيداً بلا أدنى شك من حالة الفوضى في الدولة البيزنطية^(٣) حتى وصلت أملاك الدولة في نهاية عهده إلى ٤٠٠٠٠٠ كم، وهذا يوضح كم حبه للفتح والجهاد وإيصال

(١) وهي التي تسمى اليوم الأناضول.

(٢) عزتو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان ص ٣٩.

(٣) فعلى سبيل المثال كان هناك صدام بين الصرب والبلغار وحروب بين الكاثوليك والأرثوذكس وتدهور بينهم بسبب الخلافات المذهبية

رسالة الإسلام في كل مكان من الممكن أن يصل إليه^(١)، بل ويؤكد القول إنه لم توجد دولة بعد الأمويين توسعت في الفتوحات مثل العثمانيين.

الفتوحات:

ففي أوروبا هاجم الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية ثم فتح مدينة أدرنه في عام (٧٦٢هـ / ١٣٦٠م)، وكانت لتلك المدينة أهمية إستراتيجية في البلقان، حيث كانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية. واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنه عاصمة إسلامية^(٢).

وبعد فتح أدرنه عام ٧٦٢هـ لم يقف على وضعها الذي هو عليه بل قام بتطويرها على أفضل وجه لتكون خيرَ واجهة لدولة قوية إسلامية في مواجهة أوروبا، فجمع مراد في هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الإنكشارية^(٣).

(١) أورخان محمد علي، روائع من التاريخ العثماني ص ١٧، عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ٩٨.

(٢) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٧٣، إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص ٣٨.

(٣) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص ٣٩.

واستمرت أدرنه على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني حتى فتح العثمانيون القسطنطينية في عام (٨٥٧هـ-١٤٥٣م)، فأصبحت عاصمة لدولتهم^(١).

ومن المؤكد أن نقل العاصمة إلى أدرنه لم يكن محض صدفة وإنما كان تخطيطاً في غاية الجرأة والشجاعة من السلطان مراد ومن معه، إذ إنه بنقل العاصمة إلى هناك يعد إعلاناً صريحاً بنقل منطقة الصراع من آسيا الصغرى إلى مناطق البلقان، أي في عقر ديار الدول النصرانية الشرقية كالمجر وبلغاريا والبوسنة والصرب وغيرها، الأمر الذي يعد إعلاناً بأن هناك قوة كبيرة تستطيع أن تقف في وجه كل هؤلاء وتشير بإصبعها إلى مدينة القسطنطينية^(٢)، وبالفعل بعد ذلك قد اتجه مراد -رحمه الله- نحو بلاد البلقان فكُتِبَ له ولجنوده المجاهدين فتح هذه البلاد وتلك الحصون.

تحالف صليبي ضد مراد:

بعد أن حقق مراد -رحمه الله- انتصاراته في أوروبا بشكل كبير ومؤثر، للدرجة التي أسمعت القاصي والداني؛ مما دفع حاكم اليونان أن يسعى إلى إبرام معاهدة صلح بينه وبين مراد الأول، بيد أن تلك المعاهدة لم تطل فترة طويلة^(٣).

مضى السلطان مراد في حركة الجهاد والدعوة وفتح الأقاليم في أوروبا، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا، وكانت لانتصاراته أصداء بعيدة، وكذلك نتيجة لنقل العاصمة إلى أدرنه بعد فتحها؛ تكون تحالف أوروبي بلقاني صليبي باركه البابا أوربان الخامس،

(١) المرجع السابق ص ٧٣، عزتلو يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان ص ٣٧، إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص ٣٨.

(٢) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ٩٩ بنصرف.

(٣) عزتلو يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان ص ٣٨- عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ٩٩.

بل كان من الدعاة الرئيسيين لهذا الحلف، كي يكون تحالف عقيدة أكثر من كونه تحالف مصالح، فضم الصربيين والبلغاريين والمجريين، وسكان إقليم والاشيا^(١) إضافة إلى جيش جرّار من اليونان والبوسنة والأفلاق^(٢). وقد استطاعت الدول الأعضاء في هذا التحالف الصليبي أن تحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جندي تصدى لهم القائد العثماني "لالا شاهين" بقوة تقل عدداً عن القوات المتحالفة^(٣)، ولما علم السلطان بذلك أرسل القائد التركي حاجي إيل بك على رأس قوة مؤلفة من عشرة آلاف رجل لاستطلاع قوة العدو^(٤).

مهمة انتحارية:

لما تحركت فرقة القائد التركي "حاجي إيل بك"^(٥) باتجاه معسكر الصليبيين الكبير، ووجد أن جيش الصليبيين إنما هو جيش جرار، ففكر بالقيام بمهمة انتحارية تربك صفوف الأعداء وتقلص الأعداد قدر الإمكان، حتى يتمكن القائد "لالا شاهين" بعد ذلك من ملاقة هذا العدد الهائل من الجنود المدججين بالأسلحة.

فاقترب من المعسكر حتى خيم الليل وانتهاز الفرصة وانقض على الجيش المؤلف من ستين ألف جندي وأخذ فيهم القتل، الأمر الذي أربك الجيش بشدة بل شتت شملهم

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٧٣:٧٤ - عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ٩٩ بتصرف.

(٢) عزتلو يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان ص ٣٨.

(٣) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٧٣:٧٤.

(٤) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ١٠٠.

(٥) تذكر بعض المصادر أن هذا القائد الكبير Hacı İlbey -بالتurكية الحديثة- الذي ذاع صيته بشكل كبير عن قوته وحكته ومهاراته القتالية وشجاعته التي لا نظير لها فتذكر المصادر أنه توفي مسموماً، ويلقون بالتهمة على القائد العظيم لالا شاهين، وإن كان أغلب الظن لديّ بعدم صحة ذلك لعدم وقوفي على مصدر قوي لهذه الفرية.

بشكل كبير وقلص عددهم بالفعل حيث حدثت مذبحة كبيرة قتل فيها أعداد كبيرة من الجيش الصليبي، أي نجحت خطة "حاجي إيل بك" (١).

وكانت المعركة الكبرى (٢) التي قابلهم فيها لالا شاهين على مقربة من "تشيرمن" على نهر مارتيزا (٣)، حيث وقعت حرب مروعة وانهزم الجيش المتحالف، وهرب الأميران الصربيان، ولكنهما غرقا في "نهر مارتيزا"، ونجا ملك المجر بأعجوبة من الموت أما السلطان مراد فكان في هذه الأثناء منشغلاً بالقتال في بلاد آسيا الصغرى (٤)، حيث فتح عدة مدن ثم عاد إلى مقر سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم (٥)، حيث إن الغاية الأساسية ليس فتح البلاد لشهوة ورغبة في العدوان، وذلك عملاً بوصية جده -رحمه الله-.

وقد عقد لولده بايزيد على بنت حاكم قرمان، بغية أن يجعل الألفة والاتحاد مع حكام آسيا الصغرى، وجرت حفلة الزواج بحضرة نواب سوريا ومصر، ووُزِعَتْ بأثنائها على العلماء الكرام والرجال الفخام هدايا ثمينة من أوانٍ ذهبية وفضية مزركشة بالزمرد والياقوت. (٦)

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ١٠٠ بتصرف، راجع كارل بروكلمان تاريخ الشعوب ص ٣٩٣:٣٩٤.

(٢) عرفت هذه المعركة باسم انكسار الصرب.

(٣) نهر مارتيزا أو نهر ماريتسا: هو نهر بطول ٤٨٠ كم، وهو أطول نهر يمر في داخل منطقة البلقان، ينبع النهر من جبال ريلا في غرب بلغاريا، ثم تتدفق باتجاه الجنوب الشرقي بين جبال البلقان وجبال رودوب، مُتجهاً إلى بلوفديف وبارافوماي ثم إلى أدرنه في شمال غرب تركيا.

(٤) آسيا الصغرى: هو مصطلح جغرافي يطلق على جزء من قارة آسيا محصور بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود. ويعتبر مائلاً لمصطلح الأناضول وهي اليوم دولة تركيا.

(٥) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٧٣:٧٤.

(٦) عزتو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان ص ٣٨.

وكان يهدف بهذا الزواج السياسي إلى توحيد الصفوف في مواجهة أعداء الإسلام، وذلك لأن نظريته مثل كل الحكام المسلمين على عقيدة صحيحة، وهي النظرة والرغبة في الاتحاد الإسلامي الكبير بعيداً عن المصالح والأهواء الشخصية، وهذا ما نأمل أن نجده في أيامنا هذه بعيداً عن القوميات والعصبيات المقيتة.

وقفة:

إذا أردنا أن نعرف لماذا تقدم الأوائل وتأخر من أتى بعد ذلك، إذا أردنا أن نفهم لماذا تأخرنا نحن ولماذا وصلنا إلى المستنقع وما زلنا نغرق في هذا الوحل، فإذا أردنا أن نفهم لماذا؟ فعلياً أن نعرف على من يسلط الحكام الأضواء.

فانظر إلى حال السلطان مراد -رحمه الله وغفر له- ستجد أنه إبان حفل زفاف ابنه بایزید يكرم العلماء وأهل المعرفة ورجال الاقتصاد أي التجار بمصطلحات أهل زماننا، ولكن المكانة الأكبر هي لأهل العلم، وبإسقاط على الواقع الذي نعيشه الآن، ستجد أن من يكرم ويُرفع شأنه إلى عنان السماء هم أهل السخافات والتفاهات.^(١)

فلأن السلطان يعلم أن المجتمع ينظر إلى من يكرم، ويتمنى أن يصير مثله فقد عني بذلك واهتم بأهل العلم والمعرفة لذلك تقدم ووصل إلى مبتغاه.

(١) قد عني اليهود والكيان الصهيوني بهذا الأمر لذلك قام بالسيطرة على الميديا الإعلامية وتصدير نجوم ونخب تنتمي لهذا الفكر الذي يهدف إلى تدمير ديننا وعقيدتنا، فتجد في بروتوكولات حكماء صهيون "وسرعان ما سنبداً الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى في كل أنواع المشروعات: كالفن والرياضة وما إليهما. هذه المتعة الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التي سنختلف فيها معه، وحالما يفقد الشعب تدريجاً نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهدف جميعهم معنا لسبب واحد: هو أننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيديين الذين يكونون أهلاً لتقديم خطوط تفكير جديدة". وأحسب أن الفكر الصهيوني ناجح نجاحاً ساحقاً في هذا الصدد وأسأل الله تعالى أن يوفق الصالحين والمصلحين في هذه الأمة إلى تقديم البدائل التي تفيد الأمة حق الإفادة لتخرجها من هذا المستنقع الذي وصلت إليه.

معركة قوصرة:

كان السلطان مراد قد توغل في بلاد البلقان بنفسه وعن طريق قواده مما أثار الصرب، فحاولوا في أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا في الهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وما جاورها ولكنهم فشلوا في تحقيق انتصارات تذكر على العثمانيين، فتحالف الصرب والبوسنيون والبلغار وأعدوا جيشاً أوروبياً صليبيّاً كثيفاً لحرب السلطان الذي كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعداداً قوياً إلى منطقة كوسوفو^(١) في البلقان ومن الموافقات التي تذكر أن وزير السلطان مراد الذي كان يحمل معه مصحفاً فتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية: {يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون}^(٢) فاستبشر بالنصر واستبشر معه المسلمون ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين وحمي وطيسه واشتدت المعركة وانجلت الحرب عن انتصار المسلمين انتصاراً باهراً حاسماً^(٣)، انتصاراً شتت استقلال الصرب حتى القرن التاسع عشر، بل وترتب عليه دخول أعداد كبيرة في الإسلام.^(٤)

(١) حالياً هي جمهورية كوسوفو: أو كوسوفا، وسماها العثمانيون قوصوه، وهي دولة معترف بها جزئياً تقع في جنوب شرق أوروبا (منطقة البلقان) تحدها جمهورية مقدونيا من الجنوب الشرقي وصربيا من الشمال الشرقي والجبل الأسود من الشمال الغربي وألبانيا من الجنوب. عاصمتها بريشتينا

(٢) سورة الانفال: الآية ٦٥ ونريد أن نوضح ونحن بهذا الصدد أنه لا يجوز التبرك بمثل هذه الموافقات أو فعلها فهذا ما لا يجوز عن قصد، أما وقد حدثت من باب المصادفة بلا مشكلة في ذلك، ولكن لا بد ألا تؤخذ موضع الأساس الذي يعول عليه.

(٣) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٧٥.

(٤) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص ٣٩.

وقفة:

من الملاحظ على مر التاريخ أن أعداء الأمة لا يتفقون ولا يتحدون إلا في حال وجود عدو مشترك وهو الإسلام، فهم مختلفون حتى ولو ظهر لنا غير ذلك فقولہ تعالیٰ {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَىٰ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} (١) أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ومتوحدين، وليسوا كذلك في الحقيقة، فهم مختلفون غاية الاختلاف، ولكن إذا ظهر عدو الإسلام في الأرجاء فيحتشد الأعداء، وينقض الأقباء، ويجتمع المنافقون؛ لينالوا من أمة كرمها رب الأرض والسماء، خير أمة أخرجت للناس، أمة الإسلام، يجتمعوا عليها، وشعارهم المعلن صراحة: دمروا الإسلام أبيدوا أهله.

ولأن اليهود يعلمون هذا الأمر جيدًا، بل واستفادت منه تمام الاستفادة في احتلال فلسطين المسلمة، حيث لعبت في العقيدة النصرانية بإنشاء مذهب جديد وهو المذهب البروتستانتي الذي يجعل خلاص النصارى وظهور المسيح المخلص في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، الأمر الذي تحول من اتحاد ضد عدو مشترك وهو الإسلام إلى عقيدة أساسية يستغلها اليهود^٢.

استشهاد السلطان مراد:

بعد الانتصار في قوصرة، قام السلطان مراد يتفقد ساحة المعركة ويبحث بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ويدعو لهم، وفي أثناء تفقده للجرحى قام جندي من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه جاء يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن إسلامه

(١) سورة الحشر الآية ١٤ .

(٢) سيتم تفصيل ذلك عن الحديث في كتابنا "الدولة العثمانية من الخلافة إلى الانقلاب" عند الحديث عن شخصية مارتن لوثر.

على يديه، وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام في حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فاستشهد - رحمه الله - في ١٥ شعبان ٧٩١هـ^(١).

الكلمات الأخيرة للسلطان مراد:

"لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد إن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام. أطيعوا ابني بايزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم، وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء"^(٢).

لقد استشهد هذا السلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عاماً، تربّع فيها على تخت السلطنة مدة ثلاثين عاماً أعلى فيها شأنها، ووسّع نطاقها، وأوجد العلم العثماني وهيئة الطغراء الشاهانية، وشاد أبنية عظيمة من جوامع ومدارس وقلاع وحصون وغير ذلك، ومن أشهر آثاره سراي أدرنه، وكان عدد غزواته وفتوحاته ما يقارب ٣٧ ما بين هذا وذاك^(٣).

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق ص ٧٥، ٧٦.

(٣) عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان ص ٣٨، ٣٩.

أهم فتوحاته

فتح بعض سواحل البحر الأسود وكذلك فتح القلاع الآتية:

ديما توكا، بنار حصار، بابا اسكي، لولو بروغازي، كشان، سيزابولو، فيزا، كيرك
كليسه، صاموكو، جورلو.

وقام بفتح عدد من المدن:

ينجه، يانبولي، إسليميا، فيليباري، أنجه كيز، فيراجك، أجزاء من مقدونيا ونيش،
جاتلاجه، إشت، مناستر، صوفيا، أجزاء من البانيا أدرنه التي أصبحت العاصمة بعد
ذلك، وكل هذا إن دل إنما يدل على كثرة الفتوح والجهاد في عهده -رحمه الله-.

ناهيك عن كسر شوكة الصليبيين وتحالفاتهم ضد الدول الإسلامية، ورفع هيبة
الإسلام عالية خفاقة، ونشر الإسلام في أوروبا بشكل كبير، وتهيئة الأمور لمن جاء
بعد ذلك لفتح القسطنطينية، فرحم الله السلطان مراد الأول رحمة واسعة.

عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ

الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ» رَوَاهُ

مُسْلِمٌ.



بايزيد الصاعقة

مولده ونشأته:

إنه لمن المفارقات أن يولد بايزيد عام ٧٦١ هـ وهو العام الذي تولى فيه أبوه السلطنة، التي استمرت ثلاثين عامًا حيث تسلم بايزيد الحكم بعد استشهاد والده - رحمه الله- مراد الأول، وكان دائم الجهاد يتنقل من أوروبا إلى الأناضول ثم يعود مسرعًا إلى أوروبا يحقق نصرًا جديدًا، أو تنظيمًا حديثًا؛ حتى لقب على إثر هذا باسم "يلدرم" أي الصاعقة نظرًا لتلك الحركة السريعة والانقضاض المفاجئ على الأعداء التي يقوم بها دائمًا، وقد أطلق هذا اللقب فعليًا منذ حملة قره مان عام ١٣٧٨م^(١)، وكذلك بفعل سرعته في وضع وتنفيذ الخطط العسكرية^(٢).

شخصيته:

كان ذا شخصية متميزة وفذة منذ صغره وهذا ما كان يراه والده - رحمه الله - فيه فاعتبره وريثًا لعرشه واستمرارًا للملك والفتوحات، حتى إنه عندما كان في الرابعة عشرة من عمره منحه والده تفويضًا ليدبر دفة البلاد العثمانية خلال غيابه في الجهاد في بلاد الصرب، فتميزت سياسته بعد توليه زمام الأمور على ثلاثة مهام:

- أولهما توحيد منطقة الأناضول تحت الإدارة العثمانية.

- ثانيهما محاولة قيادة العالم الإسلامي.

(١) يلماز، ج ١ ص ١٠٣.

(٢) إبراهيم بك حليم ص ٤٦ طريق محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب ص ٥٥.

- ثالثهما الجهاد في سبيل الله.^(١)

وقد كان متديناً مقيماً لصلاة الجماعة، ويُروى أنه شهد يوماً بقضية وكان القاضي هو شمس الدين حمزة الفناري فرد شهادة بايزيد، فسأله عن السبب فقال القاضي: إنك تاركٌ لصلاة الجماعة، فعلى الفور قام ببناء جامع أمام قصره عيّن لنفسه فيه موضعاً ولم يترك الجماعة بعد ذلك^(٢).

وفى ذلك دلالة رائعة على مكانة العلماء في هذا الزمان والتي نفتقد عطرها ورحيقها هذه الأيام، بل لا نرى منها سوى السموم، لظهور طائفة من المستأكلين نظراً لسكوت أرباب العلم الحقيقيين، إضافة إلى خذلانهم للأمة في كثير من المواقف التي ما كان لهم يسكتوا عنها ويكتموا الحق وهم يعلمون، فنسأل الله أن يرزقنا من العلماء من لا يخشى في الله لومة لائم، فالعلماء كانوا ومن المفترض أنهم ما زالوا ذوي مكانة، فهكذا أرادهم الله، ولهذا رفعهم درجات على العوام، ولذلك ما يجب أن يسكتوا، ولا بد أن يتخذوا موقفاً مثلما اتخذ وفعل هذا الشيخ الجليل والقاضي العادل الذى يُفتقد أيضاً في زماننا هذا، نظراً لانتشار قضاة لا يعرفون شيئاً عن الحق سوى راتبهم الذى يقبضونه ليكون عليهم حجة يوم القيامة - إلا من رحم ربي - فموقف القاضي غير إلى الأحسن فجعل الشاب لم يترك صلاة جماعة أبداً بعد ذلك، فهكذا العلماء وأرباب الحق، يصدعون به ولا يخشون شيئاً.

وكان والده قد عينه سابقاً على إمارة قرميان، عام ١٣٨١م فراعى المصالح الشرقية للدولة وأثبت تميزه في المعارك أكثر من مرة.

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.

(٢) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ص ١٩.

الموقف بعد توليه الحكم:

وبعد أن تولى الحكم رحمه الله- كان المترصدون حوله من كل جانب، داخليًا وخارجيًا، فعلى المستوى الداخلي كان من تبقى من أمراء السلاجقة يترصدون له ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه وأخذ ما سلب منهم من قبل، واستعادة ملك ضائع، إضافة إلى أخيه الوحيد يعقوب، أما على المستوى الخارجي فكان هناك أكثر من عدو في آن واحد، حيث المصالح النصرانية تتلاقى على ضرورة إخراج الأتراك من أوروبا بالكامل والمجر على رأس هذا بدعم من القسطنطينية إضافة إلى الصرب.

أخوه يعقوب:

وبداية بدأ بايزيد بأخيه يعقوب الذي حاول أن ينافسه على السلطة^(١)، مما قد يؤدي إلى التمزق، فقتله خشية الانشقاق في الصف، ولأنه يعتبر بذلك خارجًا عليه، وعلى الرغم من قسوة هذا التصرف الذي بدا واضحاً في سياسة خلفاء بنى عثمان من قتل الإخوة المنافسين على الحكم كما سنذكر تباعاً، إلا أنه حقق الهدف المرجو منه وهو القضاء نهائياً على عناصر التقسيم مما يعد تنويجاً لمنطق المركزية، ناهيك عن أن الواقع يؤكد أن الدولة العثمانية لم تتأثر بالنزاعات الأسرية على مدار خمسة قرون^(٢)، إلا أن هذا لا يعني دفاعاً عن فعل القتل، أو تبريراً له.

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٥٥.

(٢) كفادار ص ٧١ طرق محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٥٦.

وقفه مع هذا الحدث:

لابد أن نقف وقفة مع هذه النقطة لأهميتها الشديدة، فبداية يلومنا البعض عند قول إن الدولة العثمانية دولة عظيمة وأن موضوع قتل الإخوة^(١) لم يؤثر على قيام الدولة واستقرارها.

فنود أن نوضح أن الحقيقة لا بد من ذكرها أيًا كان وضعها، وأن الدولة العثمانية هي بالفعل دولة عظيمة كبيرة وإلا ما استمرت ما يزيد عن ستة قرون، وبسطت نفوذها في ثلاث قارات فيما يزيد على ثلاثين دولة، ولا بد أن نعلم أن أرباب هذه الدولة إنما هم بشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وكلّ يوزن بميزان الإسلام الذي ندين به لله وعلى هذا نقرر أخطأ هذا أم أصاب!!

فالقتل بصفة عامة غير مبرر إلا بوجه حق، وإلا فيعد جريمة كبرى، وكبيرة من الكبائر قال الله في حقها {مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ^(٢)، وقوله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَدًّا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا^(٣)، وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»، ومن ذلك نخلص أن القتل العمد بغير حق هو جرم كبير لا يبرره أحد

(١) ولا نريد من القارئ أن يظن أن مسألة قتل الأخوة هي مقتصورة على الدولة العثمانية فحسب أو على العالم الإسلامي فقط بل إن كثيرًا من الملوك حاكموا أولادهم وقتلوهم بتهمة الخيانة للدولة أو محاولة الانقلاب عليه أو أخذ السلطة لأنفسهم أمثال بطرس الأكبر الروسي الذي سجن ولي عهده ألكسيس ثم قتله.

(٢) سورة المائدة الآية ٣٢.

(٣) سورة النساء الآية ٩٣.

ولا يجوز بأي حال أن يحاول إنسان تبريره لتجميل شخصية تاريخية حتى ولو كانت لها إنجازات في التاريخ الإسلامي .

وبإسقاط ذلك على السلطان بايزيد فهنا الوقفة المهمة وهي أن هناك مصادر تؤكد أن أخاه يعقوب قد نازعه في السلطان الأمر الذي يعد خروجًا على الحاكم أي في هذه الحالة إن صحت فالجزاء هو القتل، بعد أخذ الفتوى الشرعية من قبل أهل الفتوى في الدولة، وبالفعل كان بايزيد بعدما تيقن من هذا وأخذ الفتوى الشرعية التي أباحت دم أخيه نظرًا لأنه يدعو للفتنة التي هي أشد من القتل.

فبايزيد وفقا لذلك محقٌ ولا أعلم لماذا تُغفل كثير من المراجع العربية هذه النقطة وهي كون وجود محاولة للخروج على الحكم أو للمنازعة في السلطان من قبل أخيه يعقوب.

ولكن هذا الامر هو بالنسبة للسلطان بايزيد فقط، أي يوجد ما يبرر فعله ويجيزه، وبالتالي لا يؤخذ هذا الكلام ويُسقط على غيره، أو تؤخذ الفتوى الشرعية التي صدرت من أهلها لتبرر قتل آخرين، فهذا الموقف وإن كان بداية أحداث قتل الإخوة في الإمبراطورية العثمانية إلا أن له مبرره، وذلك عكس البعض الذين سيأتي ذكرهم لاحقًا.

الصرب:

بعد أن فرغ من أخيه بدأ الاهتمام بأمر الصرب، وكان قد ولى الأمير إسطفن بن لازار ملك الصرب حاكمًا عليها فتزوج بايزيد من أخته أوليفيرا^(١) وأجازه على بلاده بأن يحكمها على حسب قوانينهم بشرط دفع جزية معينة، وتقديم عدد معين من الجنود

(١) وقيل اسمها دسبينا، راجع عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٥٥، راجع محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٦٠ ويذكر البعض أنها اخت زوجته، راجع زبيدة عطا، الأتراك في العصور الوسطى ص ١٧٣

ينضمون للجيش العثماني وقت الحرب، وبالفعل قد تم ذلك، ولم يضم بلاد الصرب إلى أملاك الدولة العليا المحمدية^(١)، وذلك ليسكن بال الصرب، وحتى لا يكونوا شغلا شاعلاً له نظراً لحبهم للاستقلال^(٢)، أي كان هذا الزواج وهذه الاتفاقية بمنزلة هدنة، أو صلح مع الإقرار بالجزية التي تدفعها الصرب دون الدخول في حرب مع الجيوش العثمانية في ذلك الوقت، وخصوصاً أن الحروب السابقة تؤكد القوة العثمانية، حتى لو كان الظاهر الآن أن هناك حاكماً جديداً ويوجد بعض المشاكسات والقلقل التي تحدث داخل الدولة، أو ترقب بعض الأعداء له.

الوضع الداخلي:

وعلى إثر هذا ساد الأمن من ناحية أوروبا؛ فقصد بلاد آسيا وفتح مدنها "الأشهر" المعروفة الآن باسم فيلاديلفيا^(٣)، سنة ١٣٩١م وهي آخر مدينة بقيت للروم في آسيا، وهابه أمير "أيدين"^(٤)، فلم يقاتله وترك أملاكه وعاش مطمئن الخاطر في إحدى المدن الخارجة عن النفوذ العثماني وكذلك ترك أميراً "منتشا"^(٥) و"صاروخان" ولايتهما واحتميا عند أمير "قستموني"^(٦)، وتنازل الأمير علاء الدين حاكم بلاد القرمات للسلطان بايزيد عن جزء عظيم من أملاكه ليؤمنه على الجزء الباقي^(٧)، وكل

(١) فهكذا كان يطلقون اسم الدولة العلية ويلحقونه بالمحمدية إعلاناً منهم بهدفهم السامي والغاية من وراء هذه الدولة.

(٢) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليا ص ١٣٧.

(٣) تقع في غرب الأناضول إلى الشرق من مدينة إزمير.

(٤) تقع جنوب غرب تركيا جنوب فيلاديلفيا

(٥) جنوب أيدين علي بحر إيجة

(٦) وتكتب في المراجع العربية قسطنوني وهي تقع في شمال الأناضول

(٧) المرجع السابق ص ١٣٧، ١٣٨

هذا يؤكد على قوة الدولة وأنها مهيبه، حيث إذا ضربت أوجعت، وإذا تكلمت أسمعت.

ولكن من الواضح إن ما فعله الأمير علاء الدين كان في ظاهره برضا وبخوف من السلطان بايزيد، ولم يكن بهدف توحيد الصف الإسلامي ضد القوة البيزنطية، حيث إن الوقت أظهر أنه كان خداعاً وتصيداً للفرصة التي واثته عندما ترك السلطان بايزيد الأناضول متجهاً للفتوحات، فرأى أن الفرصة قد حانت فأنشأ حلقة ضده مكوناً من القاضي برهان الدين أحمد بن شمس الدين صاحب سيواس^(١)، وأمراء صاروخان وكرمان ومنتشا وحميدلي، واسترد يعقوب الكرمانلي الأراضى التي كان قد تنازل عنها لبازيد الذى جعل شقيق زوجته حاكماً عليها، واستولى برهان الدين أحمد على "قير شهر"، كما سيطر علاء الدين على "بيهر" وتقدم نحو "اسكى شهر"، الأمر الذى هدد كيان الدولة العثمانية، فاضطر بايزيد الأول للرد على هذه الانتهاكات، وتلقى مساعدات الدول التي كان قد عقد معها صلحاً ورضيت بدفع الجزية -أي تدين بالتبعية الاسمية للدولة العثمانية- مما يجوز له شرعاً تلقى المساعدات من قبلها ولا يعتبر في حكم الشرع ممن يوالى اليهود والنصارى على إخوته من المسلمين، بل في مثل هذه الحالة هؤلاء تحت رعايته ويعدون من قبيل الرعية التي وجب عليها تقديم يد العون إذا طلب الحاكم ذلك، فقدم المساعدة "مانويل الثاني"، و "يوحنا السابع"، وإسطفان لازار الصربي، بالإضافة الى سليمان الجندرلى أمير قسطنطيني^(٢).

وبدأت الحرب بين السلطان بايزيد الأول الصاعقة وبين الخارجين المارقين على الدولة، الراغبين في الانقسام بين طياتها، وتقابل الجيشان في موضع يقال له "أق

(١) سيواس: مدينة تقع شمال شرق تركيا.

(٢) راجع محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٥٦، محمد فريد بك المحامى، تاريخ الدولة العليا ص ١٣٩.

جاي" فهزمه السلطان بايزيد وأسره هو وولديه محمداً وعلياً وضم ما بقي من أملاكه التي كان قد أقره عليها سابقاً، وبذلك انمحت سلطنة قرمان وصارت ولاية عثمانية، ثم فتحت إمارات سيواس وتوقات^(١) التي دخلها برهان الدين^(٢).

وبذلك لم يبق من الإمارات التي قامت على أطلال دولة آل سلجوق إلا إمارة قستموني خارجة عن أملاك الدولة العثمانية نظراً لأن صاحبها أثر الانضمام إلى حلف السلطان بايزيد عن مساعدة أقرانه، وكان أميرها يدعى بايزيد أيضاً، وقد احتفى ببلادة كثير من أولاد الأمراء الذين فتحت بلادهم فكان ذلك سبباً لغزو بلاده.

إذ إن السلطان بايزيد الصاعقة طلب منه أن يسلمه صاحب أيدين وصاروخان فامتنع عن ذلك ورفض، فاعتبر بايزيد ذلك تحالفاً ضده واستعداداً جديداً للانقضاض عليه مرة أخرى، وخصوصاً والأحداث التي مضت ليست ببعيدة، بل ما زالت حاضرة، فاتخذ القرار السريع والعاجل، ووضع الخطة العسكرية التي أخذت في طور التنفيذ بسرعة وعجالة -كما هو معهود عن بايزيد دائماً من التصرف السريع-؛ فتوجه على رأس جيش بنفسه، وأغار على البلاد ففتح مدائن سامسون وجانك وعثمانجق، وبذلك انضوت جميع الإمارات الصغيرة القائمة على أطلال السلاجقة تحت لواء الدولة العليا وصار العلم العثماني يخفق منصوراً فوق صروحها موحداً صفها، أما بايزيد صاحب قستموني فقد قام بتصريف يعد طامة كبرى عليه ووصمة عار إلى يوم الدين فقد لجأ واحتفى إلى تيمور لنك سلطان المغول^(٣)

(١) سيواس وتوقات: مدينتان تقعان في شمال شرق تركيا.

(٢) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليا ص ١٣٩-روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية ص ٦٤.

(٣) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليا ص ١٣٩، ١٤٠.

وهنا لا بد من وقفه في غاية الأهمية:

إذ يقول رب العزة - عز وجل - {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا} ، وقوله تعالى {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(١)، ففي هذا إشارة مهمة جداً وخطيرة ، إذ في الوحدة السلامة، وفي الاختلاف والشقاق الفساد والدمار، وهذا هو سبب الذل والهوان الذي نحياه الآن والذي عمد إليه أعداء الإسلام في اتفاقية سايكس بيكو وما تلاها من استعمار للشعوب الإسلامية وتعين حكام لا يفكرون البتة في الخلافة الإسلامية، أو الاتحاد الإسلامي، وإنما مثل علاء الدين هذا ومثل بایزید حاكم قسطنطيني إذ لا يفكرون سوى في أنفسهم والمجد الشخصي فقط.

وهذا هو حب الإمارة والرئاسة المرتبط بحب الظهور نتيجة ما يصبه المنصب والكرسي في النفوس الضعيفة من تعلق^(٢)، وتمسك به حتى آخر نفس ولو على حساب الدين، فهو فتنة، وهي التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعم المرزعة وبئس الفاطمة»، فقوله: « نعم المرزعة » فذلك الذي يعني أولها، لأن معها المال والجاه والسلطة، وقوله: « بئس الفاطمة » أي آخرها، لأن معها القتل والعزل في الدنيا والحسرة والتبعات يوم القيامة ، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم عواقب الرئاسة

(١) سورة الانفال، الآية ٤٦ .

(٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما ذنبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»

والذنبان الجائعان هما: الحرص على المال والحرص على الشرف، وإذا أرسلت الذنب في الغنم فماذا تفعل؟! فكذلك يفعل الحرص على المال والحرص على الجاه والشرف في الدين، إنها تلتهم دين المرء وتفترس إيمانه . قال ابن رجب" فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذنبيين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساوياً وإما أكثر، يشير أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذنبيين المذكورين فيها إلا القليل، فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا.

ومراحلها الثلاث في قوله: « إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي : أولها ملامة ،
وثانيها ندامة ، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل »

فالواجب عند وجود قوة مثل قوة العثمانيين في زمانهم هو الانضمام معهم وتوحيد
الصف ضد أعداء الإسلام، وخصوصًا والخطر المغولي لم يكن قد زال، بل باق
ويهدد البلدان الإسلامية، وكذلك تَرَبُّص الأعداء من قبل النصارى دائمًا وأفاعيل
القسطنطينية وفرسان القديس يوحنا^(١) والدعوات لحروب صليبية ما زالت مستمرة
وفعالة وتؤتى بعض الثمار من حين لآخر، فكيف يفكر أمثال هؤلاء في المطامع
الشخصية؟ بل وكيف يفكر حكام اليوم في أنفسهم بعيداً عن الوحدة والتوحد في سبيل
نصرة دين الله؟ وكيف يغفلون عما يحدث لمسلمي تركستان وماينمار والشييشان
وسوريا وكشمير والصومال ومالي والعراق وغيرهم؟

فإذا كان في قلوب هؤلاء مثقال ذرة من حب لدين الله تعالى، أو انتماء للإسلام وليس
للقوميات والعصبيات الجاهلية، فعليهم أن يتركوا كل النظم الفاسدة والأفكار الهدامة
وراء ظهورهم والالتجاء إلى التوحد يداً واحدة وعلى قلب رجل واحد ومنهج واحد
وهو منهج الإسلام.

ويزول العجب مما فعله حاكم قسطنطيني وقَبْلَهُ علاء الدين عندما ننظر لحالنا الآن،
فمثالهم كمثال حكام كثير اليوم يفضلون التعاون مع العدو الصهيوني على نصرته
إخوانهم في الدين والعقيدة من أبناء غزة وفلسطين، يفضلون التحالف مع الأمريكان،
على الوقوف في صف تحالف لنصرة العراق، يفضلون الوقوف مع فرنسا، على
نصرة إخوانهم في مالي وإفريقيا الوسطى، وكذلك أثروا الصمت على مذابح عدة
حدثت للمسلمين في البوسنة والهرسك، وتركستان وبورما وغيرها، بل إن كثيراً من
حكام اليوم ارتموا في أحضان أمريكا واليهود وبطريقة علنية، دون أدنى نوع من

(١) نشأت في جزيرة مالطة وعرفت باسم فرسان القديس يوحنا الأورشليمي وقد انبثقت عن الجماعة الأم الكبيرة
والمشهورة باسم فرسان المعبد والتي كان لها شهرة أيام الحروب الصليبية

الخلج وبروجون ويسوقون أن هذه هي السياسة ومهاراتها، فلا نعجب من هذا بل نرميهم جميعاً في مزبلة التاريخ.

القسطنطينية وعزة المسلمين:

كان بايزيد، دائم التدخل في النزاعات العائلية بين أفراد أسرة باليولوغوس بالقسطنطينية^(١)، حتى يكون له موضع قدم في الأمر لحين تأتي الفرصة لفتح المدينة التي أُشير إليها بحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وعلى ذلك سار بايزيد الصاعقة يساعد يوحنا السابع على أن يمسك مقاليد الحكم من يوحنا الخامس الذي لم يستطع أن يسكت ويرضى بالأمر الواقع ولكن ساعده ابنه مانويل في استعادة مقاليد الحكم من جديد، وذلك بعد حشد أسطول سَمَحَ له بإنقاذ والده وتوليهِ العرش وذلك في عام ١٣٩٠م فالتجأ الإمبراطور يوحنا السابع إلى بايزيد الأول الذي أقطعهُ أرض سلمبرية واتخذهُ وسيلة للضغط على الإمبراطور يوحنا الخامس، الذي وجد نفسه رهينة بقدر ما كان تابعاً^(٢)، واضطر تحت ضغط طلب بايزيد الأول إلى إرسال قوة عسكرية مؤلفة من مائة جندي بقيادة ابنه مانويل اشتركت مع الجيش العثماني في فتح مدينة الأشهر -فيلاديلفيا- آخر معاقل البيزنطيين في آسيا وذلك في عام ١٣٩١م حتى يكون ضمناً بعد ذلك من أي أحداث مفاجئة قد تعقبه، وكذلك إعلاناً للجميع أن إمبراطور القسطنطينية يقف في صف بايزيد فيشق الصف الصليبي ضده ويسهل فتح المدينة وقد كان بالفعل كما خطط بفضل الله تعالى.^(٣)

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٥٨- راجع زبيدة عطا، الاتراك في العصور الوسطى ص ١٧٣

(٢) لتوضيح ذلك بشكل أكبر ومدي الضعف الذي كانت عليه ومدي الاحتياج الكبير للاتراك راجع زبيدة عطا الاتراك في العصور الوسطى ص ١٦٨ وما بعدها.

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٥٨، ٥٩.

فكان الإمبراطور يوحنا الخامس حذر من بايزيد لعلمه أنه يريد أن يعين يوحنا السابع بدلاً منه، بالإضافة إلى تخوفه من محاولات بايزيد لفتح القسطنطينية؛ الأمر الذي جعله يقوم بترميم وتقوية أسوار القلعة وتشديد بعض القلاع الجديدة مستغلاً فرصة غياب بايزيد بآسيا الصغرى، فأرسل له بايزيد تهديداً ووعيداً صريحاً باللهجة أمراً: "بهدم ما بنى من قلاع وإلا سيكون وابل غضب أوله تعذيب ابنه مانويل الذى لديه، وهذا مما يدل على حنكة بايزيد منذ البداية في أنه أجبره على إرساله معه في الحرب لضمان أي أحداث قد تحدث مثل هذه، وعلى إثر هذا استجاب الإمبراطور يوحنا الخامس غصباً وكرهاً عنه لعزة المسلمين والعثمانيين الأتراك ونفذ ما طلبه منه بايزيد حرفياً^(١).

ثم في ١٣٩١م يموت الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس، وقيل إن الإمبراطور يوحنا قد انزوى في قصرة ومات قهراً لاعتباره ما حدث من بايزيد إهانة كبرى، حيث كما لو أنه يذل ابنه مانويل ويفرض شروطه عليه بهدم ما بناه من تجديدات وغير ذلك من الأمور فقل إنه مات كمدا على أثر هذا^(٢)، وللعلم فإن بايزيد كان متعسفاً معهم نظراً لأنهم كانوا يبتشون الدسائس والمكر والفتن داخل الأراضي الإسلامية، ناهيك عن القتل والتدمير وإيواء من يلتجأ إليهم من الفارين من العدالة، ومرتكبي الجرائم، ومنفذي الانقلابات وغير ذلك من المجرمين، بغية تدمير الدولة الإسلامية، فلا يظن ظاناً أن بايزيد كان في تعسفه هذا ظالماً لهؤلاء، بل إن هؤلاء أذاقوا المسلمين ويلات وويلات، والدولة العثمانية ذاقَت منهم الأمرين.

أما ابنه مانويل فيعلم بموت والده وهو في قصر بايزيد، حيث كان يعيش في البلاط العثماني في بورصة تحت عين بايزيد، إذ لم يجد سبيلاً إلا محاولة الفرار، وبالفعل استغل غفلة من الحراس وفر هارباً، دون علم بايزيد وعاد مرة أخرى إلى

(١) المرجع السابق بتصرف ص ٥٩، راجع عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٥٧.

(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٥٩

القسطنطينية، الأمر الذي قلب الأحداث تجاه القسطنطينية من جديد، بل وتوج
إمبراطوراً خلفاً لوالده.

ولكن يثور التساؤل هل كان هروب مانويل هروباً حقيقياً أم بتخطيط من السلطان
بايزيد؟ وما الذي ترتب على هذا الهروب من أحداث؟

ففور هروبه وعودته إلى القسطنطينية اعتبر بايزيد ذلك إهانة له وتحدياً لمشاريعه
المستقبلية داخل بيزنطة، والحقيقة أنه كان يتحين الفرصة التي استغلها؛ فجهز جيشاً
عبر به إلى أوروبا وحاصرها، ولما علم مانويل بذلك وكان قد توج إمبراطوراً خلفاً
ليوحنا الخامس والده، أدرك أنه لا قبل له بمقاومة الجيش العثماني، فجنح للسلم
وكانت اتفاقية بشروط لصالح العثمانيين ومسلمي المدينة^(١)

تعقيب:

وأود أن أعقب على واقعة هروب مانويل، فأرى أنها كانت مخططاً من مخططات
بايزيد إذ كيف وصل إليه الخبر منذ البداية وهو داخل القصر محاط من كل جانب؟
كما كيف له أن يهرب من بايزيد وهو في قصر من قصوره وتحت الحراسة المشددة،
أي أن ذلك الهروب يعد مستحيلاً؟ فمانويل يعد الورقة الراحبة التي يلعب بها وفاز
بها في موقف سابق، فهروبه وهو يضع عينه عليه كالصقر يعتبر من وجهة نظري
أمراً مستحيلاً، وحتى إن استطاع الهروب فلن يستطيع الخروج والعبور خارج الدولة
العثمانية وإن عبر فوصله القسطنطينية بتلك السهولة وهذا اليسر دون مواجهة
صعوبات يعد أمراً كبيراً ومحل نظر، إلا إذا كان ذلك تحت عين وبصر السلطان
بايزيد، ومخطط له، حتى تكون فرصة لدخول المدينة من جديد، وبالفعل استغل
بايزيد هذا التصرف كما لو كان يعلم به مسبقاً وينتظر وصول مانويل المدينة، إذ فور

(١) المرجع السابق ص ٥٩

وصوله إلى القسطنطينية وبدء مراسم التتويج؛ يعتبر بايزيد ذلك إهانة له وخروجاً بدون إذن منه مباشر من قصره مما يستدعى التحرك والتدخل، من قبله مباشرة فيُخرج جيشاً وكأنه على علم بذلك وعلى أهبة الاستعداد.

وبالفعل تحرك بجيشه دون هوادة أملاً في أن يكون هو الذي بشر به الحبيب المصطفى في الحديث الشهير «لنفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

ولكن الأمر انتهى بالصلح، وكانت شروط الصلح التي وافق عليها مانويل الإمبراطور أملاً في تجنب الحرب مع العثمانيين، وكذلك وافق بايزيد نظراً لبزوغ أمر البلقان مما يعنى الحرب التي بدأت تتضح جلياً، وكان مصيباً -رحمه الله- في نظرته إلى الأمور، إذ كانت الحرب فعلاً، وكان الصلح هو الأمثل في مثل هذه الظروف، والذي كانت شروطه هي كالتالي:

- زيادة الضريبة التي يدفعها للعثمانيين (الجزية).
- تأسيس حي خاص بالمسلمين في القسطنطينية.
- إنشاء مسجد ومحكمة شرعية.
- تمركز قوة عسكرية عثمانية، مؤلفة من ستة آلاف جندي، على طول الشاطئ الشمالي للقرن الذهبي^(١)، وهذا ما يشبه الآن القواعد العسكرية الأمريكية في بلاد المسلمين.
- تقديم فرقة عسكرية بيزنطية تقاتل إلى جانب العثمانيين^(٢)

(١) وهذا القرن الذهبي سيكون نقطة محورية جوهرية في فتح المدينة بعد ذلك في عهد الفاتح -رحمه الله-

(٢) المرجع السابق ص ٥٩

بلاد البلغار والتحالف النصراني على بايزيد:

بعد هذه الأحداث واصل القسطنطينية وما سبقها من أحداث على رأسها موقعة كوسوفو^(١) التي علا فيها نجم العثمانيين عالياً خفأً، مما أثار الرعب في أوروبا كاملة، وعلى رأس هؤلاء البلقان، حيث معظم الأراضي البيزنطية، والصرب والبلغار والألبان، وبعد أن نجح بايزيد بتجنيب الصرب من الصراع بعد موقعة كوسوفو وتعين إصطفين^٢ عليها والزواج الذي حدث من بنت لازار أخت إصطفين، مما جعل أمر الصرب أقرب للحياة، وتمكن بايزيد من هزيمة الأفلاق والألبان، فلم يتبق سوى الجبهة البلغارية أمامه، والتي مثلت مركز المقاومة للتقدم العثماني في شرقي أوروبا، وقلعة الدفاع النصراني ضد المسلمين. واعتقد البلغار أنهم أضحوا ورثة الإمبراطورية البيزنطية في البلقان ونتيجة لهذا كان الصدام المروع آتياً لا محالة بينهم وبين بايزيد^(٣) الذي أثر الصلح أمام أسوار القسطنطينية لهذه الأحداث.

وتمكن "ميرسيا" أمير الأفلاق وهو المشمول بحماية المجر^(٤)، من احتلال "دوبروجا"^(٥) و"سيلستر"، على ضفة نهر الدانوب اليمنى، وسعى المجريون إلى توطيد أقدامهم في "فيدين" والاستيلاء على "نيقوبوليس" الواقعة على نهر الدانوب

(١) معركة قوصوه (نسبة إلى قوصوه، كوسوفو حالياً) هي معركة وقعت في ١٥ يونيو ١٣٨٩ / ٢٠ جمادي الآخر ٧٩١ هـ بين جيش العثمانيين وجيوش الصليبيين المكونة من الجيش الصربي والألباني بقيادة ملك الصرب أوروک الخامس. حدثت المعركة في مكان يسمى قوصوه (كوسوفو حالياً).

(٢) وتكتب في المراجع أيضاً اسطفن

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٦٠

(٤) ذلك لأن المجر ترى في بلغاريا الحد الفاصل بينهم وبين العثمانيين فلذلك كانت تقف بجوارهم بشدة وقوة وتدعمهم إلى أقاصي الحدود، لأن بايزيد إذا عبر هذه النقطة لن يكون أمامه سوى الحرب مع المجر، وهي الحرب التي ستكون حتمية لا محالة

(٥) ويقال دوبروجة أو دبروجة وهو إقليم تاريخي يقع اليوم جنوب شرق رومانيا) أهم مدن هذا الشطر قسطنطنة (وشمال شرق بلغاريا) أهم مدن هذا الشطر تولبوخين

عام ١٣٩٢م^(١)، وكل هذا مما دفع بايزيد للتحرك السريع الخاطف كما تَعَوَّدَ هو في أسلوبه الحربى والتكتيكى والعسكرى، ففك الحصار على القسطنطينية كما ذكرنا آنفاً، وتوجه سريعاً إلى مواجهة البلغار فهاجم العاصمة مباشرة "تيرنوفو" وفتحها في ذات العام ١٣٩٢م، وأخضع بلغاريا للسيادة العثمانية وطرد ميرسيا من الأراضي التي استولى عليها سابقاً، فانسحب ملك بلغاريا سيسمان إلى "نيقوبوليس"^(٢) التي تحت يد المجر وتحصن بها فتابع بايزيد الزحف واستطاع دخول نيقوبوليس وقبض على سيسمان وأعدمه من فوره، أما ابنه فقد استسلم أمام بايزيد فعينه على سامسون عام ١٣٩٤م^(٣).

موقعة نيكوبوليس، (نيكوبلى)

كان لخضوع بلغاريا تحت السيادة العثمانية الخبر الصاعقة من الصاعقة بايزيد السلطان الكريم الذى يقاتل ابتغاء مرضات الله، لذلك تجد التوفيق والتسديد من رب العزة عز وجل، أن يوقفه في وضع الخطط سريعاً وتنفيذها سريعاً، ويوفق فيها بفضل ومثله من رب العزة - سبحانه - توفيقاً أعاد العزة للمسلمين بعد أن كنّا أذلةً، فأعاد الموقف والدفة لصالح المسلمين، وخصوصاً بعد أن علا نجم المغول وتحالف الصليبيون معهم على حساب المسلمين والذى ظهر جلياً في سقوط الخلافة العباسية وقتل الخليفة العباسي رسفاً والأمور الشنيعة التي فعلوها وارتكبوها، والإبادات التي أحدثوها، فكانت هذه الأحداث وغيرها وسابقتها بمنزلة بارقة الأمل التي تبث في النفوس وتحببها بعد مماتها، وكذلك شعاع القتل في القلوب والرعب في العقول والقلوب في أن واحد لدى أعداء الإسلام، بحيث أصبح كل عدو يحسب الأمور

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٦٠.

(٢) Nicopolis ويقال نيقوبوليس في المراجع العربية.

(٣) راجع محمد فريد بك المحامي تاريخ الدولة العليا العثمانية ص ١٤٠ - راجع محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٦٠.

ويقلبها ألف مرة قبل أن يعتدى على ممتلكات إسلامية التي كانت مشاعاً للجميع قبل ذلك الوقت.

لمّا علم سيجسموند^(١) ملك المجر الخبر الذى حل بالبلاد خشى على ملكه إذ صار متاخماً في عدة نقاط للدولة العلية^(٢) فعلى الفور استنجد بأوروبا، مع البابا بونيفس التاسع بالدعوة لتكتل أوروبي صليبي مسيحي ضد العثمانيين،^(٣) وأعلن الحرب الدينية بين أقوام أوروبا الغربية فأجاب الدعوة دول بورغونيا^(٤)، وأرسل ابنه الكونت "دي نيفر"^(٥)، ومعه ستة آلاف محارب، أغلبهم من أشرف فرنسا وفيهم كثير من أقارب ملك فرنسا نفسه وانضم إليه حين مسيره إلى بلاد المجر أمراء "بافاريا"^(٦)، و"استيريا"^(٧) و"شوالية"^(٨) القديس يوحنا الأورشليمي^(٩) وكثير من الألمان ثم اجتاز هذا الجيش نهر الدانوب وعسكر حول مدينة نيقوبوليس أو نيكوبلى

(١) ويسمى سيجسمون

(٢) لقب الدولة العلية هو أحد ألقاب الدولة العثمانية.

(٣) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٨١.

(٤) ولاية مستقلة في شرق فرنسا لما مات أهم أمرائها شارل الجسور ولم يترك له وريث انضمت كغيرها من الولايات تحت السيادة الفرنسية.

(٥) مركز ولاية نيفر وتقع على جانب نهر لوار وتعتبر في الجنوب الشرقي لفرنسا

(٦) مملكة مستقلة بألمانيا

(٧) استيريا: هي النمسا حالياً

(٨) هم طائفة من الرهبان الذين ذهبوا إلى فلسطين إبان الحروب الصليبية وكانت تهاجم المسلمين وتقتل فيهم بشكل كبير.

(٩) يقال إن هؤلاء هم فرسان الهيكل أو على الأقل لهم علاقة بهم، وهم أقدر من انجبت البشرية وقاموا بقتل بشع في المسلمين.

لمحاصراتها، فسار إليهم السلطان بايزيد ومعه مائتا ألف مقاتل^(١)، وتذكر الوثائق أنهم كانوا مائة ألف فقط^(٢) وهذا هو الأرجح، وكان بهم كثير من أهالي الصرب تحت قيادة أميرهم إصطفن ابن لازار وغيرهم من الأمم المسيحية الخاضعة لسلطان العثمانيين وقتلهم قتلاً عنيفاً عام ١٣٩٦م في ٢٧ من سبتمبر^(٣).

بلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة الصليبية التي أعلنها سيجسمون والبابا إلى مائة وعشرون ألف جندي صليبي، جاء مليّاً دعوة البابا، ضد المسلمين، وقد أسهمت الدول المشتركة بالعدة والعناد والرجال من جنسيات مختلفة، فكانت الدول التي لبّت الدعوة هي: ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأسكتلندا وسويسرا ولكسمبورج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الإيطالية على رأسها البندقية التي قدمت دعماً كبيراً في هذه الحرب^(٤)، ناهيك عن فرسان القديس يوحنا.

ومع بدء الحرب وظهور القوة الصليبية التي بدأت تهاجم بشراسة وقوة، حيث اندحروا من ناحية نهر الدانوب حتى وصلوا نيقوبوليس شمالاً، ولكن فجأة ظهرت صاعقة من السماء على رؤوسهم تسمى بايزيد بجيشه القوى المجاهد في سبيل الله فقلب الموازين رأساً على عقب، بتكتيك عسكري رائع ومنظم على خلاف قوة النصارى المختلفة غير المرتبة، فانهزم معظم النصارى ولاذ البعض الآخر بالفرار

(١) محمد سهيل طقوش تاريخ العثمانيين، ص ٦٠-راجع أيضاً أحداث هذه الموقعة روبري مانتران، تاريخ الدولة العثمانية ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٨١

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ١٤٠: ١٤٤

(٤) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٨١

وأُسِرَ عدد كبير منهم على رأسهم الكونت دي نيفر من فرنسا، وكان النصر المبين
المزين بتكبيرات وتهليل وفضل من الله العزيز الحكيم لصالح العثمانيين.^(١)

عزة المسلمين:

ومن المواقف التي تنم على العزة والقوة التي كنا عليها في زمن العزة الإسلامية لا
زمن الخنوع والخضوع الذي نحياه اليوم - ولا حول ولا قوة إلا بالله - ما حدث عند
التفاوض على فك أسر الكونت دي نيفر، حيث قبل السلطان بايزيد إطلاق سراحه،
وقد ألزم بالقسم على ألا يعود لمحاربته مرة أخرى^(٢)، فكان الرد الصاعقة من بايزيد
الصاعقة، ذلك الرد العظيم الذي يتوج في التاريخ الإسلامي بحروف من ذهب لما
فيها من كرامة وإباء نحتاجه الآن، وكم نحتاج أن نذكر به بعضنا بعضاً بهذه الأمور،
لأن ما نراه من حال يقتل النفوس يوماً بعد يوم، فالأولى أن نذكر أنفسنا بهذا لعله
يحيي ما مات في نفوسنا فيخرج المجدد الذي يحمل لواء الجهاد في سبيل الله ويجمع
شمل المسلمين من جديد بعدما تفرق ويتفرق ويتشردم كل يوم، فكان رد بايزيد عليه
أن قال: إنى أجز لك أن لا تحفظ هذا اليمين فأتت في حل من الرجوع لمحاربتى إذ
لا شيء أحب إلى من محاربة جميع مسيحي أوروبا والانتصار عليهم^(٣).

وماذا بعد النصر إلا سياسة الحكم:

بعد أن تم النصر بفضل الله للمسلمين وفرار سيجسمون ملك المجر الذي كان قد بلغ
من الغرور ما بلغ من الاعتداد بقوته وجنوده وجيشه حتى قال: لو نقضت السماء

(١) المرجع السابق

(٢) يجوز ترك الأسري على شرط أخذ وعد منهم ألا يقاتلوا أبداً، وقد فعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- ذلك في
الأعرابي الذي جاءه وهو نائم ومعلق سيفه على الشجرة من حديث جابر بن عبد الله، وقال من يمنع منك مني؟
فقال الله..... إلى آخر الحديث الذي تركه النبي -صلى الله عليه وسلم- بوعد ألا يقاتله بعد ذلك.

(٣) محمد فريد بك المحامي، الدولة العليا العثمانية ص ١٤٤

علياءها لأمسكانها بحر ابنا - فقد ولي هارباً ومعه رئيس فرسان رودس ولما بلغا في فرارهما شاطئ البحر الأسود وجدا هناك أسطولاً نصرانياً فوثبا على أحد السفن وفرت بهم مسرعة لا تلوي على شيء.

فكل هذا بفضل الله ومّته وكرمه أن رفع شأن العثمانيين إلى عنان السماء وأصبح يُردد اسم بايزيد في أنحاء الدنيا كاملة، ودب الرعب في نفوس النصارى بشتى بقاع الأرض، وتبخرت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوروبي، وانتهى ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة^(١) وحلت محلها هيبة المسلمين.

ومما يظهر سياسة الحكم الخاصة ببايزيد، ما فعله بعد هذا النصر المبين في موقعة نيقوبوليس، إذ بعث رسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامي يبشرهم بالانتصار على النصارى، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحيين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً مادياً على انتصاره^(٢)، وهذا مما يدل على رغبته - رحمه الله - في بث روح الأمل من جديد في نفوس المسلمين الأمر الذي ترتب عليه اعتراف الأقطار الإسلامية في المشرق بضرورة الوجود العثماني على المسرح السياسي.

فكان لانتصار موقعه نيقوبوليس على السلطان المملوكي في مصر والخليفة العباسي الذي يقوم عنده منذ سقوط بغداد على أيدي المغول عام ١٢٥٨م بالغ الأثر مما حدا بالخليفة العباسي منح بايزيد لقب السلطان^(٣).

(١) سالم الرشدي، محمد الفاتح ص سالم الرشدي، محمد الفاتح ص ٣٣

(٢) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ٨٢.

(٣) راجع محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٦٣- على الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٨٢.

تيمور لنك:

بعد هذه الأحداث والانتصارات التفت بايزيد مجددًا إلى القسطنطينية، ويبدو أن "مانويل" بدأ في عدم تنفيذ التزاماته التي اتفق عليها من قبل فتوجه بايزيد من جديد إلى حصار القسطنطينية، وبدأت الأحداث تتابع حيث يستميت مانويل في الدفاع عن المدينة الحصينة، وطلب المدد من أوروبا فتلقى مساعدة من شارل الرابع ملك فرنسا، الذي أرسل قوة من الغرب الأوروبي من ألف ومائتي جندي بقيادة "يوحنا لومينجر" أحد القادة الذين شاركوا في موقعة نيقوبوليس؛ مما يعنى أن لديه من الخبرة الكثير في قتال العثمانيين وطريقة حرب الأتراك. وتوغلت هذه القوة في عمق الأراضي العثمانية حتى ينسحب بايزيد إلا أن هذا لم يُجدِ نفعًا ولم يفك الحصار عن المدينة، ولم تنفع كل هذه المحاولات في فك الحصار، إلى أن حدث حدثٌ مهمٌ في التاريخ، ترتب عليه قلب الأحداث من جديد رأسًا على عقب، إذ ظهرت شخصية على ساحة الأحداث هي من المغول، شخصية تيمور لنك، الذي بدأ في الاجتياح للمنطقة مما حدا ببايزيد بفك الحصار وسار بجيوشه لملاقاة هذا الطاغية الجديد من المغول، واكتفى قبل رحيله بإبرام معاهدة جديدة مع مانويل اتفق فيها على الآتي:

- يدفع الإمبراطور عشرة آلاف قطعة ذهبية لبازيزيد الأول الذي حصل على "سلمبرية" وجميع الأراضي الواقعة خارج الأسوار.
- تحديد أماكن سكن المسلمين في القسطنطينية وبناء مسجد لهم.
- ضرب النقود باسم السلطان العثماني^(١).

والواقع كان يقول إن فتح المدينة كان قريبًا جدًا حتى إن ملك فرنسا فقد الأمل في تقديم المساعدة نهائيًا لعلمه بعدم الجدوى، وجلس منتظرًا خبر سقوط المدينة في أي لحظة، إلا أن دخول تيمور لنك على مسرح الأحداث جعل الدفة تتقلب رأسًا على

(١) راجع شروط الصلح، محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٦٤.

عقب، وعلى هذا سنعرف بقية الأحداث تبعاً ومن هي شخصية تيمور لأنك مع عرضها في مبحث مستقل بها.

في الحديث: حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه



تيمور لنك

إن التتار هم أخطر مجرمي العالم حتى القرن العشرين، وتحديداً حتى عام ٢٠٠٣م، منذ ظهور ذلك الاجتياح التتري الجديد الذي أعاد للأذهان ما فعله هولوكو عند اجتياح بغداد، حيث التشابه من حيث القتل والتدمير واستباحة الثروات والأعراض والدماء فلا فرق بين هؤلاء وهؤلاء. بل إن ما فعله التتر لدي أهون مما فعله بوش وعصابته، حيث أن الجيوش التتارية تعلم في نفسها وكذا الجميع أنهم قتلة وفجرة إلى أقصى الدرجات، أما بوش وعصابته فهؤلاء يظهرون في الإعلام المسخر تحت أرجلهم على أنهم حارسو العالم، ثم يفجرون ويدمرون ويفسدون وعند خروجهم مضطرين يملكون زمام الأمور للشريعة التي تستكمل حلقة القتل والدمار في المسلمين كل يوم، فلا فرق بين هؤلاء وهؤلاء.

والتتر^(١) هم قوم في ظهوروا سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) تقريباً، وكان ظهورها الأول في "منغوليا" في شمال الصين، وكان أول زعمائها هو "جنكيز خان" ((٢))، فهو أكبر شخصية مغولية في تاريخهم الذي قاد حملتهم سنة ٦١٧هـ فشملت أكثر بلاد المسلمين، وكل بلاد القوقاز وروسيا وقسماً كبيراً من أوروبا، وكذلك قسماً من الهند ويعتبر جنكيز خان نبي المغول، بل يطيعونه أكثر من طاعة الأمم لأنبيائها، وقد وضع لهم شريعة تسمى الياسه أو الياسا، وهي مجمعة من تعاليم الإسلام والنصرانية واليهودية وغير ذلك من تعاليم وعادات المغول، وما ارتاح له قلبه أن يضعه ويشرعه فيها ففعل، وهم قوم محبون ومتعطشون للدماء، يقتلون بشراسة وشراسة عجيبة، استطاعوا أن يحكموا مساحات شاسعة من الأراضي، خلال فترة صغيرة من الزمن، إلا أنه سبحانه الله سرعان ما دب الضعف فيهم وانهارت دولتهم، ولم تستمر لفترات طويلة من الزمن، وقد خلف جنكيز خان أولاده وهم خاقانات المغول الذين قسمت الدولة بينهم.

(١) كلمة أطلقها العرب على مجموعة القبائل المغولية التي اجتاحت الشرق العربي وبلاداً إسلامية أخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، يُعرف التتار عند الأوربيين بالتَّاتَر أو التَّاتَر Tatar ، أما الصينيون فيدعونهم بالتَّاتَا ويحذفون حرف الراء، ويسميه ابن خلدون التَّغَزْز.

(٢) وتعنى قاهر العالم.

انقسام التتر:

أحدث تقسيم الدولة بين أبناء جنكيز خان، وكذلك إسلام بركة خان مع قبيلته الذهبية انقسامًا كبيرًا ونقطة فصل جوهرية في أحداث التاريخ، بحيث يمكن القول إن هذا الحادث وهو إسلام القبيلة الذهبية كان له القول الفصل بفضل الله تعالى في القضاء على الخطر المغولي، بشكل كبير للغاية وخصوصًا بعد أحداث عين جالوت، والتي انهزم فيها المغول هزيمة منكرة بجيش كبير، ولكن هذا لم يكن كافيًا لإنهاء أثرهم وجرائمهم التي لم ولن تُمحى من الذاكرة التاريخية أبدًا مهما مر الزمان، ولذلك فقد تابع بركة خان استكمال هذا الأمر، بروح حثيثة مجاهدة مثابرة حتى مات هو لاكو كمداً وقهراً مما يفعله بركة خان، فخلاصة القول في هذا ودون الخوض في تفاصيل أكثر، إن هذا الحدث أحدث انقسامًا وتفككًا كبيرًا في صفوف التتر، التي اشتعلت لديها القومية التترية وخصوصًا بعد موت جنكيز خان.

مولده:

ولد تيمور لنك أو تيموركوجان، أو كوكان بن ترغاي بن أبغاي، ويمت بصلة قرابة إلى ذرية جنكيز خان من ناحية الأم وليس من العصب، ولد في قرية خواجه ابلغار عام ١٣٣٦م الموافق شعبان ٧٣٦ هـ، وهي من مدن ما وراء النهر، ولم يحمل لقب خان؛ لأنه لا ينسب إلى العصب كما ذكرنا وحمل لقب أمير وكوركان التي تعني بلغة المغول الحسن الصهر لزوجاه من بنات الملوك وأطلق عليه المؤرخون بعد ذلك مؤسس مملكة المغول الثانية^(١)، وقد أضاف الفرس إلى لقبه كلمة لنك التي تعني الأعرج، وهذا الاسم لم يعرف به إلا بعد الإصابة التي حدثت لقدمه في سيستان عام ١٣٦٥م^(٢)

(١) وكان يدعى أيضا تيمور كركن أي حسن الوجه، وقد قيل -في قول ضعيف- أن سبب إطلاق اسم تيمور عليه هو أخذ مشايخ بلده عقب ولادته حين أحضره أبوه إليه كي يباركه وكان الشيخ آنذاك يقرأ قوله تعالى من سورة الملك {أمنت من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور}.

(٢) راجع منصور عبد الحكيم، تيمور لنك إمبراطور على صهوة جواده ص ٥٣- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٩٦.

ما يتميز به عن باقي المغول:

إن المغول وبيئتهم وحياتهم التي عاشوها جعلت منهم حيوانات مفترسة تأكل الأخضر واليابس، وقد تميز تيمور لنك عن غيره من الطغاة التتر، أنه كان يهدم المدن ثم يعيد بناءها على نمط جديد من صنع خياله، أما هولاكو وجده جنكيز خان فكان يهدم المدينة رأساً على عقب، فلا يجعل حجراً على حجر، ولا رأساً على جسد، وبعد ذلك يكتب لافتة تقول ها هنا مدينة كذا^(١)، أو بالأحرى كانت هنا مدينة كذا، إلا أن تيمور لنك وغيره يتفوقون أنهم كانوا يهدمون ويقتلون ويفتكون إلى أقاصي الدرجات.

عقيدته:

إن ظاهر الأمر لدى تيمور لنك أنه كان مسلماً^(٢)، مثله مثل كثير من التتر الذين دخلوا في الإسلام، ولكن حتى نعلم حقيقة الأمور، فإن كثير من الذين اعتنقوا الدين الإسلامي من المغول لم يكن انتمائهم للإسلام بالكلية إنما كان ظاهرياً فقط، ذلك لأنهم أطلقوا الشهادة اسماً ولفظاً لا عقيدة و يقيناً، بل استمروا بالعمل بعقيدتهم وكتابهم المسمى الياسا.

وكذلك كان تيمور لنك، فرغم أنه كان مسلماً إلا أنه لم يطبق تعاليم وأحكام الإسلام في دولته وإنما طبق قانون الياسا الذي وضعه جنكيز خان -وهي شريعة وثنية- وكان تيمور يدعي أنه شيعياً تارة وسنياً تارة أخرى حسبما تقتضي مصالحه في الحكم وما يريد أن يصل إليه حتى أنه ادعى الانتساب إلى الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-^(٣).

(١) منصور عبد الحكيم، تيمور لنك إمبراطور على صهوة جواده ص ٢٨

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٩٧

(٣) منصور عبد الحكيم، تيمور لنك إمبراطور على صهوة جواده ص ٥٤

التمهيد لنشوب الصراع مع الدولة العثمانية:

استطاع تيمور لنك أن يؤسس دولة واسعة الأرجاء تمتد من سمرقند إلى بلاد الأفغان والهند وإيران حتى بلاد الكرج وأرمينيا وكردستان، وبذلك يكون قد جاور الدولة العثمانية التي كان يحكمها في ذلك الوقت السلطان بايزيد الصاعقة -رحمه الله وغفر له- وكذلك قد جاور دولة المماليك في مصر والشام والحجاز، والدولة التركمانية الناشئة في شرق الأناضول، والإمارة الجلائرية المتداعية في العراق، والقبيلة الذهبية في حوض نهر الفولغا، وقد قرر تيمور لنك أن يُخضع كافة الحكام على امتداد دولته ليدينوا بالولاء له^(١).

وفي ذلك الوقت كان لبازيد دولة قوية بل تعتبر الدولة الثانية في العالم بعد تيمور لنك في القوة والتمكن والقدرة على تجميع الجيوش وفتح البلاد، فلذلك كانت المنافسة على أشدها بين الطرفين، والصدام على وشك الحدوث ومرتقب لكل ذي بصيرة، ولكن ما الذي أشعل الأمور التي وصلت إلى الحرب؟

البداية:

إن الذي جعل الأمور تبدأ في الاشتعال هي سلسلة من الأحداث تلت تلك الرسالة التي أرسلها تيمور لنك إلى برهان الدين أحمد بن شمس الدين حاكم سيواس، والتي يعتبرها تيمور لنك - أي سيواس - نقطة استراتيجية محورية جوهرية بالنسبة له في الصراع حول تحقيق المجد المغولي من جديد، وعلى إثر هذا فقد طلب من حاكم سيواس برهان الدين أن يضرب النقود باسمه على غرار المتداول في البلاد الخاضعة لحكم تيمور، وأن يجري الخطبة باسم السلطان

(١) عبد المنعم الهاشمي، الدولة العثمانية، ص ٦٥

الجغتائي^(١) محمود بن سيور عتمش صنيعة تيمور لنك، فقام برهان الدين بقطع رؤوس رسل تيمور لنك الذين حملوا إليه الطلب، وأرسل يعلم السلطان العثماني بايزيد بذلك وكذلك السلطان المملوكي بما فعله من قتل الرسل، وبعث بايزيد إلى حاكم سيواس يعلمه بموافقته على تصرفه^(٢).

وقفة:

ولنا هنا وقفة هامة وخطيرة في مسألة قتل الرسل، ذلك لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لرسول "مسيلم الكذاب": «أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمْ»^(٣)، وهكذا سار الخلفاء الراشدون، أما أفعال الملوك بعد "الخلافة الراشدة" ليست حجة، ولا يجوز مخالفة النصوص ونقض العهود بزعم المصلحة؛ فإن رسل الكفار لهم عقد الأمان، وأردنا أن نوضح هذه المسألة حتى لا تمر مرور الكرام دون توضيح، وقد استند البعض ليجيز قتل الرسل، بما فعله قطز من قتل الرسل التتر، فنقول إن العلماء أنكروا عليه هذه الفعلة، فهي لا تجوز ولو فيها رفع معنويات المسلمين، أو قطع الطريق أمام النفس إلا بالحرب على من يفكر أن يتراجع عن الجهاد، أو أي حجة كانت فلا يجوز قتل الرسل، والسؤال الجوهرى أيهما نتبع قطز أم النبي -صلى الله عليه وسلم-؟^(٤).

(١) الدولة الجغتائية (١٢٥١-١٥١٤م): نشأت تلك الدولة في مناطق تركستان الشرقية والغربية وبلخ وغزنه بعد أن قسم جنكيز خان أملاكه بين أربعة من أبنائه ف وقعت تركستان الشرقية في خانيته. استعان المغول بالأوغيور في إدارة الدولة وتأثروا بهم كثيرا حتى أسلمت أسرة جغتاي عام ١٣٥٧م، وعرفوا بالمغول المتتركين وكانت دولتهم في تركستان الشرقية قوية حتى تمكنت من منع تيمور لنك من احتلال تركستان الشرقية كلها، ثم ضعفت الدولة الجغتائية بسبب النزاعات الداخلية وتكون إمارات مستقلة داخلها حتى انتهت ب وفاة محمود خان آخر حكامها.

(٢) ابن عربشاه، عجائب المقدور في نواب تيمور ص ١٥٢، ١٥٣

(٣) رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني

(٤) إن ما فعله قطز من قتل الرسل إنما كان بغرض قطع السبيل أمام الوزراء المتخاذلين، أو فرق الجيش التي كانت تفكر بأنه يوجد سبيل آخر غير الحرب، ففكر قطز بفعل ذلك لقطع كل فكرة قد تراود أي شخص بأن هناك مجال آخر غير الحرب، بالإضافة إلى رفع همّة المسلمين، بأن هناك قوة تستطيع أن تقف أمام هذا الجيش التتري، ولكن هذا الأمر لا يجوز وقد أنكروه علماء زمانه.

خلاصة القول بعدما حدث من قتل رسل تيمور، الذي أوعز إلى عثمان قراييلوك زعيم الآق قويونلي (الخراف البيض)، بمهاجمة سيواس، وفعلاً نفذ هذا في عام ١٣٩٢م - ٨٠٠هـ، وقتل برهان الدين وفرض نفسه حاكماً على المدينة ووضع فيها السيف بعد حصار دام ثمانية عشر يوماً وعاث فيها فساداً، وقد برر تيمور لنك هذا الخراب والفساد والقتل والذبح على النهج التتري القديم بقوله: بأن سكانها أرسلوا بعض الهدايا إلى سلطان مصر، ولذلك وجب معاقبتهم،^(١) إلا أنه اضطر إلى الفرار منها بعد ذلك، عندما رفض السكان الإقرار له بالطاعة، واستدعوا السلطان العثماني بايزيد الأول ليحكم المدينة، فसार إليها وترك فيها قوة عسكرية كبيرة وحاشية تضم عدد من القواد العسكريين^(٢).

ثم تقدم بايزيد بعد ذلك إلى "ملطية" وانتزعها من أيدي المماليك، مستغلاً اضطراب الأوضاع في بلاد الشام، ثم "أرزينجان" وكان حاكمها "طهارتن" موالٍ لـ"تيمور لنك"، فطلب منه أن ينبذ طاعته ويقر بالتبعية للعثمانيين، فامتنع وأبلغ تيمور بذلك على الفور، فاعتبر تيمور ذلك تدخلاً في شئونه. ثم تلا هذه الأحداث استيلاء تيمور لنك على بغداد في عام ١٣٩٣م فلجأ حاكمها وهو "أحمد بن أويس"^(٣)، وكذلك حليفه "قره يوسف" إلى بايزيد، الذي آواه واقطع أحمد "كوتاهية" وأنعم على قره يوسف بـ"أقسرا" فخشي تيمور لنك من قيام تحالف عثماني جلانري تركماني قد تنضم إليه المماليك بعد ذلك فطلب من بايزيد تسليمه أحمد وقره يوسف فرفض بايزيد وقال: إن هذا يخالف تقاليد الضيافة التركية^(٤).

(١) ابن عربشاه، عجائب المقدور في نواب تيمور، ص ١٩١ طريق عبد المنعم الهاشمي الخلافة العثمانية ص ٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩١، ١٨٥، ١٨٤ طريق محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٦٦.

(٣) وشهرته اسمه أحمد جلاير-راجع محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٤٦.

(٤) بن عربشاه، عجائب المقدور في نواب تيمور ص ٣٠٨ طريق محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٦٦.

الأسباب الرئيسية للخلاف بين تيمور وبايزيد:

والواقع أن الأسباب الرئيسية التي أجبت الخلاف بين تيمور لنك وبايزيد الصاعقة هي كالتالي:

الرغبة التوسعية لكلا الطرفين، وانتهاز الفرصة للانقضاض على الآخر.

الاختلاف في الهدف من التوسع فبايزيد يريد نشر راية الإسلام في ربوع الأرض، أما تيمور فيريد إعادة ملك المغول مرة أخرى، لذلك لا يلتقيان أبداً.

التعصبية القومية، وخصوصاً لدى تيمور لنك فهو متعصب للمغولية ويريد إحياءها ولا يفرق معه الإسلام أو ما شابه ذلك، بل كما ذكرنا فهو كان يطبق تعاليم الياسا الوثنية، وإن كان الاسم ظاهرياً مسلماً.

لجوء أحمد وقره يوسف إلى بايزيد وتحميسه للقضاء على تيمور، وكذلك لجوء أمراء شرق الأناضول إلى تيمور وتحميسه ضد بايزيد.

نظرة تيمور لنك العدائية لبايزيد واعتبار نفسه تركي الأصل أما بايزيد فغير ذلك.

خشية تيمور لنك من اتساع ملك العثمانيين فيجب القضاء عليهم وهم في هذه المرحلة، حتى إنه كان يقول: "إنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الأرض طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد في السماء"^(١).

تشجيع النصارى بكامل قوتهم لتيمور لنك بشن الحرب على بايزيد الذي يزيد عليهم الخناق ويرغب في فتح القسطنطينية.

الرسائل النارية بين الطرفين.

(١) راجع على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٨٤

فكل هذه العوامل والأحداث التي حدثت خلال هذه الفترة كانت سببا في تأجيج الصراع، ولكن يبدو أن السبب الرئيس الظاهر في هذا الأمر، أو القشة التي قسمت ظهر البعير هو ما حدث من قره يوسف من مهاجمة إحدى قوافل الحجاز، فالتجأ من نالهم الأذى إلى تيمور لنك، على الرغم إنه كان يجب الالتجاء إلى حاميه وهو بايزيد ليقتصص لهم، ولكن الالتجاء تم إلى تيمور لنك، الذي انتهر الفرصة حيث وجد ضالته التي يبحث عنها لبدأ الحرب بينه وبين بايزيد الذي أنهك في حرب نيقوبوليس وبالتالي سوف يكون في حالة أضعف منه، ولذلك فهذه فرصة جيدة لحربه والانتصار عليه، وبدأت المراسلات بينهم على وجوب معاقبة قره يوسف وأن يستفيق بايزيد من غفلته وما إلى ذلك من الأمور، وفي الحقيقة أن المراسلات لمن يطالعها يجد أنها كانت في طريقها للصالح، إلا أن تيمور لنك أصر إصراراً كبيراً وهو ما لم يكن مجاله في هذه المسألة إلا لمن أراد أن يفسد المفاوضات، إذ أصر على تسليم قره يوسف، وهو يعلم ما سيكون رد بايزيد، فاشتعل الأمر من جديد وفشلت كل المراسلات بل تحولت الأمور إلى طامة كبرى، أو هكذا أرادها تيمور لنك^(١)؛ ولذلك فلم يكن هناك مفر سوى الحرب.

موقف النصاري:

يقول رب العزة عز وجل: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مَلَّتَهُمْ ۖ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۚ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٢)، فسبحان الله فهذا هو الواقع الذي عايشناه على مر التاريخ، ونحياه الآن ولكن للأسف الشديد لا يفقه الحكام هذا، أو على الأقل يتناسوه ويقيمون معهم المفاوضات بانتكاسات وخضوع وخنوع ولو على حساب إخوانهم من المسلمين.

(١) راجع المرجع السابق بتصرف، كذلك راجع نص المراسلات المتبادلة عن فريدون ج ص ١٢٦-١٢٩ يزيد ج ٢ ص ٢٧٩-٢٨١.

(٢) البقرة، الآية ١٢٠

وهذا ما فعله النصارى في هذا الموقف ففور ظهور الحرب على الأعتاب، شجع العالم النصراني لها إذ أن هذا ما كان يتمناه البابا والحكام الأوروبيون، والإمبراطور البيزنطي، بأن تشتعل الحرب بين العثمانيين والمغول من جديد.

ومع اشتعال الصراع شعرت أوروبا بتنفس الصعداء^(١) وعلى رأسهم القسطنطينية، بل أجرى الإمبراطور البيزنطي مفاوضات مع تيمور لنك على الفور، وحذا حذوه "شارل الخامس" ملك فرنسا، حتى إن إمارة "طرابزون" الصغيرة، أعلنت استعدادها للسماح لتيمور لنك باستخدام مينائها الوحيد وكذلك وعده أهالي جنوه الذين يديرون منطقة بيزا الواقعة عند القرن الذهبي لإرسال سفنهم ومنع أي إمدادات عسكرية للعثمانيين، إذا ما حاولت العبور إلى آسيا الصغرى في حال ما بدأت الحرب^(٢)، وكل هذا أملاً في القضاء التام على الدولة العثمانية بل وإجلانهم بالكامل من أوروبا، فأى حقد هذا الذي في قلوب هؤلاء.

معركة أنقره:

كان بايزيد يخطط أن تكون المعركة بينه وبين تيمور خارج حدود الدولة لا سيما وقد اقترب موسم الحصاد للفاكهة ولا يريد تخريب طعام وتجارة المدينة، أما تيمور لنك فكان يخطط للتوغل السريع بقواته ولمسافات بعيدة في الأراضي العثمانية وذلك بهدف إرباك بايزيد وقواته حتى تتشتت ولا تعرف أين تقاتل أنها أم هناك^(٣).

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٩٦.

(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٦٩.

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٧٠.

وعلى هذا زحف تيمور لنك باتجاه الأناضول وقد حرص على إخفاء قواته خلف الجبال، وقام بإتلاف المزروعات أثناء طريقه ودمر البلاد التي مر بها خلال عملية الزحف وكانت حجته في هذا هي إيجاد وجمع الأعلاف^(١) للخيول^(٢).

وتقدم تيمور لنك إلى سيواس والتي كما ذكرنا يعتبرها نقطة جوهريّة بالنسبة له، فاحتلها وأباد حاميتها والتي كان يقودها الأمير أرطغرل بن بايزيد^(٣)، فكما لو أنه أراد أن يفتك بسيواس على رفضها الدخول في طاعته من قبل، وأن ينتقم من بايزيد في ابنه أرطغرل -رحمه الله-.

المعركة:

اجتمع الجيشان قرب أنقره، حيث تتضح الأمور أن المعركة ستكون هناك، ولذلك أرسل تيمور طليعة من جيشه لردم الآبار من اتجاه بايزيد وترك بعضها الآخر مسموما حتى يقتل الجيش المسلم شر قتلة، ثم قام بتحويل نهر صغير كان يروي أنقرة باتجاه آخر، حتى لا يصل لقوات بايزيد أي مدد من طعام أو شراب، وخصوصاً وهو الجيش المنهك بقوة بعد معركة نيقوبوليس.

(١) يجب ألا نتعجب أبداً من هذه الحجج التافهة التي تتردد على المسامع، من تدمير المدن والزروع لأجل إيجاد طعام للخيول، ألم يكن يستطيع أن يجمع الأعلاف لهم دون حرق المحاصيل ودون قتل البشر، ودون تخريب المدن، ولكن لا نعجب من هذه الأمور والتي على إثرها يذبح المسلمون ويقتلون ويشردون ويصبحوا لاجئون في دول الغرب النصراني فأواه على سوريا اليوم- وهذا أيضاً ما حدث في العراق في عصرنا الحالي، من ضرب العراق واحتلالها من القوات الأمريكية النصرانية، وقتل أعداد لا تحصى من المسلمين هناك، وكل ذلك بحجة وجود أسلحة كيميائية، وحتى على هذه الحجة عندما تسأل هل وجدتم شيء؟ فستكون الإجابة بعد هذا كله، لا لم نجد أسلحة، إذن فالقتل والتدمير واحتلال البلاد لسنوات وتمكين الشيعة من رؤوس المسلمين، فكل هذا ذهب هباءً؟ فتجد أيضاً الإجابة لا شيء، فهكذا كل الحاقدين على الإسلام والمسلمين يبتغونها دماراً شاملاً على رؤوسنا لقطع دابر الإسلام نهائياً، ولكن هيهات هيهات.

(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٧١.

(٣) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٨٤.

ولما علم بايزيد بذلك اضطر أن يتجه في اتجاه الغرب بمسيرة ثمانية أيام تحت أشعة الشمس الحارقة في الصيف الحارق، مما أنهك الجيش العثماني بقوة، وحالت قوات تيمور بينهم وبين الماء عندما وصلوا إلى أرض المعركة، فاستغل تيمور هذه الأمور وسارع في البدء بالمعركة^(١).

وكانت المعركة التي أظهر فيها بايزيد شجاعة وبسالة لا مثيل لها حتى إن تيمور ذاته أعجب بها وهو خصمه اللدود، ولكن ما حدث من خيانات قلبت موازين المعركة رأساً على عقب.

فقد راسل تيمور لنك أمراء المغول في جيش بايزيد، والذين كانوا يمثلون ثلثي الجيش، فكتبهم حتى استمالهم بالعصبية المغولية وبأمور أخرى كتمنياتهم بالحكم في مناطق أوسع وغير ذلك من الأمور التي جاءت بنتيجة معهم وجعلتهم ينسحبوا عند بدء المعركة، كما انسحبت القوات التركية التي انضمت إليه حديثاً، وتركوا بايزيد وحده يلاقى حتفه ومن بقي معه من قوات الصرب^(٢).

ورغم هذا كله وهذه الظروف المعاكسة استمر بايزيد في الحرب التي اشتد وطيسها إلى أعالي السماء، وأثبتت القوات الإنكشارية قوتها وبراعتها بشكل منقطع النظير، ولكن المعركة كانت واضحة المعالم وأنها محسومة لتيمور وخصوصاً بعد هذه الانسحابات المتتالية من جيش بايزيد، حتى إن ابنه "الأمير سليمان بن بايزيد" "والصدر الأعظم علي باشا" طلبا من بايزيد أن يفر، إلا أنه استمر في الحرب دون تقدير للنتائج ولم يعر التفاتة لطلب ابنه والصدر الأعظم

(١) ابن عربشاه، عجائب المقدور في نوائب تيمور ص ٣٢٩ طريق، عبد المنعم الهاشمي الدولة العثمانية ص ٧١.

(٢) راجع، محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٧٢.

علي باشا، لذلك انسحب الاثنان باتجاه بورصة كما انسحبت القوات الصربية سريعاً إلى أماسيا^(١).

وكان واضحاً أن العثمانيين سيهزمون لا محالة، وهنا يبرز خطأ بايزيد وهو استمراره في المعركة حتى هذه اللحظة وهو ذو الخبرة العسكرية الكبرى، والوعي والفهم الكبير الذي جعل من اسمه صاعقة على رؤوس الأعداء، إلا أنه أخطأ خطأ كبيراً كلفه هزيمة ساحقة حلت به في هذه المعركة نتيجة الاستمرار فيها رغم ما يحدث من انسحابات وخيانات كبرى في جيشه.

وفي الليل طوقت قوات تيمور لنك ما تبقى من قوات بايزيد وأخذت القائد العظيم بايزيد الصاعقة أسيراً لدى تيمور، وانتهت المعركة بانتصار تيمور لنك الساحق على بايزيد الصاعقة. وبعد هذا الانتصار الساحق لتيمور فقد تقدم باتجاه بورصة فدخلها وأحرقها^(٢)، وحمل معه من المدينة المكتبة البيزنطية والأبواب الفضية كما انتزع "أزمير" من أيدي فرسان رودوس^(٣) وأقام في "إفسوس"^(٤).

وأخيراً عاد تيمور لنك إلى سمرقند بعد أن حاول إزالة النقمة التي في قلوب المسلمين نتيجة الانتصار على بايزيد، ونتيجة المذابح التي أقامها في سيواس، وما يفعله من مخالفة الأحكام الإسلامية، فحاول أن يشن هجمات على النصارى حتى يستعطف قلوب المسلمين.

وسبحان الله كانت الفرصة مواتية لتيمور في دخول الأناضول إلا أن الله تعالى أعماه عن ذلك وجعله يعود، كما لو أن الله يريد أن يعطي الفرصة مرة أخرى للعثمانيين لاستعادة توازنهم

(١) ابن عربشاه، عجائب المقدور في نوائب تيمور بتصرف ص ٣٢٨، طريق عبد المنعم الهاشمي الخلافة العثمانية ص ٧١.

(٢) المرجع السابق طريق محمد سهل طقوش، ص ٧٢

(٣) رودوس: جزيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط عند منخل بحر أيجه غي جنوب غرب الأناضول.

(٤) المصدر السابق ص ٣٤٦.

وإقامة العدل في ربوع الدنيا من جديد، فعاد تيمور لك ورغبته هي فتح الصين كلها لتكون تحت ملكه.

وفاة بايزيد الصاعقة -رحمه الله-:

عاش السلطان بايزيد أسيراً لدي تيمور مدة ٧ أشهر و ١٢ يوماً، وتوفي قرب مدينة قونية في ٣ مارس عام ١٤٠٣ م وأُرسِلَ جثمانه إلى بورصة، وعلى إثر وفاته أُطلقَ تيمور لك سراح موسى جلبي أحد ابني بايزيد الذي أُسرَ معه^(١).

نهاية تيمور لك:

ولم يكد يستقر في سمرقند حتى أعد العدة لغزو الصين في خريف (٨٠٧هـ - ١٤٠٤م)، وكان الجو شديد البرودة حين خرج لغزوته الأخيرة، وعاند نصائح أطباءه واستمر بحملته، وعانى جيشه قسوة البرد والثلج، ولم تتحمل صحته هذا الجو القارس، فأصيب بالحمى التي أودت بحياته ويقال إنه مات بفعل مستحضر معمول من تقطير الخمر صنعه له أطبائه بناء على أوامره ليقاوم البرد حيث أذاب كبده في (١٧ من شعبان ٨٠٧ هـ - ١٨ من فبراير ١٤٠٥م)، وبعد وفاته نقل جثمانه إلى سمرقند حيث دفن هناك في ضريحه المعروف بكور أمير، أي مقبرة الأمير^٢.

مسألة الأسر للسلطان بايزيد:

بعد أن انتصر تيمور لك على بايزيد الأول الصاعقة -رحمه الله وغفر له-، حمله معه إلى سمرقند أسيراً، وقد عامله بكل إجلال واحترام على الرغم من سابق الرسائل المتبادلة بين الطرفين، وأمر بفك أغلاله وأجلسه إلى جانبه وأكد له بأنه سيبقي على حياته ولكن أسيراً لديه؛

(١) يلماز ازوتونا، تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ١١١.

(٢) راجع ابن عربشاه، عجائب المقدور في نواب تيمور.

فأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته ولكن عندما حاول بايزيد الهرب احتجزه في غرفة ذات نوافذ مسدود بالحواجز وبالغت الأساطير فذكرت أنه قفص من الحديد^(١). وقد مرض بايزيد بعد ذلك وتوفي وهو في الأسر.

وقد ثارت أمور يذكرها بعض المؤرخين بأن السلطان بايزيد عومل معاملة قاسية في الأسر وعذب أشد العذاب إلا أن الراجح من الأقوال أن هذا لم يحدث، ولكن هذا لا يمنع من كون الأسر في ذاته عذاب وخصوصاً لرجل مثل بايزيد -رحمه الله-.

الأمر الثاني تجده في بعض كتب المؤرخين وخصوصاً الناقلين من الغرب، أنهم يحاولون أن يبتعدوا عن لفظة الحبس أو الأسر فيقولون إن تيمور وضع بايزيد على حصانين أثناء نقله، بغرفة مقفلة شبابيكها بقضبان من حديد، فالسؤال المهم أليس هذا حبساً وأسراً؟!

إذن فلماذا نجمل اللفظ؟

وتجد البعض الآخر ينحون منحى أبعد من ذلك نظراً لأن بعض المؤرخين الأتراك أطلقوا لفظ "التختروان" أي القفص، فلما نقل مترجمو الغرب عنهم هذا اللفظ ظنوا أن تيمور وضعه في قفص مثل الوحوش أي معاملة المعذبين والعبيد.

ومن إجمالي الأقوال كما ذكرنا آنفاً، أن السلطان بايزيد عومل معاملة جيدة ولكن بتشديد الحراسة عليه إلى أن مات في الأسر -رحمه الله-.

وبأي حال فالموهنيين من أسره قد وقعوا في الخطأ والذين بالغوا في تعذيبه قد أخطأوا هم أيضاً.

(١) ابن عربشاه ص ٣٣٧، ٣٣٨ - محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية ص ١٤٦.

فرية انتحار بايزيد:

من أغرب الفريات التي ذكرت على بايزيد الصاعقة وهو من أكثر السلاطين العثمانيين تعرضاً للأقويل ويرجع ذلك إلى هزيمته أمام تيمور لنك والتي أرجعت الدولة إلي الوراء بشكل كبير جداً، بعد أن كانت متقدمة تقدم بارز وقوي بل كانت من أقوى الدول على الساحة الدولية حتى أنها كانت قاب قوسين أو أدنى من فتح القسطنطينية.

وبخصوص وفاته فنجد لها ثلاث روايات:

الرواية الأولى: أن بايزيد -رحمه الله- أصيب بحمى شديدة وضيق في التنفس وأمراض أخرى ألمت به نتيجة الغم الشديد والحزن العميق للمصيبة الكبرى التي أصابته، ونرى أن هذه هي الصحيحة وأن رواية الانتحار هذه ما هي إلا افتراء عليه، ويؤكد هذه الرواية المعاصرين للسلطان نفسه وعلى رأسهم المؤرخ "عريشاه" صاحب كتاب عجائب المقدور، ولهذا فإننا نرى أن هذه هي أصح الروايات التي قيلت في وفاته (١).

الرواية الثانية: تقول أن تيمور لنك كان عازماً على إطلاق سراحه إلا أنه تراجع عن ذلك مرة أخرى فأصاب بايزيد اليأس فتجرع السم ومات، ويستند أرباب هذا القول إلى ما ذكره "الطفي باشا" "وعاشق باشا زاده" "ومؤلف كتاب تواريخ آل عثمان": "إنه ما إن سمع السلطان بايزيد أنه سيذهب إلي سمرقند حتى اعتلّ غاية العلة" فكيف تفسر هذه الكلمات على أنه سينتحر، أو حتى قوله -رحمه الله-: "اللهم أمتني إن كان الممات خيراً لي"، فربما المستشرقون معذورون لأنهم لا يعرفون هذه القولة في الإسلام، أو أنها جائزة في بعض الأحيان مثلما كان بايزيد، ولكن العرب والمسلمون ما عذرهم لينقلوا مثل هذه الفرية على الصاعقة ويفسرونها ذلك على كونه انتحار (٢).

(١) احمد اق كوندز - سعيد اوزتورك، ٣٠٣ سؤال الدولة العثمانية المجهولة ص ٩٧: ١٠٠.

(٢) المرجع السابق.

الرواية الثالثة: وهي تقول بأن تيمور قد دس له السم، إلا أن الواقع التاريخي يؤكد عكس ذلك، بل إن غالبية المؤرخون لا يلتفتوا إلى هذه القولة نهائياً^(١).

وخلاصة القول فقد توفي بايزيد الصاعقة تاركاً الدولة في حالة من الشتات وتحتاج إلى من يلممه بحكمة وحكمة وحذر فهل حدث ذلك فعلاً؟! فهذا ما سنعرفه عند الحديث عن الشخصية التالية.

(١) المرجع السابق.



السلطان محمد جلبي رجل المحنة

إن الأمة الإسلامية مرت بفترات طويلة من القوة والضعف والفتنة والشيخوخة ثم النهوض لتعود لمرحلة الشباب مرة أخرى بقوة وبأس شديدين في دورة حياة الأمم.

ومن فترات المحن التي مرت بالأمة الإسلامية كانت الفترة التي تلت معركة أنقرة^(١) التي انهزم فيها السلطان بايزيد الصاعقة ووقع بالأسر على يد تيمور لنك، حيث تجزأت الدولة إلى عدة إمارات صغيرة، مثلما حدث بعد سقوط دولة آل سلجوق، ذلك لأن تيمور لنك أعاد إلى أمراء قسطنطيني وصاروخان وكرميان ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد^(٢)، حيث كان هدفه الرئيسي هو إشعال نار الفتنة في البلاد كي لا تستطيع أن تقوم مرة أخرى، ولذلك فرقها وشتت شملها مثلما يفعل أعداء الأمة بنا حيث قسموا الأمة إلى دول ثم الدول إلى دول أصغر تتصارع وتتناحر فالمغرب العربي الكبير أصبح دول أصغر تتصارع فيما بينها بخلافات وصلت لحد الحروب والافتتال "وتندوف" خير شاهد ودليل، ومصر السودان تقسم إلى دولتين مرة أخرى ثم تقسم السودان إلى جنوب السودان وشمالها، والعراق تقطع وسوريا تمزق، وغير ذلك مما هو معلوم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوضع بعد معركة أنقرة:

كان الوضع بعد معركة أنقرة مأسوي لأقصى الدرجات إذ تمزقت الدولة على نحو كبير وتصارع الأبناء وانتهز الأعداء الفرصة للانقضاض على الدولة سواء من الداخل أو من الخارج:

(١) أنقرة: هي عاصمة تركيا الحالية وذلك منذ الحرب العالمية الأولى، وتقع في قلب البلاد مباشرة.

(٢) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١١٦.

فتشتت الدولة وتجزأت بشكل كبير كما أوضحنا ناهيك عن كون كل أمراء التركمان يسعون بكل جد واجتهاد لنيل رضاء تيمور لنك^(١)، بل وعين تابعه المخلص "طهارتن" في حكم "أرزينجان" وزاد في أملاكه، وفعل مثل ذلك مع تابعه الآخر "عثمان قرايلوك" حاكم ديار بكر وزعيم الآق قويونلي^(٢).

بعد استقلال الأمراء التركمان تشجع كل من البلغار والصرب والفلاخ^(٣) على الخروج عن الدولة وإعلان العصيان، وبالتالي لم يبق للدولة العثمانية إلا قليل من البلدان تحت سيطرتها^(٤).

اتاحت موقعة أنقره وهزيمة آل عثمان فيها الفرصة الكبيرة للدولة البيزنطية لالتقاط الأنفاس بعد أن كانت على وشك فتح أبواب مدينة القسطنطينية^(٥)، الأمر الذي مهد الطريق للمؤامرات على الدولة العثمانية من جديد والاستعداد بحملة عسكرية لإجلالهم بالكامل من أوروبا، ولكن خلافات زعمائهم جنوب الدانوب وضعف هذه الحملة كانت سبباً لفشلها^(٦)، وإن كان قد بدأ بالفعل الإمبراطور البيزنطي بطرد المسلمين من الحي المخصص لهم في القسطنطينية^(٧).

أما الذي زاد من شدة الفتنة أن رؤوس الأمر في تصارع وتناحر شديد فكل أولاد بايزيد يتصارعون لأخذ السلطة، وكل على طريقته، "فلسطين ابن بايزيد" الذي انسحب من المعركة

(١) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١١٦.

(٢) محمد سهيل طقوش تاريخ العثمانيين ص ٧٤، وسيأتي تفصيل للاق قويونلو بعد ذلك عند الحديث عن السلطان محمد الفاتح.

(٣) الفلاخ: أو الأفلاق: وهي إمارة من إمارات الدانوب وقد دخلت تحت النفوذ العثماني عام ١٣٩٦م واستقلت عام ١٨٥٨م واتحدت مع مولدافيا وكونت الدولة الرومانية الحالية.

(٤) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١١٦.

(٥) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٧٣.

(٦) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١١٣.

(٧) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٧٣.

مع عدد وفير من الجند إلى بورصة لإنقاذ الأموال والنساء والأولاد من القوات التيمورية التي كانت تتعقبه^(١)، قد وجه أنظاره نحو الغرب الصليبي البيزنطي حيث عقد محالفة مع "مانويل الثاني" ليساعده على محاربة إخوته الذين ينافسونه في الحكم، ولأجل ذلك تزوج سليمان من إحدى قريبات الإمبراطور، بل وعقد معاهدة مع الوصي على العرش جان السابع والجمهورية البندقية والجمهورية الجنوبية وهم من أشد أعداء الدولة العثمانية وأكثرهم رغبة في إجلاءهم من أوروبا بالكامل، وتتضمن تلك الاتفاقية وجوب فتح المعابر في السلطنة لتجارتهم وبالتالي موافقة السلطان على عدم دخول السفن العثمانية إلى الدردنيل أو الخروج منه دون إجازة منهم بل وتنازل سليمان فيها عن سالونيك ومنطقتها التي كانت سقطت بيد القائد العثماني "إفرقوس بك"، وإعفاء الإمبراطور البيزنطي والجاليات الجنوبية في البحر الأسود من الضريبة المفروضة عليهم^(٢).

وكان تحالف سليمان يضم الإمبراطور البيزنطي كما ذكرنا وفرسان القديس يوحنا في رودس "واسطفان لازار الصربي" وحاكم ناكسوس وجنوه^(٣).

ففي الوقت الذي أعلن سليمان نفسه سلطاناً على الروميلي متخذاً أدرنه عاصمة له، كان إخوته عيسى وموسى ومحمد يتناحرون في الأناضول سعياً لتحقيق الغلبة المطلقة هناك. ولأجل زيادة الشقاق والخلاف فقد عمد أمراء الأناضول والدولة البيزنطية إلى توسيع هوة الخلاف بين الإخوة ومساعدة أحدهم على الآخر من أجل عدم استعادة الدولة هيبتها مرة أخرى ولتصبح مجرد تابع إلى حين تأتي الفرصة لطردهم جميعاً من أوروبا^(٤)، ولذلك فلما توفي السلطان بايزيد -رحمه الله- وتم إرسال جثمانه إلى موسى ابنه ليدفنه في بورصة -كما كانت وصية

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٧٣.

(٢) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١١١، ١١٥.

(٣) حمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٧٤.

(٤) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٣٣، ١٣٤ بتصرف.

والده- فلما وصل إلى هناك غادرها أخوه عيسى ولكنه استعادها بعد ذلك مما جعل موسى مضطراً للجوء إلى خاله "يعقوب بك ابن كرمان" في كوتاهية فحُجزَ هناك ولم يستطع الخروج منها إلى أن استطاع بعد ذلك أن يحرره ويفك أسره أخيه محمد جلبي^(١)، وكان عيسى قد استقر في "باليكسير" و"بورصة"، ومحمد جلبي الذي وطد مقامة في "أماسيا" و"توقات" و"نيكحصار" و"سيواس"، وعرض محمد جلبي تقسيم الأناضول فيما بينه وبين عيسى حقناً للدماء فرفض؛ مما كان لا سبيل من المواجهة بين الفريقين^(٢)، وكان سليمان في ذلك الوقت مكثفياً بمساعد عيسى على أخية محمد دون تدخل بقواته بشكل فعلى^(٣)، وحدثت الموقعة بين الفريقين عند "أولوباد" التي هزم فيها عيسى الذي فر هارباً والتجأ إلى الإمبراطور البيزنطي الذي سلمه لأخيه الأكبر سليمان في "أدرنه"، ثم سعى لإعادته مرة أخرى إلى الأناضول ليواجه محمد جلبي كي لا ينفرد بالحكم، وفي ذلك الوقت سعي محمد جلبي إلى فك أسر أخيه موسى الذي لدى الكرمان كي يساعده في حربه ضد إخوته^(٤)، إي أن الوضع في ذلك الوقت محتدم بشدة وإلى أقصى الدرجات، والذي نحمد الله عليه أن تيمور لذك انشغل بحملته على الصين مما ابتعد عن الدولة العثمانية إذ كان لديه القدر الكافي للقضاء عليها تماماً، وكأن الله أراد أن يمنح هذه الدولة فرصة أخرى ومنحة جديدة لتساهم في نشر دين الله تعالى وتستكمل مسيرة الفتوحات.

اشتعال الصراع:

أصبح الوضع الآن بين جبهتين بين الأربع إخوة، وكل جبهة تعادي الأخرى وتتمني لها الموت التام لبسط السيطرة والنفوذ، وإن كان طائفة العلماء كانت تدعم محمد جلبي لأنه لم يخنع

(١) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٣٤.

(٢) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٣٤.

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٧٥.

(٤) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٣٤.

ويخضع مثل أخيه سليمان سواء للصليبيين أو لتيمور لنك، وبالتالي كان أملهم في إعادة الأمجاد مرة أخرى يتمثل في تمكين محمد جلبي من الحكم.

ونظراً لانتصار محمد جلبي على أخيه عيسى الأمر الذي أقلق سليمان بشده مما جعله يجهز جيشاً وأرسل أخيه عيسى على رأسه، إلا أنه مُني بهزيمة جديدة، مما جعله يهرب إلى "إسفنديار بك" الذي حصل على دعمه ضد أخيه وعاد الكرة مرة أخرى ولكنه مُني بهزيمة جديدة فالتجأ إلى الكيرمان إلا أن الإخفاق كان حليفه فوجه شطره إلى "ابن قره مان" ولكن عند عودته قبض عليه وقتل عام ١٤٠٥ م. قام محمد جلبي بإعداد جيش جرار ولي قيادته إلى أخيه موسى وجعله موجه لمحاربة سليمان الذي هزم موسى ولكنه عاد مرة أخرى فانتصر عليه وقتل موسى أخاه سليمان خارج أسوار أدرنه، وبعدها أغار على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم عن الطاعة وقاتل "سيجسموند" ملك المجر^(١) وهنا حدث أمر في غاية السوء إذ دخل الطمع في قلب موسى الذي رأى نفسه ينتصر من مكان لآخر بالجند والجيش الذي منحه إياه محمد جلبي إذ أراد أن يستقل بالأمر لنفسه.

فتوجه موسى -الذي أراد أن ينتزع البلاد في القسم الأوروبي لنفسه- إلى القسطنطينية فحاصرها ليفتحها أيضاً لنفسه؛ فاستجد ملكها بالأمير محمد جلبي الذي جاء مسرعاً لمحاربته ورفع الحصار على المدينة وبالفعل رفع الحصار وتحالف مع القسطنطينية وأمير الصرب وبثوا الدسائس في جيش موسى الذي خانه أغلب قواده وسُلِمَ إلى محمد جلبي الذي قام بقتله عام ١٤١٣ م^(٢)، وبذلك بسط محمد جلبي سيطرته على الدولة العثمانية من جديد وبدأ في مرحلة لم الأجزاء المفتتة، وهي من أصعب المراحل في ظل هذا الوضع المأسوي؛ ولذلك اعتبر المؤسس الثاني للدولة العثمانية بعد عثمان ابن أرطغرل، إذ أنه أعاد الدولة من الشتات مرة أخرى.

(١) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١١٦، ١١٧.

(٢) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١١٧.

وقفه:

إن الدولة العثمانية مرت بفترات من الضعف والفتور وإن كانت تعد هذه الفترة من أخطر الفترات التي مرت في حياة هذه الدولة العظيمة حيث كان يتجاذب أطرافها عدة أمور في آن واحد حيث الهزيمة الساحقة في موقعة أنقرة من جانب، ومؤامرات الأعداء من جانب آخر، ناهيك عن عصيانات ترفع وتشردم الدولة وموالاة حكامها لتيمور لنك، والخيانات الداخلية والعمل للمصالح الشخصية من قبل الوزراء والأمراء، ولكن الأخطر من ذلك كله هو الصراع على السلطة الذي ما إن اشتعل في بلد ما مهما كانت قوته فلا ينتهي إلا بتدمير وخسائر فادحة لهذه الدولة.

فحمد جلبي سيطر على مقاليد الأمور في نهاية الأمر إلا أن التساؤل الذي لابد أن يسأل هنا كم هي الخسائر التي منيت بها الأمة الإسلامية بسبب هذا الصراع الذي دام عشر سنوات وأزيد بأشهر؟

فسنجد أن الخسائر لا تعد ولا تحصى حيث قاتل الأخ أخاه وفتح الباب على مصراعيه للأعداء بالدخول إلى عمق الأراضي الإسلامية بدعم القادة المسلمين ومعرفة أدق وأخطر أسرار الدولة في وقت كان لابد من التكاتف والوقوف في صف الأمة الإسلامية لا في صف الأهواء الشخصية، فسبحان الله كانت الدولة العثمانية في عهد بايزيد على أعتاب القسطنطينية ولكن لم تفتح له بل انهزم بعد ذلك في موقعة أنقرة وتشردمت الدولة بالكامل بعد أن كانت في أوج قوتها، بل ولم تفتح أيضا على يد موسى الذي حاصرها لنفسه ولمجد شخصي.

كما لو أن الله عز وجل يريد أن يبين ويوضح أن هذا الجيش بهذا التكوين الذي فيه من الجند النصارى من الدول التابعة للدولة العثمانية والأمراء الكرماء وأبناء بايزيد، فهؤلاء لا يصلحون لفتح في ذلك الوقت، إذ أن الخبث منتشر في النفوس، ولا يمكن الفتح إلا بعد التنقية والتصفية ليميز الله الخبيث من الطيب، ثم الاختبار ليكونوا أهلاً له، وبالفعل تفتح المدينة على يد محمد الفاتح بجيش قيل في حقه نعم الجيش ونعم الأمير وتلكم الشهادة من خير البشر وهو رسول الله -صلي الله عليه وسلم-.

خلاصة القول: أن الأمة الإسلامية الآن لا تصلح لأن تحصل على أي نصر سواء بتحرير القدس الأسير أو حتى بتحرير المدن والبلاد الواقعة تحت الاحتلال أو تحت الوصاية، وذلك لأن هذه الدول محتلة من نفسها ومن حكامها التابعين للغرب، ناهيك عن كون الشباب في حالة لا تصلح لأن يحرروا متراً واحداً، إذ العقيدة مذبذبة والنفوس مشتتة والمناهج المراد اتباعها بعيدة عن الإسلام، والهوية ضائعة فأني يأتي النصر.

فالنصر يحتاج إلى تنقية النفوس أولاً وتركيتها لتتقرب وتتعلق بالله وحده فهنا يأتي النصر دون الاهتمام بكم العدة أو العدد، ولكن أعدوا لهم ما استطعتم، فهذا هو الإعداد الأولي -إعداد النفوس لتتعلق بالله وحده ثم يلي ذلك الإعداد الحربي.

السلطان محمد جلبي:

بعد أن انتهى أمر موسى بن بايزيد خلت الساحة لمحمد جلبي الذي أصبح السلطان للدولة العثمانية بلا منافس بعد مرور فترة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة سمحت بانتشار الفتن وأبرزها وأخطرها كانت فتنة "بدر الدين ابن إسرائيل"، ناهيك عن التدخلات التيمورية في تقسيمات الدولة وتفتيتها إلى أشلاء.

لذلك عمد محمد جلبي إلى إطفاء نار الفتنة أولاً فقام بإخماد وقتل "بدر الدين ابن إسرائيل" الذي ادعى النبوة ووصل به الأمر أن صار له أتباع؛ مما سمح له بالقيام بثورة على الدولة العثمانية، وكانت قوية بالدرجة التي تفتك بالدولة نهائياً وخصوصاً وهي في مرحلة من الضعف الشديد، إلا أن الله تعالى قيد السلطان محمد جلبي ويسر له بأن فتك بهذه الفتنة الشديدة وخرجت منها الدولة بقوة أكثر مما سبق.

قام محمد جلبي باتباع سياسة حكيمة في التعامل مع الوضع الحساس الذي كانت تمر به الدولة، فهو يعلم جيداً أن المقدرة العسكرية منهكة وخصوصاً بعد أن كانت الدولة في حروب داخلية لمدة عشر سنوات بعد موقعة أنقرة؛ ولذلك كان حكيماً في تصرفاته العسكرية والسياسية فصار بسياسة الشدة والحزم مع الحكمة، دون أن يقلل من شأن الدولة أو الخضوع لتيمور لنك أو للغرب الصليبي ولذلك اتبع عدة أمور:

١- بالنسبة للأرضي التي انتزعها تيمور لنك وأعادها للتركمان وأمرهم عليها ليشنت الدولة فلم يدخل محمد جلبي في صراعات معهم بل قام بالدخول في صداقات حتى لا يكونوا أحلاف ضده^(١).

٢- وطد العلاقات مع الروميلي فاستقبل سفارات راجوزة والبندقية وجنوة وجدد معاهدات تجارية معهم، كما استقبل سفراء الصرب والأفلاق الذين أتوا للتهنئة بمقام السلطنة وأعاد للإمبراطور المناطق التي كان سليمان قد أخذها^(٢).

٣- وبعد أن اطمأن للوضع الذي أصبح شبه مستقر بدأ في انتهاز الفرص لإعادة الملك وتوحيد الدولة من جديد فكان لا يتغاضى عن التجاوزات التي تحدث من الممالك المحيطة به سواء في الأناضول أو في الروميلي حيث كان السلطان ينتهز فرصة الاعتداءات ويشن حملة على تلك المناطق ويسرع بتطبيق العقوبات السريعة وذلك بضم المنطقة ضمّاً مباشرة لأمالك الدولة العثمانية، أو بفرض النفوذ العثماني عليها وإعلان تبعيتها من جديد ومثال ذلك عندما تجاوز "جنيد ابن أيدين" حدود الدولة معتدياً على الوالي العثماني "بأيدين إيلي" شن محمد جلبي حملة عليه قادها بنفسه وانتهت بحصار أزميز وفتحها مما فتح الباب لسيطرته على بحر إيجه، مما جعل قوته تظهر هناك فجعل أمراء جزر "فوجه" "وميدلي"^(٣) "وساقيز" التابعين لجنوه أن يقبلوا النفوذ العثماني ودفَعوا الخراج السنوي^(٤)، ويعد ذلك تصرفاً في منتهى الحكمة والذكاء فهو يعيد الأمالك بغطاء دولي (بمسميات اليوم) أو بشرعية من الأعداء الذين لن يعترضوا ذلك لأن هذه المناطق تعتبر قد خالفت الاتفاقيات المبرمة ولذلك تستحق توقيع العقوبات عليها، بل

(١) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٣٩

(٢) المرجع السابق.

(٣) جزيرة تقع في بحر إيجه.

(٤) المرجع السابق.

ولا يمكن لهذه الدول الصليبية أو المناطق التركمانية أن تعترض على ذلك وإلا اعتبرت مخالفة للاتفاقيات المبرمة.

ومن ذلك أيضا تأديبه "المحمد ابن قرمان" الذي كان قد انتهر فرصة الصراعات والفتن في الدولة العثمانية وقام بمهاجمة الدولة حتى وصل إلى بورصة وحاصرها ونهبها، فشن حملة شارك فيها بعض من بني كيرمان وأحكم الحصار على ابن قرمان مما اضطره لطلب الصلح الذي نقضه مرة أخرى، فعاد له محمد جلبي من جديد وهزمه هزيمة قاسية وأجبره على توقيع معاهدة تبعية جديدة للدولة العثمانية تنازل بمقتضاها على "يكي بازار" و"سيوري حصار" و"واقشهر" و"بكشهر" و"سديدشهر" للعثمانيين وارتضى بدفع الخراج السنوي عن الأراضي الموجودة تحت يده بل والمشاركة بفرقة عسكرية عند الضرورة^(١).

الاستفادة من صراعات الآخرين:

من الذكاء والحكمة إذا كنت في مرحلة من الضعف أن تستفيد من أخطاء الآخرين، فعندما نشب صراع بحري بين الدولة العثمانية والبنادقة وانتهى بالنصر للبنادقة، استغل محمد جلبي الصراع الذي حدث بين "أمير الأفلاق ميرجه" ومنافسه "دان" الذي طلب مساعدة محمد جلبي الذي لى النداء وقدم مساعدات انتهت بالنصر له وإعادة القوة للعثمانيين مرة أخرى بل ودفع الخراج السنوي المتأخر وزيادة قيمته، وكذلك الحال لما نشب صراع بين "إسفنديار ابن جاندار" وابنه قاسم" بسبب تقسيم أملاك الإمارة فتدخل محمد جلبي في الصراع الذي انتهى بالاعتراف بسلطة العثمانيين على هذه المناطق^(٢).

(١) المرجع السابق ص ١٤١

(٢) المرجع السابق ص ١٤٢-١٤٣.

هذا إن دل إنما يدل على حنكة وذكاء حيث بهذه الطريقة استطاع أن يعيد كثير من أملاك الدولة التي أخذت منها بالإضافة إلى استعادة هيبة الدولة العثمانية داخلياً وخارجياً، فداخلياً ونظراً لأن الأوضاع تدهورت بشدة نتيجة الحروب والفتن الداخلية أصبحت هيبة الدولة ضعيفة، وخارجياً كانت الدولة العثمانية محط طمع للجميع.

ولذلك كان محمد جلبي يقوم بهجمات من وقت لآخر ويستعيد الأملاك دون الخوض في حروب مفتوحة كبيرة حتى لا ينهك الدولة والجيش بما هو فوق طاقته، الأمر الذي جعل الدولة مهابة وقادرة على صد أي هجمة تحدث وتواجهها بقوة، بل ويعلم الجميع أن العقوبات تكون قوية إلى أقاصي الدرجات في حال حدوث إي اعتداء على أملاك الدولة، فلذلك لابد من التعامل بحذر شديد مع الدولة العثمانية.

وفاته:

بعد أن بذل -رحمه الله- قصارى جهده في محو آثار الفتن ومحاولاته المستميتة لإعاده هيبة الدولة، بل لإعادة الدولة من الأساس وشروعه في إجراء ترتيبات داخلية تضمن عدم حدوث شغب داخلي في المستقبل وبينما كان السلطان في كل هذا شعر بدنو أجله فدعى الباشا بايزيد وقال له: "عينت ابني مراد خليفة لي فأطعه وكن صادقاً معه كما كنت معي. أريد منكم أن تأتونني بمراد لأنني لا أستطيع أن أقوم من الفراش بعد، فإن وقع الأمر الإلهي قبل مجيئه حذار أن تعلنوا وفاتي حتى يأتي"^(١).

وتوفي السلطان محمد جلبي عام ١٤٢١م وقد اعتبره المؤرخون العثمانيون بمثابة نوح الذي حافظ على سفينتهم عندما هددهم الغزو التتري^(٢).

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٩٣.

(٢) عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٨٦.

وخوفاً من حصول ما لا يحمد عقباه لو عُلم بموته قبل وصول مراد اتفق إبراهيم وبايزيد وزيرا السلطان محمد على إخفاء خبر وفاة السلطان وادعيا أنه مريض إلى أن حضر مراد بعد ٤٣ يوماً واستلم مقاليد الحكم^(١).

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٩٣.

ثورة بحر الدفن بن إسرائيل
على الحولة العثمانية

بدر الدين محمود بن اسرائيل (الزنديق)

كثيرٌ هي تلك الأفكار الفاسدة التي تنتشر في المجتمعات الإسلامية إما نتيجة لتحرك أصحابها، أو في الغالب الأعم بإيعاز من الأعداء، وقد كان من عادة الخلفاء الأمويين وكذلك العباسيين - وخصوصاً الأوائل منهم- من بعدهم هي التصدي بقوة وحزم، ودون هواده في هذا الأمر، فلا يسمح بأي حال من الأحوال بنشر فكرة مخالفة للإسلام مهما حدث ويؤخذ على أيدي الفاعلين بأحكام الإسلام، فكانت المجتمعات الإسلامية في ذلك الوقت لا تجد فيها زندقة، ولا أفكار علمانية متردية، وإن وجدت يحاربها الحكام بكل قوتهم، وليس مثلما نراه الآن من النطق والتصريح بمثل هذه الأفكار علناً وجهاً نهاراً، بل وينادي بها الحكام المسلمون اسماً لا فعلاً.

ومع توسع البلاد وانتشار العباد، وتطور الأحداث وضعف الدولة الإسلامية العباسية، وانتشار الزحف التنكري وكذلك الحملات الصليبية، وغيرهم من الأعداء كاليهود الذين يبثون الدسائس والمؤامرات في الدولة الإسلامية بقصد اسقاطها، فبفعل كل هذا بدأت كثير من الحركات تظهر في البلاد الإسلامية، ولا تجد القوة التي تردعها، وإن كان الأمر بدأ يختلف مع ظهور قوة الدولة العثمانية، إلا أنه ترنح قليلاً، في أواخر عهدها نتيجة الضعف والهوان الذي أصابها، فبدأت الأفكار الفاسدة تدخل في عقول المسلمين، والتي على إثرها عزل السلطان عبد الحميد، في أواخر عهد الخلافة ثم تلا ذلك بالسيطرة العلمانية على مقاليد الحكم ثم -سقوط الخلافة الإسلامية-.

فخلاصة القول أن الأفكار الفاسدة دائماً تحاول أن تُبَث من قبل الأعداء في المجتمع لإفساده، ومن هذه الحركات الفاسدة التي حاولت الانتشار في المجتمع الإسلامي وتستغل الضعف الذي لحق به كانت حركة "بدر الدين الزنديق".

تعقيب قبل البدء:

"فبدر الدين محمود ابن اسرائيل" المسمى في كثير من المراجع التاريخية "بالشيخ بدر الدين ابن محمود" ولا أعلم كيف يطلق عليه لقب شيخ! فالأولى أن يناله قوله الزنديق بدر الدين، فهو كما سنرى فاسد مفسد وضال مضل، وانطلاقاً من هذا سنستخدم اسم الزنديق بدر الدين بدلاً من كلمة الشيخ، ذلك لأن هذا مما نعييه على المؤرخين وخصوصاً مؤرخي العصر الحالي، حيث أنهم ينقلون دون إبداء الآراء الشرعية في الأمور، أو التحقق من بعض الروايات التي تنشر، أو حتى عندما تذكر الروايات لا يذكرون ضعفها أو علتها.

مولده:

ولد هذا الفاسد، في عهد مراد الأول، وكما يذكر صاحب كتاب الشقائق النعمانية^(١):

فالشيخ^(٢) (الزنديق) بدر الدين محمود ابن اسرائيل المشهور بابن قاضي سماونة ولد في قلعة سماونة في بلاد الروم إحدى قرى أدرنه التي تقع في الجزء الأوروبي من تركيا، وكان أبوه قاضياً لها وأميراً على عسكر المسلمين فيها، وكان فتح تلك القلعة على يديه، وكانت ولادة بدر الدين في زمن السلطان مراد الأول^(٣).

تلقيه للعلم:

وكم من ذو علم أخذ علمه لا لغاية العلم، إنما لهوى في نفسه، وداء في عقله، ولعجب أمام الناس، أو لدنيا يصيبها، أو لكيد في المسلمين، وبث الفتن بينهم، وليس كما يجب أن يكون طالب العلم بإخلاصه ونيته ابتغاء مرضات الله، بتزكية النفس، والعمل بالقرآن، وعلى رأس

(١) كتاب الشقائق النعمانية وهو لصاحبه طاشكيري زادة المتوفى ٩٦٨ هـ.

(٢) ربما كان صاحب الشقائق الذي يذكر لفظة الشيخ نظراً لأنه أرخ له قبل أن تضح أفكاره الهدامة والتي ظهرت بعد ذلك.

(٣) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٨٩.

هؤلاء كان المدعو بدر الدين الذي تلقى العلم على منهج التصوف، الذي كان قد انتشر في الأراضي العثمانية.

وقد تلقى العلم في صباه عن والده وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى المشهور بـ "الشاهدي"، وتعلم الصرف والنحو عن مولانا^(١) يوسف ثم ارتحل إلى الديار المصرية وقرأ هناك (أي زامل) مع "السيد الشريف الجرجاني"، على مولانا "مبارك شاه" المنطقي المدرس بالقاهرة وقرأ على السيد الجرجاني وعلى الشيخ "أكمل الدين البابيوردی"^(٢).

وهذا ما يدل على تلقيه العلم فهو لا يتكلم بجهل ولكن بعلم وإن كان قد حرفة على هواه كما سنرى لاحقاً^(٣)، وبدأ يُدخل الدسائس فيما يتكلم فيه كيفما يريد وكيفما شاء الأعداء، ومن عجب الأمور أن من تعلم على يد الزنديق هذا كان "سلطان مصر المملوكي برقوق"^(٤).

(١) كلمة مولانا، ليس بها شيء، ولكن في هذا المقام، يقصد بها المتصوفة.

(٢) عبد المنعم هاشم، الخلافة العثمانية ص ٨١، ٨٠.

(٣) وهذا ما يعتمد إليه الكثير الآن في الإعلام العربي وفي الاعلام الخاص بالدول المسلمة، حيث يخرجون شخصيات من المزابل، ثم تلمع وتوضع حولها هالة كبري، وعن طريقة يتم تحريف الاسلام والطعن فيه بأنكار البخاري ومسلم وسب بالصحابية ونشر روايات باطلة وأحاديث منكرة على أساس كونها صحيحة ثم يطعنون الإسلام عن طريقها، ويشوهون رجالاته والمدافعين عنه، والتقليل من شأن علماء الإسلام، وشيوخه ودعاته الحق، فينتأثر الكثير بمثل هذه الكلمات الهدامة التي يقولها هؤلاء.

(٤) المرجع السابق ص ٨١.

البداية:

يقال أنه قد أصابته الجذبة الإلهية، والتجأ إلى "الشيخ سعيد الأخلطي" الساكن بمصر وقتئذ، وأصبح مريده فأرسله الشيخ الأخلطي هذا إلى بلده تبريز للإرشاد الصوفي^(١)، وهذا مما أدعى حوله في محاولة منه ليكون له شأن بين الناس^(٢).

وفى تبريز التي كانت البداية، حيث لما وصل هناك، وقد جاء في هذه الأثناء تيمور لنك، فُيذكر أنه أعطى بدر الدين مالاً جزيلاً بالغاً إلى نهايته^(٣).

وكان بدر الدين يقوم بعمل مناظرات ونقاشات علمية مع العلماء الإيرانيين وعاش مدة في قزوین المعروفة بشيوع الباطنية^(٤) فيها وبعد موت أستاذه حسين الأخلطي عاد إلى مصر وخلفه في رئاسة زاويته^(٥).

ثم ترك الكل ولحق بـ "بدليس" ثم سافر إلى مصر ثم حلب ثم قونية ثم إلى تيره من بلاد الروم، ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز وهو نصراني فأسلم على يد هذا الزنديق^(٦)، أو هكذا ادعى، مما جعله ذائع الصيت آنذاك.

(١) عبد المنعم هاشم، الخلافة العثمانية ص ٨١
(٢) وهذا ليس بغريب فالمتصوفة يدعون مثل هذا الكلام ليصل بعضهم ليكون شيخ طريقة وقد رأيت ذلك بعيني في مصر، حيث ادعى أحدهم أنه يري الله دائماً، وروح الله تتجسد فيه وأخذ يردد ذلك حتى أصبح شيخ طريقة من الطرق الصوفية.

(٣) المرجع السابق ص ٨١

(٤) من أخطر فرق الشيعة، ذلك لأن من عقيدتها القتل بشراسة.

(٥) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٨١.

(٦) المرجع السابق ص ٨١ بتصرف.

الأوضاع قبل انطلاق دعوته:

كانت الأوضاع متهينة جدا لانطلاق دعوة فاسدة مثل هذه، فقد حدث أن انتصر تيمور لنك في موقعة أنقرة التي أحدثت بلبلة في البلاد والانشقاقات التي تلت ذلك، ومحاولات الاستقلال عن الدولة على إثر الهزيمة الساحقة فيها ووقوع بايزيد يلدزم (الصاعقة) في الأسر، وتشتت الأبناء من بعده، فكلٌ يريد أن يظفر بالملك لنفسه، مما جعل الفرصة مواتية؛ فالتحق بدر الدين بجيش موسى ابن بايزيد، وكما قلنا إنه كان ذائع الصيت فعينه موسى قاضياً بعسكره، ولكن لما انهزم موسى أمام أخيه محمد بن بايزيد، كان نصيبه هو الحبس مع أهله وعياله ببلدة أزنيق^(١)، ثم بعد ذلك وضع تحت الإقامة الجبرية مع أهله وخُصص له راتب شهري. لكنه استطاع الهروب من أزنيق إلى "إسفنديار جاندرلي"^(٢)، ومن هنا بدأ بدر الدين محمود ابن اسرائيل يدعو إلى مذهبه الجديد الفاسد العقيدة والمفسد للبلاد والعباد.

مذهبه:

إن العقيدة الأساسية في مذهبه قائمة على المساواة بين الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ولكن ليس من المنظور الإسلامي -وإنما وفقاً لمذهبه هو- فالجميع واحد في درجة الكفر والإيمان دون فرق بين عقيدة التثليث وبين من يجعل الله بخيلاً كاليهود وبين من يوحد الله تعالى، وهذا في حد ذاته كفر بيّن، فالله عز وجل يقول {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيَا يَبِئْهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}،^(٣) ويقول أيضاً: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ

(١) راجع محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، عن الشقائق النعمانية.

(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٨١.

(٣) سورة ال عمران الآية ١٩.

وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١)، فاليهود والنصارى قد كفروا بما أنزل الله.

{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)
قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)
فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)}^(٢)، فهذه كانت العقيدة الأساسية في مذهبه الفاسد المفسد والتي تخالف شرع الله عز وجل تمام المخالفة، كما أوضحنا.

كتاب بدر الدين:

وكان كتابه الذي ألفه خلال حياته وهو واردات -الإلهام- والذي يتضمن أهم أفكاره القائمة على كفریات وهي:

وحدة الوجود، وإنكار كلاً من الجنة والنار، ويوم القيامة، والملائكة والشياطين^(٣).

وفى هذا أيضا إنكار للقرآن الذي يعترف بالجنة والنار ويوم القيامة وكل ما ينكره هو، فما يقوله بدر الدين وما يقوله الإسلام لا يجتمعان أبداً، فالله قد أقر بالجنة والنار، إذ يقول سبحانه:

(١) سورة المائدة الآية ٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات.

(٣) محمد سهيل طقوس، تاريخ العثمانيين ص ٨١.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (١)، وكذلك يقول رب العزة عز وجل في كتابه {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٢)، وقوله تعالى في إثبات يوم القيامة بقسم واضح وصريح في قوله تعالى، {لَا أُفْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} (٣)، وغير ذلك لو فندنا منهجه الفاسد هذا ولكن رغبة منا في إيضاح ما يُذكر بميزان ومنهج رب العزة عز وجل وشرعه الحكيم.

وكذلك مما يبرز فساد عقيدته أنه يُقصرُ الشهادة على الجزء الأول فيها فقط أي يقصرها على "أشهد أن لا إله الا الله"، ولا يعترف بما تبقى منها وهو "محمد رسول الله". (٤)

إضافة إلى المساواة في المال والأمتعة (٥) أي يقارب الاشتراكية الشيوعية، المعروفة لنا اليوم والتي كانت المذهب الرئيسي في روسيا وسقطت عام ١٩٩١م بفشل ذريع.

ووصل الأمر بأتباعه وبه أن وصفوه بالنبوة حيث لم يكن هناك طريق مختصر لجمع المسلمين فاسدي العقيدة، أو ضعيفي الإيمان تحت راية واحدة والتضحية بالغالي والنفيس سوى النبوة (٦)، وألغى رابطة الدين بين أتباعه وأحل محلها رابطة الأخوة، مثلما تفعل عصابات المافيا الروسية أو الصينية أو غيرهم اليوم.

(١) البقرة الآية ٣٩.

(٢) البقرة الآية ٤٢.

(٣) سورة القيامة

(٤) عبد المنعم هاشم، الخلافة العثمانية، ص ٨٢.

(٥) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية ص ١٥٠.

(٦) المرجع السابق بتصرف ص ٨٢.

والواقع أنه كون فلسفة خاصة به تجمع بين الباطنية وصوفية اجتماعية، وغير ذلك مما هو فاسد العقيدة حتى يستطيع أن يستجلب أكبر قدر من حوله.

والمدقق النظر سيجد أن ما يدعو إليه إنما كبير الشبه بلب ما تنتهي إليه الماسونية اليوم، فدعوات الحرية من جميع الأديان وإنه لا رابطة إلا رابطة الإخاء والمساواة بين الأديان والناس فهي دعوات الماسونية الحالية التي تسعى للتمكين والسيطرة على العالم، تحت شعار الحرية والإخاء والمساواة، والتي تنجح الآن في أمور كثيرة حيث استقطاب عدد كبير من زعماء العالم الحالي، سواء النصراني أو للأسف الإسلامي، وذلك عن طريق النوادي الخاصة بها في المجتمعات الإسلامية وهي نوادي معروفة يسهل لمن يبحث أن يجدها وينوه عنها.

الثورة على الدولة العثمانية:

واستعان بدر الدين في نشر مذهبه الفاسد هذا بشخص يدعى (بير قليججه^(١) مصطفى^(٢))، وآخر يقال إن أصله يهودي واسمه (طور لاق كمال^(٣))، وعلى هذا انتشر مذهبه بسرعة كبيرة، وكثر عدد تابعيه، حتى خيف على المملكة العثمانية من امتداد مذهبه^(٤).

وبدأ بدر الدين يتزعم الثورة على الدولة العثمانية، ولكنه انتظر حتى إنهاك الدولة ليعطي الإشارة لاتباعه في القضاء على بني عثمان بهدف امتلاك العالم وتقسيمه بين مريديه -كما يدعي هو- بقوة العلم وسر التوحيد وإبطال قوانين أهل التقليد ومذاهبهم وتحليل بعض المحرمات^(٥)، وعلى هذا وجد دعماً قوياً من أعداء الدولة العثمانية، فكان على رأس الدعم من

(١) بير قليججه: وتعني صاحب العلم.

(٢) هو نصراني دخل إلى الاسلام اسماً فقط بهدف مساعدة بدر الدين.

(٣) هو يهودي دخل إلى الاسلام للطعن فيه ومساعدة بدر الدين مثله مثل يهود الدومة.

(٤) محمد فريد، الدولة العثمانية العلية ص ١٥١.

(٥) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٨٢.

تيمور لنك ومن اليهود والنصارى، وأعداء الإسلام بقوة وحسم وحزم، وذلك مثلما يحدث الآن من الدعم الخارجي لكل مارق عن دين الله.

وبدأت الثورة حينما أوعز إلى طورلاق بالبدء في مغنيسيا وأيديين، وفي ذات الوقت راح بيرقليجه مصطفى يجمع الأتباع حوله في جبل أستيلاريوس عند الطرف الجنوبي من خليج أزمير في "قره بورون" وأغار على المناطق المجاورة^(١)، فأحدث السلب والنهب والتدمير والتخريب. وهذا ما دفع السلطان محمد بأن يرسل وزيره الأول "بايزيد باشا" لمحاربة هذه الفئة فصار إليها وقابل مصطفى في ضواحي أزمير فحاربه في موقع يقال لها "قرة بورنو" وقهره وأخذه أسيراً، ثم قتله وكثيراً من أتباعه^(٢)، ثم تحول إلى مغنيسيا بصحبة ولى العهد الأمير مراد، حيث تصدى لطورلاق فهزمه وقبض عليه وصلبه^(٣).

وهكذا أخمدت الثورة بعد انتشارها بشكل خطير ما دفع بدر الدين إلى الفرار من أزنق التي يحتمي بها إلى "دوبروجة"، عن طريق البحر الأسود وأستقر في "أورمان البلغارية" ليدبر الثورة منها، ومما يُعلم أن هذه المنطقة مأوى للباطنية، وتجع بأتباع "بابا إسحاق" الذي قاد ثورة باطنية مسلحة ضد السلجوقية في عام ١٢٤٠م، فتصدي له محمد الأول هناك بنفسه وهزمه.

نهاية الزنديق:

بعد هزيمته الساحقة على أيدي السلطان محمد الذي لم يستطع أن يحصل عليه إذ أنه هرب بعد المعركة، إلا أن اثنين من قادة بدر الدين قد خاناه لينجوا بنفسيهما فسلموه إلى السلطان محمد

(١) المرجع السابق ص ٨٣.

(٢) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية.

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٨٣.

جلبي رحمه الله والذي قام بإعدامه^(١)، وبذلك قد انتهت هذه الثورة وهذه الفتنة التي كادت أن تفتك بالدولة العثمانية بالكامل في وقت كانت الدولة في حالة من الوهن والضعف، بل كادت أن تؤثر في العقيدة الإسلامية في نفوس كثير من المسلمين، فجزى الله السلطان محمد جلبي وبنى عثمان خيراً على هذا الصنيع.

وقفه:

إن الأفكار الفاسدة التي تروج في الدولة الإسلامية، لا يجوز بأي حال من الأحوال السكوت عليها، أو الادعاء بأن هذا من قبيل حرية الرأي، ولذلك نترك كل قائل ليقول ما يشاء وكيفما يشاء وقتما شاء.

فحرية الرأي نعم مكفولة ولا بد منها، بل تكميمها ظلم وجور لا يرضى به الله عز وجل، حتى إن الله يأمرنا بذلك في كتابه العزيز فقال: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ ۖ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا} (٢) ولكن هذا الحق وهذه الحرية وهذا الرأي مشروط بالألا يتعرض للعقيدة في شيء، أو أن يمس صحيح الدين في شيء، وإلا عد ذلك زندقة لا بد من مواجهتها، وإذ لم نفعل ذلك عد تقصيراً في حق الله، وخذلانا لدين الله نحاسب عليه يوم القيامة.

ولذلك كنا نعرض أفكار الزنديق هذا ثم نرد عليها ولو بإيجاز موضحين فساد هذا المنهج ومدى مخالفته للإسلام.

(١) المرجع السابق بتصرف ص ٨٣.

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٩.

وكل فكر يخالف العقيدة فهو درب من دروب الهدم، وتركه كبيرة، ومواجهته فرض،
واحذروا فإن منكم سماعون لهم.



السلطان مراد الثاني

ولد السلطان مراد الثاني عام ٨٠٦ هـ وتولى الحكم بعد وفاة والده محمد جلبي عام ٨٢٤ هـ - ١٤٢١م، وقد كان عمره آنذاك لا يزيد عن ثمانية عشر عاماً^(١).

وقد كانت الدولة العثمانية في عهده ما زالت تعاني من آثار هزيمة موقعة أنقرة ولذلك كانت الدولة رغم أنها استعادت جزء كبير من قوتها في عهد محمد جلبي إلا أنها كانت بحاجة إلى رجل يكمل المسيرة ويمهد الطريق لمن يأتي بعده لفتح القسطنطينية، وبالفعل فقد كان مراد الثاني رحمه الله هذا الرجل.

فعند تولي مراد الثاني الحكم كان أمامه أمران؛ الأول أن يتجه نحو أوروبا التي تنتهياً وتحاول من حين لآخر انتزاع الأتراك من أوروبا نهائياً، والثاني نحو استعادة نفوذه الكامل في الأناضول والروميلي، إذ بوفاة محمد جلبي الذي أدب الكثير في هذه المناطق سطعت علامات تفكك في جناحي الدولة من جديد، ولذلك أمضى مراد الثاني فترة حكمه في توطيد السلطنة والتمكين لها في الداخل والخارج^(٢).

فراح "ابن قره مان" يستولي على أراضي إمارة حميد التي بها أخو السلطان مراد الثاني، وكان مراد مضطراً لقبول الوضع حتى لا يفتح على نفسه باباً للحرب حالياً ولذلك التزم سياسية المهادنة، وأعلن "ابن منتشا" العصيان واستعاد أبناء أيدين وصاروخان بعض الأراضي الأمر الذي أجبر مراد على تقديم التنازلات في الأناضول لتهدئة الأوضاع^(٣).

(١) عزتو يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان ص ٤٧.

(٢) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٤٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٤٨.

ومن هذه الأوضاع كان لابد أن يؤمن الدولة داخليا قبل أن يتطرق للمنازعات الخارجية ولذلك هادن الدول الأوروبية فأقام معاهدة مع المجر مدتها خمس سنوات كما اقترح على الإمبراطور البيزنطي "مانويل" تجديد المعاهدة التي أبرمها معه والده محمد جلبي، ولكن مانويل اشترط أن يقدم مراد الثاني اثنين من إخوته كرهينة، إلا أن مراد الثاني رفض هذه الإهانة، فهدده مانويل بإطلاق سراح عمه "مصطفى" أو هكذا يدعى بأنه عمه وابن بايزيد وأخ لمحمد جلبي مطالبا بالعرش، وبذلك فشلت مساعي التهدة مع الإمبراطور البيزنطي^(١).

كان الوضع داخل القسطنطينية مهدداً لإقامة الحرب على الدولة العثمانية وخصوصاً وأن ولي العهد يوحنا الثامن معارض للصلح مع مراد الثاني الأمر الذي انتهى بإطلاق سراح مصطفى ابن بايزيد بعد أن كتب على نفسه وتعهد بإعادة جميع ما كان للدولة البيزنطية من مدن استولت عليها الدولة العثمانية، والواقعة على سواحل بحري مرمرية والأسود بالإضافة إلى تساليا، وأرسل معه الإمبراطور عشر سفن حربية بقيادة ديمتريوس لاسكارس^(٢).

بدء الحرب بدعم من القسطنطينية:

إن إطلاق سراح مصطفى هذا كان نذيراً بانطلاق أرباب المصالح بالتحرك؛ إذ انتفضت في ذلك الوقت الإمارات الأناضولية في محاولة السعي للاستفادة من التغيير السياسي القائم، واعترفت بشرعية مصطفى بل وضرب حاكم منتشا الذي أعلن استقلاله النقود باسمه، أي إن الأمر اشتعل لأقصى الدرجات بل ومهدداً بسقوط الدولة وخصوصاً وأن الأعداء يتواصلون سوياً لإسقاط مراد، وتعيين مكانه لعبة الإمبراطور البيزنطي مصطفى المسمى مصطفى جلبي^(٣).

(١) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٢.

(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٨٦ - محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٢.

(٣) راجع محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٢، ١٢٢ بتصرف.

وعلى هذا الوضع اضطر مراد إلى تصفية مشاكله مع مصطفى وبدء مواجهات ولو غير مباشرة مع أوروبا التي تدعم الثورة على مراد الثاني، فأرسل جيشاً بقيادة الوزير بايزيد باشا، ولكن مصطفى جلبى استطاع أن يستميل بعض جنوده الذين خانوا بايزيد باشا وقتل، مما يعني هزيمة جيش مراد الثاني وانتصار مصطفى مدعياً أحقيته بالعرش.

تابع مصطفى زحفه على مدينة أدرنه بعد تحالفه مع "قرة جنيد" حاكم أزميز الذي ما فتئ يعارض التوسع العثماني في إعادة الإمارات التركمانية بالأناضول وهاجما مدينة غاليبولى واستوليا عليها ثم أكمل المسير نحو أدرنه ودخلها بالفعل وجلس على العرش، واعترف به الجيش الروميلي وحجته أنه طالما العم موجود فلا حاجة لابن الأخ^(١)، ولا نعلم كيف يقتعون أنفسهم بمثل هذه الحجج التي تجيز لهم الخروج عن السلطان وعصيانه بما لا يجوز شرعاً.

وخلت بيزنطة في هذه الأثناء على الخط السياسي مستغلة تراجع قوة السلطان مراد الثاني فعرض عليه مقابل رفع الدعم عن مصطفى أن يتنازل مراد عن مدينة غاليبولى لكن السلطان مراد رفض العرض ثم جهز جيشاً كبيراً بلغ تعداداه مائة وخمسة وعشرين ألف جندي وخرج على رأسه للتصدي لمصطفى الذي عبر الأناضول واتباع مراد سياسة الدهاء إذ استقطب حلفاء مصطفى وبخاصة قرة جنيد وأمراء الحدود وبالفعل تخلف البعض عنه وعادوا على أدرنه في حين اصطدم مع بقية جيش مصطفى عن أولوباد وتغلب عليه وهزمه هزيمة كبيرة فر على إثرها مصطفى إلى الأفلاق، ثم عاد عبر المضائق التي حاول الإمبراطور البيزنطي إعاقته فيها، وقبض على مصطفى جلبى وسلم إلى مراد الثاني الذي صلبه في أدرنه^(٢)، وبذلك انتهت الفتنة التي اشعلتها بيزنطة في محاولة تدمير الدولة العثمانية.

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٨٦.

(٢) ازوتونا تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ١٢٠-محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٢، ١٢٣ بتصرف.

ولكن هذا الأمر أكد على عدة أمور أولها أن بيزنطة لن تفي بعهده ولن تتوانى عن إخراج الأتراك من أوروبا، وكذلك أن أمراء الحدود والكرمان إنما هم أمر في غاية الخطورة ويهدد قيام الدولة، ولذلك لابد من وضع حد لهذه الأمور حتى تستقر الدولة وتنهض من جديد.

موقف القسطنطينية بعد هزيمة مصطفى:

حاول إمبراطور القسطنطينية تهذئة السلطان مراد الثاني ضده وخصوصاً بعد ما فعله من مساعدة الانقلاب على الحكم ضده بسفن وفرق عسكرية فبعث بتهنئة إليه وبانتصاره ويعتذر فيها عما بدر منه من سوء.

لكن مراد الثاني لم يكتثر له وسار بجيشه عام ١٤٢٢م الذي قدر حوالي خمسين ألف مقاتل نحو القسطنطينية وحاصرها حصاراً شديداً، إلا أن أمراً قد حدث بأسيا وهو ثورة جديدة نشبت هناك اضطرته لرفع الحصار^(١)

ثورة جديدة على مراد الثاني:

شعر أمراء أماسيا بانشغال السلطان فقاموا بثورة عليه في الأناضول بالإضافة إلى أن مانويل الثاني أغرى مصطفى الذي لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره وهو شقيق مراد الثاني بالخروج عليه، ولقي هذا الأمير مساعدة من الأمراء القرمان والكرميان^(٢).

اشتعلت حدة الأمر إذ حظى هذا الأمير بتأييد واسع في الأناضول فاستغل قوته وحاصر بورصة واضطر مراد أن يتحرك ضده والواقع أنه لم يصمد أمام القوات السلطانية فهرب إلى القسطنطينية وعقد تحالفاً مع الإمبراطور البيزنطي لم تصل بنوده أو تذكر في المراجع وتحصن في كوجالي واستعاد مراد أزنيق، وهنا تخلى الأمراء عن الأمير مصطفى الذي وقع

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٨٧.

(٢) ازوتونا تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ١٢٠، ١٢١.

في أسر مراد الذي أعدمه عام ١٤٢٣ م، وبذلك انتهت الفتنة الداخلية الثانية على عرش السلطنة بفوز وانتصار مراد الثاني^(١).

توطيد مراد الثاني الاستقرار في الأناضول والروميلى:

لم تتردد أي من القوى المناوئة للعثمانيين سواء داخلية في الأناضول أو الروميلى، أو سواء كانت خارجها من محاولات القضاء على الدولة العثمانية إلا أن مراد تمكن من القضاء على هذه المنافسة الأمر الذي أظهر قوته وأنه قوة كبرى لا تهزم بسهولة ويسر مما دفع الإمبراطور البيزنطي من عقد صلح مع مراد الثاني والذي به استعاد العثمانيون الخراج السنوي الذي كان يدفعه الإمبراطور للخرينة العثمانية ويقدر بنحو (٣٠٠ ألف آقجة) كما أعادوا سيطرتهم على المناطق التي كانت قد تركت لبيزنطة في نواحي البحر الأسود وسيلانيك وتساليا^(٢).

بعد هذه الاتفاقية توجه مراد الثاني لإخماد النيران المشتعلة داخلياً فأخضع "إسفنديار بن جندار" الذي استولى على بعض الأراضي التي منحت لابنه قاسم الذي فر هارباً إلى مراد الثاني فجرد حمله ضد إسفنديار وألحق به هزيمة، استولى على إثرها على "قستموني" وباقي قروره سي" وأجبره على إعادة الأراضي لابنه "قاسم بك" وتعهد بدفع خراج كبير للخرينة العثمانية والمشاركة في الجيش العثماني بقوات عسكرية عند الضرورة^(٣).

وفي الأفلاق حاول "دارقولا" حاكم الأفلاق أن يستغل الصراع بين مراد الثاني وإسفنديار وقام بالتجاوز على بعض الأراضي فأصدر مراد أوامره إلى أمير الحدود "فيروز بك" وكلفه بالهجوم عليه ولما انتصر مراد على إسفنديار خاف دارقولا واصطحب ابنه وتوجه إلى أدرنه

(١) ازوتونا تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ١٢٠، ١٢١ - محمد سهيل طقوش تاريخ العثمانيين ص ٨٧.

(٢) سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية ص ١٥٠.

(٣) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٥٢، ١٥١.

معلنا طاعته للسلطان ودفع الخراج المتأخر، ولم يرضى السلطان بأقل من ترك ابنه كرهينه لديه لضمان تنفيذ الاتفاقية، ثم توجه إلى إمارة أيدين ومنتشا الذين ساعدا مصطفى جلبي في الانقلاب على مراد الثاني الذي سار إليهم وقبض أولاً على أمير منتشا وألحقها بالدولة العثمانية ثم توجه إلى "جنيد بك ابن أيدين" وهزمه وضم بلاده نهائياً للدولة وأرسل خلفه "حمزة بك" أمير أمراء الأناضول الذي تمكن من القبض عليه وقتله عام ١٤٢٦م^(١).

وبعد وفاة "محمد بن قره مان" وحدث الصراع على السلطة من أبنائه، استغل مراد الثاني ذلك الأمر وساعد "إبراهيم ابن قره مان" لتمكينه من ملك أبيه مقابل التنازل عن بعض الأراضي كما زوج بناته الثلاثة من أبناء إبراهيم ابن قرمان لتوطيد العلاقات بين الطرفين، وحتى يهدأ باله من هذه الجهة تماماً، أما "يعقوب ابن كيرمان" الذي لم يكن لديه أبناء يخلفونه فأوصى أن تكون أملاكه للدولة العثمانية من بعده ثم استطاع بعد ذلك من استعادة سيلانك ويانيا وبذلك يكون بسط نفوذه على هذه المنطقة^(٢)، واسترد ما قد فصله تيمور لنك عن الدولة العثمانية إبان موقعة انقرة^(٣).

الاتجاه صوب أوروبا:

بعد أن استطاع مراد الثاني تأمين الوضع الداخلي بشكل كبير واستعادة ما فقد من الدولة سابقاً وجه أنظاره إلى أوروبا لاستعادة ما استقل منها عن الدولة العثمانية.

وفي هذه الأثناء قد توفي حاكم الصرب "إستيفان لازاروفيتش" حليف الدولة العثمانية وتولى "جورج برانفويتش" الحكم بدلا منه، وكان هذا الحاكم يكره الدولة العثمانية كرهاً شديداً ولذلك ولكي يمنع تقدم العثمانيين في أوروبا فكر في مساندة وتقوية المجر على حساب الدولة

(١) المرجع السابق ص ١٥٢، ١٥٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٣، ١٥٤.

(٣) محمد حسن العيدير، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٤.

العثمانية، حيث تنازل عن بعض المناطق لملك المجر ولإمبراطور ألمانيا حتى يكونوا حائط صد لهجمات العثمانيين، كل ذلك رغم دفع الخراج السنوي للخزينة العثمانية^(١).

وكان "إبراهيم ابن قره مان" يسعى لاستعادة بعض الأراضي رغم الصلح والاتفاقيات والنسب والصهر الذي بينه وبين مراد الثاني ناهيك عن العقيدة الواحدة، إلا أن حب السلطان قد يعمي القلوب، فقام إبراهيم ابن قره مان بالتنسيق مع ملك المجر وملك الصرب الجديد الذي وافق بضغط من ملك المجر في الهجوم على الأراضي بالأناضول والروميلي في نفس الوقت، ففي الوقت الذي قام فيه ابن قرمان بالهجوم على بكشهر وحמיד ويلي، وأسر أميرها "إلياس بك"، وراح ملك المجر يضرب قلاع "قولومباج" و"كوويرجينك"، فأمر السلطان أمير الروميلي "سنان باشا" بالتوجه نحو المجر وألحق بهم الهزيمة ثم توجه السلطان بنفسه إلي ابن قره مان وهزمه واضطر إبراهيم ابن قره مان للصلح الذي وافق عليه مراد الثاني لإنهاء الوضع وتحسباً لقيام المجر بشيء آخر أثناء انشغاله بالحرب مع ابن قره مان، ثم توجه السلطان إلي بلاد المجر ولكن الحملة المجرية انسحبت فوجه السلطان الجيش إلى الصرب وضم سمندرة ضمّاً مباشرة للدولة^(٢)، وأرغم ملك الصرب بقطع علاقته مع المجر وزوجه ابنته مارا وتنازل للعثمانيين عن مدينة كروشيفانس (الاجه حصار) التي تقع في الشمال الغربي من مدينة نيش في وسط بلاد الصرب وقد اتخذتها الدولة العثمانية قاعدة انطلاق وحماية^(٣).

ووجه مراد الثاني حملة عام ١٤٢٥م إلى سالونيك لفتحها لكن حدث وفاة "الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني" وتولى مكانه "يوحنا الثامن" الذي تنازل للدولة العثمانية عن جميع

(١) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٥٥.

(٢) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٥٦، ١٥٥.

(٣) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٤.

القلع والحصون الباقية تحت السيطرة البيزنطية على شواطئ الروميلي والأسود مما أتاح للدولة العثمانية فتح مدينة مودرن في شبه جزيرة المورة^(١).

مدينة سالونيك:

نتيجة للفتوحات العثمانية أدرك سكان سالونيك بقيادة "أندرونيق" شقيق الإمبراطور "يوحنا الثامن" أن الوضع خطير للغاية وأنهم لا قبل لهم بالوقوف في وجه الدولة العثمانية لذلك تنازل عن المدينة إلى البنادقة ألد أعداء العثمانيين، فاعتبر مراد الثاني ذلك تحدياً له فجرد حملة لمحاصرة سالونيك التي حصنها البنادقة بقوة وأرسلوا أسطولاً إلى ميناء غاليبولي لإحراق السفن العثمانية التي تصدت لهم بشراسة وتغلّبت عليهم مما أعطى للجيش العثماني الفرصة للتقدم نحو سالونيك وفتحها في عام ١٤٣٠م وفرت منها الحامية البندقية^(٢).

ألبانيا:

كانت ألبانيا مقسمة لقسمين جنوبي وشمالى وكان يحكم القسم الجنوبي رجل فلورنسي قد تنازع أولاده الحكم بعد وفاته مما سهل لمراد الثاني السيطرة على هذا القسم، في حين يحكم القسم الثاني "يوحنا كاستريوتا" الألباني الذي استسلم للجيش العثماني، وبعد ذلك واصل مراد الثاني فتوحاته في البلقان وأخضع أمير الأفلاق الذي رضى بدفع الجزية وقد حدثت هذه الفتوحات بين عامي ١٤٣١م - ١٤٣٣م^(٣).

(١) المرجع السابق ١٢٥ ٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٥.

الصرب من جديد:

ثم حدث أن نقضت الصرب العهد من جديد مستغلة تحرك مراد الثاني نحو القرمانيين إذ نقض ابن قره مان العهد من جديد وتحرك ضد السلطان مرة أخرى، فما كان من السلطان إلا أن قبل الصلح مرة أخرى مع ابن قره مان وتوجه نحو بلاد الصرب والمجر ففتح مدينة سمندرية الواقعة بالقرب من بلغراد وفر "برانكوفيتش" إلى المجر ثم ضرب السلطان الحصار حول بلغراد نفسها لكن دون جدوى فتركها وأغاراً على بلاد "ترانسلفانيا" وحاصر مدينة "هرمنتشاد" التابعة لملك المجر^(١).

إرهاصات حرب صليبية جديدة:

كل هذه التقدّمات والحروب التي يخوضها مراد الثاني والتي تنتهي بانتصاراته المتتالية والقدرة على إنهاء الأزمات والثورات الداخلية جعلت الغرب يتنبه بقوة لضرورة التلاحم ضد هذه القوة الضاربة التي لا يستطيع أحد إيقافها، وقد كانت أوروبا مستعدة لتقديم يد المساعدة لكل من يعادي الدولة العثمانية ولا ينقصها سوى من يظهر على الساحة ويقول ها هو أنا ذا، وهذا يذكرني بالوضع الحالي الذي نعيشه حيث يقدم الغرب الصليبي يد المساعدة والعون لكل من يساهم ولو بقيد أنمله في هدم العقيدة الإسلامية أو قتل المسلمين في أي بقعة من بقاع الأرض، فما هم مسلمو ماينمار يقتلون ويذبحون والغرب لا يغطي حتى هذه الأخبار إعلامياً بل يتجاهلها في أغلب الأحيان، وما هي الصين تقتل في المسلمين وتعتقلهم كل يوم في تركستان في محاولات تطهير عرقي ولا ترى حقوق الإنسان ذلك وتغفل عنها، إلا إذا دعت المصالح الأمريكية لاستغلال ذلك وقت الحاجة فستجد بعض الأمور تظهر على الساحة من الاعتراف

(١) المرجع السابق ص ١٢٦-محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٥٥، ١٥٦.

مؤخراً بوجود سجون ويعتقل فيها المسلمين وذلك للضغط على الصين وليس بغرض الدفاع عن الإنسانية التي تنهتك.

تحرك "يوحنا الثامن" الذي هاله سقوط سالونيك وأفرغه تقدم مراد الثاني وتخاصم الجنوبيين والبنادقة في ذلك الوقت فاتجه نحو "البابا أورجانيوس الرابع" للتباحث حول حملة صليبية جديدة الذي رحب ترحيباً حماسياً بهذه الحملة^(١) وبهذه الدعوى التي تلبي أموراً كثيرة له منها مصالح اقتصادية للكنيسة، ومحاولة لاستعادة السيطرة البابوية من جديد، إذ كان من بين دعوى يوحنا الثامن مطلباً بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت زعامة واحدة، ومن أجل ذلك دعى البابا لعقد مجمع كنسي ثم تلا ذلك دعوة عامة لإنقاذ القسطنطينية، وقد لبي الدعوى عدد كبير من قادة أوروبا في مؤتمر كبير نتج عنه خروج حملة صليبية جديدة رافعة العقيدة شعاراً لها^(٢).

توضيح:

يوجد اختلاف مذهبي كبير بين كنيسة الشروق والغرب، ومحلله الأصول الأساسية في العقيدة المسيحية كالخلاف حول عقيدة السيد المسيح هل هو بشر أم إله، فتجد خلاف بين الكاثوليك والأرثوذكس في هذا الصدد، بل وخلاف آخر كما في حق تفسير الأنجيل لمن فيظهر مذهب البروتستانت بفكره الجديد الذي يرفض فكرة القساوسة من الأصل ويجعل حق تفسير الإنجيل لكل بروتستانت مما يفتح مجال لا حصر له من التحريف والتخريف، وذلك عكس الكاثوليك والأرثوذكس الذي حصر هذا الحق في القساوسة، مما يخلق طبقة كهنوتية مثلما حدث في العصور الوسطى التي كانت ظلاماً في أوروبا ونوراً يشع في العالم الإسلامي.

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٠٣.

(٢) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٦.

معركة نيش ١٤٤٣م:

بعد دعوة البابا لملوك أوروبا والحملة الصليبية ضد الدولة العثمانية التي استجاب لها "ألفونسو الخامس" ملك "أرغوان" و"نابولي" وهو أقوى شخصية أوربية في حوض البحر المتوسط وكذلك "لادسلاس الثاني" ملك المجر وعدو مراد الثاني "ويوحنا هونيادي" حاكم "الأردل" وانضمت قوات سكسونية وألمانية وتشيكية ولاتينية وبشناقية وأفلاقية وقرمانيه بدعم ابن قره مان^(١).

وفي ذلك الوقت كان جيش مراد الثاني بقيادة "يزيد بك" يحاصر مدينة "هرمن تشاد" التابعة للمجر، إذ توجه القائد العام لجيوش المجر بسرعة نحو المدينة وقاتل العثمانيين هناك وانتصر عليهم وقتل منهم الكثير على رأسهم القائد يزد بك، وألزمهم بالعودة والرجوع خلف "نهر الدانوب"^(٢).

ولما علم مراد الثاني بما حدث لجيشه أرسل جيشاً آخر تعداده ثمانون ألف جندي بقيادة "شاهين باشا" الذي اصطدم بالجيش الصليبي المجتمع على كره الدولة العثمانية وبعقيدة إبادة لهم وانتزاعهم من أوروبا بشتى الطرق، وحدث الصدام عند "بلدة وازاج"، ولكن انهزم الجيش مرة أخرى ووقع شاهين باشا أسيراً^(٣).

وفي هذه الأثناء احتشدت قوات كثيفة تحت قيادة هونيادي المتوج بانتصارات على العثمانيين، وكان برفقة لادسلاس وانضم لهم جورج برانكوفيتش أمير الصرب وتحركت كل هذه الجحافل باتجاه "مدينة نيش" حيث التقت بالجيش العثماني وانتصرت عليه ثم احتلت مدينة صوفيا

(١) المرجع السابق ص ١٢٧.

(٢) محمد فريد المحامي، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٥٦.

(٣) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٧.

وواصل هونيادي تقدمه عبر جبال البلقان وهزم العثمانيين مرة أخرى عند يالوفاز ما بين "صويا" وفيليبوليس" وبدا أن أملاك العثمانيين في أوروبا مهددة بالزوال إذ أصبح الطريق إلى أدرنه مفتوحاً وسهلاً إلا أن الله عز وجل له تقدير آخر إذ أراد أن يمنح الفرصة للعثمانيين مرة أخرى فكان البرد القارص مانعاً لتقدم الجيوش الصليبية مما جعل الأمر ينتهي "بمعاهدة أدرنه- سجدين" والتي تنص على الآتي:

يتنازل السلطان مراد عن سيادته على بلاد الأفلاق التي تصبح مستقلة.

يعيد السلطان قلعتي سمندرية والوجه حصار إلى الصرب.

يوقف العثمانيون حملاتهم العسكرية شمال نهر الدانوب.

إخلاء سبيل الأسرى من الجانبين.

تستمر الهدنة لمدة عشر سنوات.

ووقعت المعاهدة من الطرفين في عام ١٤٤٤م^(١).

أهمية موقعة نيش:

تعتبر هذه الموقعة التي انهزم فيها العثمانيين هزيمة كبيرة باعثاً للأمل من جديد في دول أوروبا بتجديد الحملات الصليبية لإجلاء الأتراك من أوروبا كاملة.

قامت بتجميع القادة الأوروبيين والمختلفين في العقيدة وبينهم صراعات داخلية وخارجية سواء على العرش والحكم أو على بعض المناطق أو غير ذلك من الخلافات التي تناسوها نظراً لأن عدواً مشتركاً ظهر في الأفق، وهذا ما تعمد إليه الولايات المتحدة الأمريكية في حال ظهور

(١) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٢٧: ١٢٨- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٥٧.

خلافاً مع روسيا أو الصين أو دول أوروبا فإن كانت قادرة على ردعها فعلت، وإن لم تقدر فإنها تظهر العدو المشترك على الساحة مرة أخرى وهو الإسلام فتنشغل روسيا في الحرب بسوريا وفرنسا بدعم الحرب في أفريقيا الوسطى ومالي، وانجلترا تدعم الحرب على العراق وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تحدث، حيث يستفيد الغرب من التاريخ أفضل استفادة عكس ما نفعله نحن إذ نهمل تاريخنا تمام الجهل.

أضعفت قوة العثمانيين في أوروبا مقابل إظهار قوة التحالف الصليبي.

خروج بعض المناطق من حظيرة العثمانيين

أعطت الفرصة الداخلية لمن أراد أن يقوم بفتن داخلية أو يحاول أن يستقل من جديد.

ما بعد المعاهدة:

كانت موقعة نيش وانشغال السلطان مراد بالحرب هناك دافعا كبيرة لانقلاب ابن قره مان من جديد، مما كان حافزاً قويا لجعل مراد يقبل بنود المعاهدة والعودة من جديد لإخماد الثورات الداخلية، فعاد لمواجهة ابن قره مان الذي فر هرباً إلى طاش إيلي وأرسل زوجته أخت السلطان وسيطاً للصلح وبالفعل تم الصلح بين الطرفين وعقدت معاهدة مع ابن قره مان في عام ١٤٤٤م تعهد فيها بعدم التجاوز مرة ثانية وإعلام السلطان بمراسلات أوروبا معه وتقديم ابنه رهينة لدى السلطان والمشاركة بفرقة عسكرية في جيش الدولة عند اللزوم وذلك مقابل إعادة الأراضي التي كان قد استولى عليها قره مان^(١)، ولا أعلم لماذا وافق السلطان مراد على هذه المعاهدة مع هذه الانقلابات المستمرة وإن كان البعض يؤكد أنه وافق على ذلك لتحصره على حالة الإخفاق التي حدثت في مواجهات البلقان ومرور السلطان مراد بحالة سيئة على إثر وفاة ولده علاء الدين وهو الابن الأكبر.

(١) سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية ص ١٥٧.

تنحي السلطان مراد عن السلطنة للمرة الأولى:

بعد هزيمة السلطان وتوقيع المعاهدة و وفاة علاء الدين استدعى ابنه محمد من مغنيسيا إلى أدرنه عام ١٤٤٤م للنزول له عن الحكم بعد أن حاول أن يقيم حالة من الاستقرار في أوروبا بالمعاهدة المبرمة، وكذلك مع أمراء الحدود، ومعاهدة ابن قره مان ليكون محمد ابن مراد الثاني هو السلطان ويستلم الحكم في حالة هدوء.

أثر تنازل مراد عن الحكم:

كان لتنازل السلطان مراد عن الحكم لابنه محمد البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً أثراً في غاية الخطورة وخصوصاً في هذا الوقت الدقيق، حيث بدأ الأهالي يهاجرون من الأناضول وشرع الجيش ببناء السدود والخنادق حول أدرنه وسعى البابا لدفع المجر لنقض الهدنة وأطلق إمبراطور بيزنطة أحد مدعي السلطنة ويدعى أورخان لمنافسة الأمير الصغير، وأغلق الأسطول البابوي طريق العبور إلى الروميلي والأناضول ومن ثم منع انتقال الجيوش العثمانية من الأناضول إلى أوروبا عن طريق البحر مما ييسر الأمر من طردهم من البلقان وبذلك تكاملت عوامل مواجهة صليبية جديدة^(١).

موقف البابا من هذه المعاهدة:

كانت طموحات البابا أكبر من هذه المعاهدة (أدرنه-سجدين) التي أوقفت الحرب ولو لمدة عشر سنوات بهدنة، لذلك سعى البابا بكل ما أوتي من قوة لنقض هذه المعاهدة فدفع المجر لذلك وكانت حجته لمعارضيه أن هؤلاء كفار ويمكن نقض الهدنة والمعاهدات معهم وبالفعل نُقضت المعاهدة وتم التجهيز لحرب صليبية جديدة.

(١) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٥٨.

وقفة:

إن نقض المعاهدات إنما هو سمت ظاهر لأعداء هذا الدين ولذلك أوجب الله تعالى على المسلمين قتالهم فيقول سبحانه: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8) اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۖ وَنُقِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) (أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُبَايِعُ الرِّسُولَ ۚ هُمْ بَدْءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتُحْشَوْنَهُمْ ۚ فَانْهَ أَهَقُ أَنْ تُحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)).

فهؤلاء لا يرقبون فينا إلا ولا ذمة، وإذا وجدوا سبيلاً لنقض المعاهدات فعلوا، وذلك على عكس دين الله تعالى الذي يأمر بالوفاء بالعهد، ودائماً تجد التحذير من نقض العهد، وقد أكدت الآيات القرآنية وأحاديث الرسول على وجوب الوفاء بالعهد، ومن ذلك قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١]، وقوله تعالى: {وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا} [الأنعام: ١٥٢]، وأيضاً: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٤]، وغيرها الكثير من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى العظيم.

وأما ما جاء في أحاديث الرسول فمنه ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «أَرْبَعٌ خِلَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعََهَا»، وعن أنس رضي الله عنه عن النبي قال: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وثبت

(١) سورة التوبة من الآية ١٣: ٧.

عنه أنه قال: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلُّنَ عَهْدًا، وَلَا يَشُدُّنَّهُ، حَتَّى يَمُضِيَ أَمَدُهُ، أَوْ يَنْبُذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»، وفي سنن أبي داود عن رسول الله قَالَ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وهذا لنوضح كيف هو موقفنا من المعاهدات وموقف أعداء الإسلام، إذ أن الموقفين لا يجتمعان أبداً.

موقعة فارنا (وأرنا):

كان الوضع في أوروبا بعد تنازل السلطان مراد الثاني قد أصبح مهياً لقتال العثمانيين حيث إن محمد وهو الشاب الصغير عديم الخبرة والدولة أصبحت منهكة من الحروب الماضية، وأطرافها أصبحت معرضة للاقتطاع، بالإضافة إلى ذلك فقد كان تواجد قوات أوروبية معسكرة بالبلقان محفزاً للاستفادة منها فضلاً عن استمرار العمليات العسكرية يكون دافعاً لملوك أوروبا لتقديم الدعم من جديد مع المساعدات اللازمة^(١).

مواقف متضاربة:

من الواضح أن بعض زعماء البلقان قد رفضوا هذا الأمر في البداية حيث إن هناك اتفاقية مبرمة ولا يجوز نقضها مثل جورج برانكوفيتش الذي أبى الحنث باليمين المعقود بين المتحاربين وشاركه بعض الزعماء المحليين، أما المجر "وبولونيا" و"ألمانيا" وفرنسا وإنجلترا والبندقية والدولة البيزنطية والبابوية وبروغنديا اتحدوا ضد العثمانيين بحجة وتبرير أنهم الكفار والواجب نقض المعاهدة معهم، وأنها عقدت بدون إذن "البابا أوجين الرابع" وكيل المسيح في الأرض، وكان سعي "الكاردينال سيزاريني" في هذا الصدد حثيثاً، إذ أنه تحرك

(١) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١، ١٣١، ١٣٢.

بكل قوة وحسم وحزم دون كلل أو ملل ليقنع كل معترض، وأن البابا يبئ ذمتهم من نقض العهد ويبارك الجنود والسلاح وعليهم أن يتبعوا طريق المجد بالخلاص من الأتراك^(١).

وعلى هذا حُشدت الجيوش من جموع أوروبا الناقمة على المسلمين وحاصروا مدينة فارنا البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، والتي كانت تحررت على أيدي المسلمين، وعندما سمع المسلمون بتحريك النصارى ووصلت الأخبار للسلطان مراد الذي تحرك بجيش كبير ليدخل المعركة والساحة السياسية من جديد^(٢).

وكان في هذا الوقت الأمير محمد هو القائد حيث أدرك هو ووزرائه أن الأمر أكبر منهم جميعاً، وذلك قبل وصول قوات مراد الثاني؛ لذلك كان الطلب لمراد الثاني بأن يخرج من عزلته ويلبي النداء وبالفعل قد جاء السلطان مراد بناء على طلب المسلمين وطلب الوزراء وتحرك بالجيش^(٣)، ومما يذكر هنا أن الأمير الصغير وهو الأمير محمد صاحب الثلاثة عشر عاماً أرسل إلى والده السلطان قائلاً: "إن كنت أنت السلطان فعد واجلس على عرشك، وإن كنت أنا السلطان، فأمرك أن تعود وتجلس على عرشك وتقود جيشك"^(٤).

تحرك الجيش الصليبي وفي طريقه أنزل العقاب ببعض القرى المسيحية التي قاومته وقد كان اعتقاد الكريدينال بأن مسيحي البلقان هراطقة لأنهم مخالفين له في المذهب ولذلك يجب قتلهم ولا غضاضة في ذلك، وهذا التصرف كان من الأخطاء التي وقعت فيها الحملة الصليبية حيث أن من قوام الجيوش التي معه من هم على خلاف مذهب كنيسة روما وينتسبون إلى مذهب كنيسة الشرق الأمر الذي أحدث خلل كبير في الجيش، والتقى الجيشان عند أسوار فارنا وقد

(١) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٣٢-على الصلابي، الدولة العثمانية أسباب النهوض والسقوط ص ٩٦.

(٢) على الصلابي، الدولة العثمانية أسباب النهوض والسقوط ص ٩٦، ٩٧.

(٣) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٣٣.

(٤) عبد السلام كمال، مظاهر حضارية من الثقافة العثمانية ص ٢٥.

خرج مراد الثاني رافعاً الاتفاقية التي أبرمت على رأس رمح ليشهد الجميع على نقضها وليكون حافزاً للجيش في المعركة، وحدث التراشق بالمدفعية بشكل قوي من الطرفين ورشقات السهام التي كانت أشبه بأمطار الموت، وتبرز في الوسط بعض انتصارات خفيفة للجيش الصليبي مما دفع السلطان مراد أن يهرع إلى الدعاء لله تعالى، إذ أن ناقض العهد والوفا به لا يجتمعان عند الله، وقد حدث أن التقى ملك المجر النصراني "فلاديسلاف" الذي خلف وعده مع مراد الثاني وجهاً لوجه في مبارزة مباشرة تمكن فيها السلطان مراد من الانتصار عليه وقتله إذ عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطه من على ظهر جواده فأسرع بعض المجاهدين وجز رأسه ورفعوها على رأس رمح مهللين ومكبرين وفرحين، الأمر الذي خلخل جيوش الصليبيين ودمر حماسهم مما سمح لقوات مراد بتحقيق انتصارات كبيرة ودفع هونيادي إلى الهرب، وقتل الكاردينال المحرض لهذه الحملة^(١).

التنحي الثاني:

لم يستثمر السلطان مراد الثاني الانتصار الكبير الذي حققه على الصليبيين إذ بعد الانتصار عاد إلى عزلته وزهده من جديد، كما يعود الأسد إلى عرينه بعد النصر القوي في فارنا الذي أعاد به هيبة الدولة وقوتها من جديد، وقد ذكر لنا التاريخ بعض الملوك والحكام الذين تنازلوا عن الحكم لزهدهم في الدنيا ولكن لم يذكر التاريخ أن حاكماً تنازل مرتين مثلاً فعل السلطان مراد^(٢).

وما إن تنحى السلطان مرة أخرى عن الحكم لابنه محمد حتى فتح باب الفتنة من جديد، إذ بدأ عساكر الإنكشارية الذين قللوا من شأن الأمير الشاب محمد، وعصوه ونهبوا أدرنه عاصمة الدولة فرجع إليهم السلطان مرة أخرى من عزلته في أوائل عام ١٤٤٥م وأخمد فتنتهم، وخوفاً من رجوعهم مرة أخرى أراد أن يشغلهم بحرب اليونان، وظل السلطان مراد على عرشه إلى

(١) راجع أحداث الموقعة العيروس ص ١٣٢ وما بعدها- على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ٩٦ وما بعدها.

(٢) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٩٨.

أن توفي رحمه الله عام ١٤٥١م^(١)، وقد ساعد على الحرب على اليونان أن مانويل ملك الروم قد قسم البلاد بين أولاده بأن أعطى مدينة القسطنطينية وضواحيها إلى ابنه حنا وبلاد المورة وجزء من تساليا لابنه قسطنطين وهو آخر ملوك الروم الذي فور علمه بتحريك السلطان مراد لفتح بلاده قام بتحسين "برزخ كورنت"^(٢) وبنى فيها القلاع والحصون، ولكن ورغم حصانة المدينة التي وصلت لدرجة كونها منيعة، إلا أن السلطان مراد استطاع بفضل الله أن يقتحم الحصون ولكن لم يستطع أن يفتح بلاد المورة لازدياد عصيان "إسكندر بك" واكتفى بضرب الجزية على أهلها هذه المرة^(٣).

واسكندر بك هذا كان أحد أبناء "جورج كستريو" أمير ألبانيا الشمالية الذي سبق وأخذ رهينة لدي مراد ليضمن عدم خروجهم عليه مرة أخرى، ولكن استطاع أن يقتنع السلطان بأنه يريد الدخول في الإسلام، وبالفعل تظاهر بذلك إلى أن خرج من قصر السلطان وبدأ في الحرب عليه ومباشرة العصيان ضد الدولة العثمانية^(٤)، تلك الحرب التي استمرت حتى عهد الفاتح رحمه الله.

وبخصوص الصليبيين فقد حكم هونيادي المجر بعد مصرع فلاديسلاف ولكن لم يحاول أن يغسل عار الهزيمة في فارنا إلا بعد أربع سنوات، ففي ١٤٤٨م سار إلى بلاد الصرب فالتقاه السلطان مراد هناك في سهل قوصوه^(٥).

(١) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية.

(٢) برزخ كورنت: أو برزخ كورنته هو الخليج الذي يحجز بين بري اليونان وعلى شاطئه الجنوبي تقع مدينة كورنته.

(٣) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٣٧.

(٤) محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ١ ص ١٣٧.

(٥) كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٠٤.

معركة قوصوه الثانية:

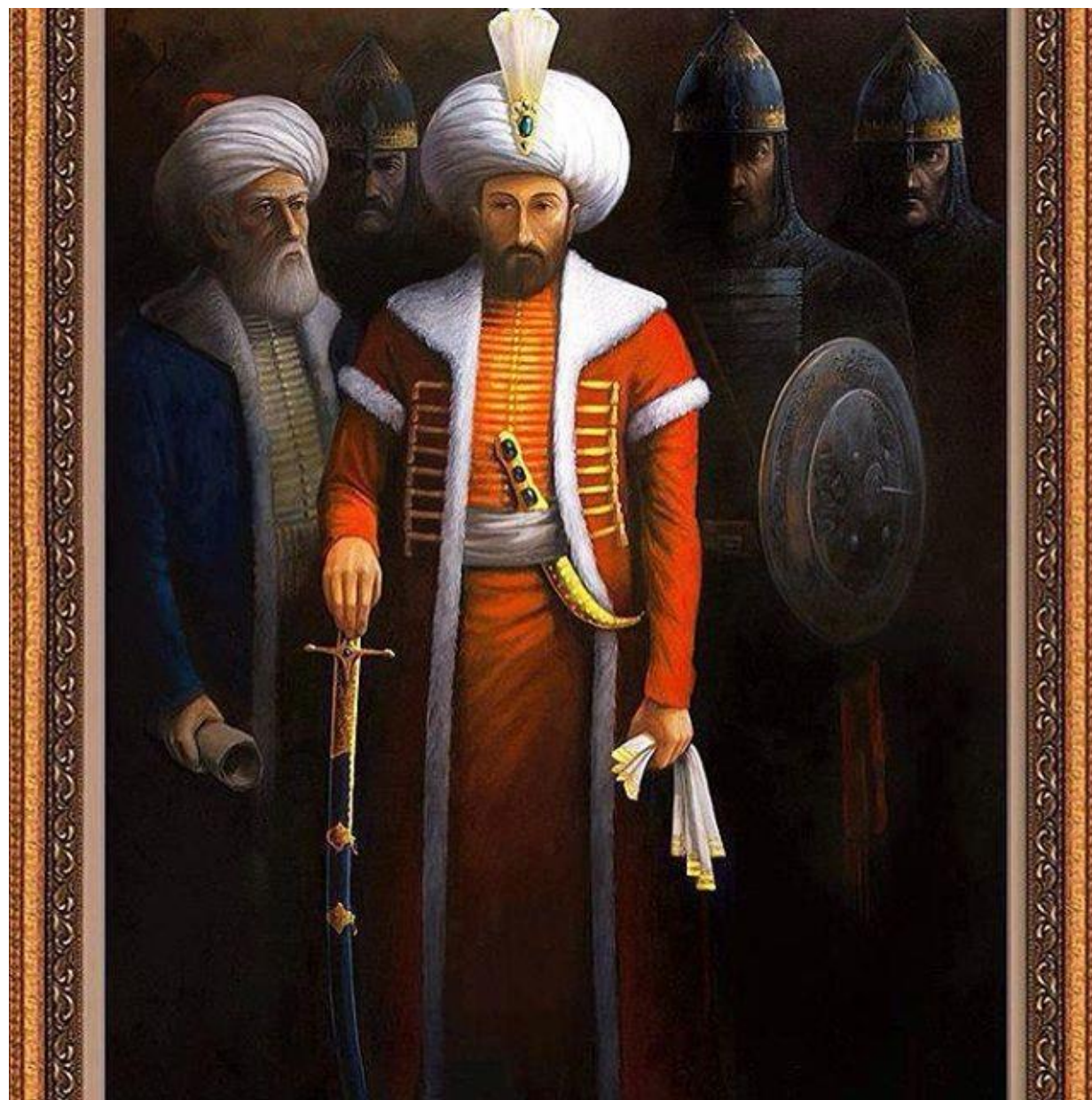
كانت هذه الحملة الصليبية الجديدة بناء على دعوة هونيادي بغرض محو العار الذي لحقه في هزيمة فارنا السابقة، وقد شكل جيشه من الأفلاق والبولنديين ومتطوعي أوردال وألمانيا كما شارك إسكندر بك بقوة في هذه الحملة، وهكذا تحرك هونيادي بجيشه نحو الصرب التي دخلها بسهولة وتمكن من احتلالها، إلى أن التقى الجيش العثماني بقيادة مراد الثاني في ميدان قوصوه -قوص اووا- في أواسط أكتوبر ١٤٤٨م شعبان ٨٥٢هـ، وإذا كانت الحرب قد بدأت في أول ثلاثة أيام سجلاً بين الطرفين إلا أن انحياز أمير الأفلاق إلى الدولة العثمانية كان له الأثر البالغ في إلحاق الهزيمة بالحملة الصليبية وفرار هونيادي^(١) الذي حاول أن يشق طريقه عبر الدانوب إلا أنه وقع في أيدي أعدائه الصرب واضطر إلى أن يعقد صلحاً لم تكن شروطه في مصلحته البتة^(٢).

وفاة السلطان مراد:

أصيب السلطان مراد رحمه الله بشلل في آخر حياته توفي على إثره عام ١٤٥١م غرة محرم ٨٥٥هـ حيث استدعي ابنه الشهزادة محمد من ولاية مغنيسيا ليجلس على العرش.

(١) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٦٢.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٠٤.



السلطان محمد الفاتح

مولده ونشأته:

ولد محمد الفاتح عام ٨٣٣ هـ، في مدينة أدرنه^(١)، وتربى على أيدي العلماء والمشايخ الأفاضل، وعلى رأسهم الشيخ آق شمس الدين رحمه الله الذي صحب الفاتح في فتح القسطنطينية.

فقد رباه والده مراد الثاني -رحمه الله- تربيةً ناجحة، حيث اختار أفضل الشخصيات التي تتولي تدريبه، كما تدرب على شئون الحكم في عهد أبيه فعرف مسؤولياته، وكيفية مواجهة المشكلات والأزمات، وخبر الرجال وعرف نفسه جيداً ومعرفة النفس أولى خطوات النجاح في الحياة، وتعلم نظم الحكم وكيفية تصريف شُؤون الدولة في الداخل والخارج، وقد ورث عن أبيه أحسن الصفات فكان شجاعاً مقداماً شديد المراس يصبر على المكاره ولا يعرف اليأس له طريق، تعلم كيف يحارب الأعداء وكيف يضع الخطط في ميادين القتال، وأعمال الحصار والقيادة العسكرية، وتعلم ثقافة عصره، فتعلم أكثر من لغة بثقافتها، فكان يتكلم الإغريقية والإيطالية والفارسية بجانب التركية، فساعد ذلك على معرفة كيف يفكر أعداءه^(٢)، وكان دائم اليقظة وتعلم التاريخ وسير العظماء والابطال فعرف حياة القيصرة والأباطرة والملوك والقادة العظام في العالم، وكان من صفاته كتمان السر فلا يعرف

(١) عزتو يوسف بك اصفاف، تاريخ سلاطين ال عثمان ص ٥١.

(٢) فكما ورد عن بعض العلماء من تعلم لغة قوم أمن مكرهم (فهذا ليس بحديث كما هو مشهور إذ لم يرد في أي كتاب من كتب الأحاديث) وإن كان معناه صحيح.

أحد ما يدور في رأسه، وقد ابتعد محمد الفاتح عن حياة الترف واللّهو وعاش حياته مجاهداً في سبيل الله^(١).

توليه الحكم:

تولى السلطان محمد الفاتح الحكم عام ١٤٥١م وهو في الحادي والعشرين من عمره^(٢)، وقد مارس الحكم كسلطان مرتين في عهد أبيه حتى نزل عن العرش وفقاً لما ذكر أثناء الحديث عن السلطان مراد الثاني، فكان ذلك تدريباً عملياً، الأمر الذي هياً الأمور ليكون أفضل حكام بني عثمان، بل من أفضل الحكام المسلمين على مر التاريخ وصاحب البشرى النبوية فهو نعم الأمير.

وأثناء توليه الحكم في عهد أبيه تعرض لبعض الأخطاء التي جعلت منه ماهراً حكيماً بعد ذلك، فقد كان يتصرف في أمور الحكم بعيداً عن اتخاذ المشورة مما أوقعه في المشاكل مع من حوله من رجال الدولة الذين شكوا للسلطان مراد فأرسل له ناصحاً وكلفه بالاستعانة بمن حوله من كبار الدولة وذوي الخبرة في الأمور، وبالفعل قد استجاب الأمير محمد لهذه النصيحة التي صارت نبراساً في حكمه بعد ذلك^(٣).

مسألة قتل أخيه الصغير:

يذكر كثير من المؤرخين أنه وفور توليه الحكم قد قتل أخيه الصغير أحمد وهذا من الأمور العجيبة التي يروجها الكتاب الغرب والعرب، فلا أعجب عندما يفعل الغرب ذلك، ولكن كل العجب عندما يذكر المسلمون ذلك رغم كونها فرية كبرى أراد بها الغرب تشويه السلطان الفاتح محمد الذي دمر أحلامهم في حماية القسطنطينية وفتح

(١) تاريخ الدولة العثمانية رجال وحوادث ص ٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

أفاقاً جديدة لأوروبا، بل غير شكل التاريخ للدرجة التي يري فيها البعض أن العصور الحديثة لابد أن تكتب منذ هذا الفتح.

"لابد أن نتفق بداية -وقد ذكرنا ذلك سابقاً- أن مسألة القتل لابد أن تكون بسند شرعي، وإلا فمقترفها قاتل، ولابد من توقيع الحد عليه كائن من كان"

ولكن لابد وكى يطبق عليه هذا الحد أن تثبت الأدلة الشرعية التي لا تحتمل معها شك، بل إن ورد أي شك فكما هو معلوم فإنه يفسر لصالح من أُلقيت عليه التهمة.

وبتطبيق ذلك على واقعة القتل فإننا نجد أن أحداث قتل الإخوة في التاريخ العثماني واضحة بجلاء كبير باستثناء هذه الواقعة التي بالنظر إلى مصادرها فإنها تكاد تكون ضعيفة، بل أقل من كونها كذلك، بل إن الحادثة ذاتها مشكوك فيها، فحتى الأجانب مثل المؤرخ قانتيمير ذكر بأن السلطان مراد الثاني عندما توفى كان جميع أبنائه قد ماتوا عدا الأمير محمد الذي كان والياً على أماسيا، فكيف سيقتل السلطان محمد الفاتح من هو ليس بموجود أصلاً.

ومن جانب آخر على فرض صحة هذه الرواية بأن أحمد قد قُتل فستجد اختلاف كبير في سِنِّه عند قتله، فمنهم من يقول تسعة أشهر والآخرين ستة أشهر، ولكن المتفق عليه وهو أنه لم يتم عامه الأول، أي مازال رضيعاً، فما الحاجة لقتله وهو في سن لا يستطيع أن يفعل فيه أي شيء، حتى ولو كانت الدولة البيزنطية تستغل الأمراء أسوء استغلال وتستخدمهم في تفتيت الدولة، مثلما سيحدث بعد ذلك من التهديد باستخدام أورخان ضد السلطان محمد وكما حدث من قبل مع مصطفى جلبي^(١).

بل يوجد بعض المصادر تقول إنه مات غريباً نتيجة لخطأ المربية التي غفلت عنه، وتجد روايات أخرى تقول إن الذي قتله هو "أفرانوس زاده علي بك" الذي أُلقي

(١) راجع الدولة العثمانية المجهولة ٣٠٠ سؤال وجواب ص ٢٩ وما بعدها.

القبض عليه وقام محمد الفاتح بإعدامه، فلماذا يتم تغافل كل تلك الروايات ويتم النظر إلى تلك الرواية التي لا سند لها قوي أو مصدر مؤتمن بأن محمد الفاتح قتل أخاه الصغير الرضيع لأنه سينافسه على الحكم.

بل أقول والسلطان محمد وهو السياسي المحنك المخضرم الذي لو أراد ذلك في نفسه لم يكن ليفعله فهو يعلم أن أورخان لدى الامبراطور البيزنطي وربما يطلقه في أي لحظة، وهو مازال لم يمسه مقاليد الدولة بشكل كبير، بل وصورته مهزوزة لدى الكثير من القادة والوزراء، ولربما إذا فعل مثل هذه الفعلة تقلل من رصيده لدى هؤلاء فينقلبوا عليه ويكونوا في صف أورخان أو أي مطالب بالعرش، أي إن هذا الفعل يعد من الغباء السياسي لمن أراد أن يقوم به في مثل هذا التوقيت العصيب، وخصوصاً وهو طفل رضيع لا يقوى على شيء ولا يصلح لشيء ولا يستطيع المنافسة على الحكم بل لا يستطيع المنافسة على شربة ماء.

وأختتم بشيء ألا وهو من نصدق؟ هل المؤرخين الغربيين الذين أطلقوا هذه الفرية بغرض توحيش السلطان محمد الفاتح وإظهاره بأنه قاتل وجشع وغير ذلك من الأمور التي لا محل لها نهائياً من الإعراب، أم نصدق خير البشر وهو رسول الله - صلي الله عليه وسلم-؟ إذ قال في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن عبد الله بن بشر الخثعمي، عن أبيه أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: "تفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش" فكيف إذن يكون هذا هو نعم الأمير وهو قاتل لآب من إقامة الحد عليه، فهل يعقل أن يذكر الحبيب محمد -وهو المعصوم والذي لا ينطق عن الهوى- أن القسطنطينية تلك المدينة التي حاول فتحها العظماء والشرفاء من الصحابة والتابعين ولم تفتح على أيديهم وهم -وفقاً لذلك إن صحت رواية قتل الأمير الصغير على يد الفاتح- أحق بالفتح منه، إلا أن الله تعالى أراد أن تفتح على يده ليكون هو نعم الأمير وليكون ذلك الجيش هو نعم الجيش.

خلاصة القول إن مسألة قتل السلطان محمد لأخيه الصغير الرضيع أحمد هي محض افتراء لا أكثر يصر عليه الغرب دون دليل واضح ملموس كما الأدلة الدامغة التي توجد في مسألة قتل السلاطين الذين تلو السلطان محمد، ويأتي الكتاب العرب والمسلمون ينقلون مثل هذه الفريات على كونها حقيقة ومسلم بها، بل ويلومنا البعض عندما نقول إن السلطان محمد كان تقياً نقياً متديناً يرق لدينه على دنياءه، فإننا نقول ذلك بمليء فيه؛ ذلك لأنه المبشر الذي بشر به رسول الله، فهو نعم الأمير، رغماً عن كل حاقد وحاسد وجاهل وناقل بدون وعي.

الوضع عند توليه الحكم:

إن محمد وهو الأمير الشاب الذي أنزله أبوه من على العرش مرتين وخصوصاً عندما عجز عن قيادة الأمر في معركة فارنا حيث اضطر السلطان مراد بأن يعود مرة أخرى للحكم ويقطع عزلته ليقود الدولة من جديد وقد كُتِبَ له النصر بفضل الله تعالى آنذاك، إلا أن ذلك الحادث أي إنزال الأمير محمد من على العرش قد أثر في هيئته لدى الجند والدولة.

ونتيجة لذلك فقد حاول الأمير إبراهيم ابن قره مان كعادته فور تولي الفاتح للحكم أن يقوم ضده بإثارة بعض الأشخاص معه، حيث زعم أنهم أبناء الأمراء القدماء لكرمان وأيدين ومنتشا ودفعهم إلى تلك الأراضي ليحصلوا على إرثهم، ولما علم الفاتح أرسل جيشاً وسار هو في أثر هؤلاء وفوجئ إبراهيم بهذا الزحف الغير متوقع بالنسبة له من الأمير الصغير، ووجد أنه أضعف من أن يواجه الجيش العثماني فكف عن القتال وتقدم للفاتح بنفسه باكياً مستعطفاً وقدم إليه ابنته توكيدا للخضوع وتعهد بأن يخرج معه في حملاته المقبلة على أن يحتفظ بإماراته ورق الفاتح لبكائه وقبل منه ما طلب وعفا عما كان منه^(١)، ولا أعلم ما هو السر وراء هؤلاء السلاطين التي ترق لهذا

(١) محمد سالم الرشيد، محمد الفاتح ٦٩.

الخائن المنقلب مراراً وتكراراً، فمن أيام السلطان مراد أتيحت أكثر من فرصة وكذلك في عهد الفاتح، ولكنها إرادة الله ألا يقتل ويستمر في خيانتته.

خطورة القسطنطينية على الدولة العثمانية:

كانت القسطنطينية دائماً وأبداً مصدراً لتهديد الدولة، ذلك لرغبتها الدائمة والملحة لطرد الأتراك من أوروبا فتجد أنها تؤوي المارقين من الدولة والراغبين في الانقلاب عليها مثل الشهزادة أورخان، ومن قبل ذلك مصطفى جلبي الذي دعمته دعماً قوياً ضد الدولة وكاد أن يفتك بها، وكذلك لدعمها طرف من أطراف الصراع الأسري على كرسي العرش، مثل سليمان جلبي على حساب محمد جلبي، بل ومحاولتها الدائمة والمتكررة من دعوة البابا في روما لشن حملات صليبية جديدة على الدولة العثمانية، وتلك الدعوات كانت تؤتي ثمارها في بعض الأحيان وتكلف الدولة الكثير والكثير من الخسائر في الأموال والأرواح، ناهيك عن مساعدة وتحريض إمارات الأناضول والبلقان وأوروبا كلها على الدولة العثمانية، بل وتحرض التركمان لتفت في عضد الدولة، وبث الجواسيس داخل الدولة، ونقض العهود، وعدم الالتزام بالاتفاقيات المبرمة بين الطرفين، وانتهاز الفرصة لشق عرى الدولة، وغير ذلك من الأمور التي أصبحت بها القسطنطينية مصدر خطر دائم وملح ويؤرق الدولة التي لن ولم تستقر بوجود مثل هذه الدولة التي تعاديبها بأشرس أنواع العداء وهو عداء العقيدة والذي يتبعه بعد ذلك عداء المصالح.

محاولة القسطنطينية استغلال الأمور:

كان محمد الفاتح فور توليه للحكم بين أمرين، أولهما أن يقوم بعمل عسكري يستعيد به هيئته ونفوذه من جديد، وخصوصاً والوضع به الكثير من الخطورة، إذ أنه نزل من على العرش مرتين، وتم استدعاء والده في الحرب مع الصليبيين التي كادت أن تفتك بهم، لولا فضل الله وتدخل السلطان مراد الذي أعاد موازين الأمور من جديد، ناهيك عن حادثة سنه ورغبة الغالبية في بسط كلمتهم على السلطان ليكون له الكلمة

المسموعة في الدولة، والكثير من المخاطر الداخلية التي قد تهدد الدولة في حالة خروجه لمقاتلة الأعداء في الخارج، أو فتح باب الحروب العسكرية على الدولة العثمانية، أو أن يهادن من حوله إلى أن يستتب الوضع له وتترسخ أقدامه ليستطيع أن يقبض على زمام الأمور جيداً.

والحقيقة أن محمد الفاتح لم يكن يرغب خلال هذه الفترة من حكمه في إجراء أي عمل عسكري ضد أي من خصومه؛ فقد كان شغله الشاغل هو إعادة هيبته كسلطان البلاد بعد أن أجبره الوزير "جاندرلي خليل باشا" على النزول عن العرش من قبل، ناهيك عن انشغاله بإطفاء فتنة إبراهيم بك أمير قره مان في آسيا الصغرى، إلا أن الإمبراطور البيزنطي آنذاك قد أخذ الغرور وحاول أن يستغل انشغال السلطان محمد الفاتح بقتاله في هذه الفتن الداخلية، وطلب طلباً كان القشة التي قسمت ظهر البعير، والشرارة التي أشعلت حدة الأحداث بعد ذلك، إذ طلب من السلطان محمد وهو ذلك الشاب الصغير قليل الخبرة حسب ظن الإمبراطور البيزنطي بأن يزيد من المبلغ المقرر للشهزادة "أورخان" المحجوز لديه، وهدده بإطلاق سراح الأمير الأسير في حالة عدم موافقته على هذا الطلب^(١).

رد فصيح:

ومن روائع الردود التي وردت في التاريخ من وجهة نظرنا- ذلك الرد من خليل باشا وهو الصدر الأعظم رغم ما كان بينه وبين الروم من صلات ودية بل واتهام بالرشوة إذ صاح في وجه الرسل غاضباً^(٢): "أيها الروم الحمقى، لقد عرفنا فيكم

(١) سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية ص ١٨٤، ١٨٥ بتصرف

(٢) يوجد كثير من المؤرخين يتهمون خليل باشا بالخيانة، والتعامل مع الأعداء، وإن كان ذلك من وجهة نظرنا غير صحيح بشكل كبير، فحسب ظننا أن خليل باشا كان يعمل لصالح الدولة ولكن من وجهة نظرة، أي أنه يرى أن الدولة لا تصلح الآن لقتال فيعمد على تأخيرها والتراخي فيه قدر الإمكان، وهذا لا يعتبر خيانة بالمعنى الصحيح، وإن كان تصرف خاطئ، إذ فور عرض الأمر على الشورى وقد صدر قرار فلا بد من الإذعان له وليس التصرف على حدي، أما مسألة الرشوة هذه، فيرى البعض أنها كانت قائمة، وكذلك نحسبها وإن كان

الغدر والخيانة وأنكم تجهلون الخطر الذي يحق بكم، لقد ذهب السلطان مراد بحلمه وسعة صدره وخلفه على العرش سلطان جديد فتى لا يفل عزمه شيء، لئن نجحت القسطنطينية هذه المرة من يده فإن الله قد غفر لكم جرمكم ومكركم، أيها الروم الحمقى إن العقد الذي بيننا قريب، والآن تأتون إلينا تهددون وتوعدون كعادتكم لكن لسنا بصبيان أغرار، أطلقوا أسيركم أورخان، أجعلوه سلطان في تراقيا، استنفروا المجريين وادعوا أمراء الغرب لنصرتكم وازحفوا علينا بجحافلكم، إنكم لن تنالوا من وراء ذلك شيئا بل ستعجلون القضاء على أنفسكم، سأذكر ذلك لسيدي وأن ما يريد لم يقف شيء دون بلوغه"^(١).

وكان تصرف السلطان محمد غاية في السياسة والحكمة، إذ يعلم أنه يواجه فتنة داخلية وبالتالي لا يمكن فتح باب لصراع آخر عليه بل قد تكون هذه هي المكيدة التي يريد الإمبراطور أن يوقع فيها السلطان، ولذلك أحسن استقبال الرسل ولاينهم في الحديث ووعدهم بالنظر في طلبهم"^(٢).

إرهاصات الفتح:

لما حدث وأرسل الإمبراطور تلك الرسالة التي أشعلت حدة الصراع وكان رد الفاتح: "سننظر في طلبك". فبدأ في إعداد العدة استعدادا لخوض غمار الحرب على القسطنطينية، فرغم كونه لم يكن يرغب بالحرب في هذا التوقيت إلا أن هذه الرسالة أشعلت الفتيل وبدأ الفاتح في إقامة كامل الاستعدادات لفتح تلك المدينة الحصينة التي لطالما أرقت جانب المسلمين.

البعض يبيع لنفسه ذلك حتى في وقتنا الحالي مبررا أنه لا يضر الدولة، أو أن القرار الذي أصدره هو في صالح الدولة وبالتالي هذه ليست رشوة أو ما شابه ذلك، أو يضعون مسميات لها غير مسمى الرشوة وإن كان كل هذا مبررات واهية لتمرير مسألة الرشوة وأصحابها يدخلون في مسألة الحرمة.

(١) محمد سالم الرشيدى، محمد الفاتح ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق ص ٧٠.

التدابير الأولية للفتح:

كانت خطة السلطان محمد في جانب التدابير الأولية تنقسم إلى ثلاث أقسام؛ الأول هو تأمين الجوانب المعادية له، والثاني هو تمهيد الطريق بالقلاع والحصون أمام أسوار القسطنطينية، وكذلك قطع الطريق لوصول الإمدادات للقسطنطينية والثالث هو تقوية الجيش وقدراته الحربية والعسكرية، بالإضافة إلى تقوية النواحي المعنوية والروحية.

أولاً: تأمين جانب الأعداء:

عَمِلَ محمد الفاتح على عقد المعاهدات مع الأعداء لتجنّبهم من هذا الصراع، ولتفريغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة جلطة المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينها وبين مضيق القرن الذهبي، كما عقد معاهدات مع المجر والبندقية وهما الإمارات الأوربية المجاورة فعقد معاهدة هدنة مع الملك هيوناد ملك المجر وهو العدو اللدود للدولة وكانت الهدنة لمدة ثلاث سنوات، وهادن فرسان رودوس وكذلك اسكندر بك ولكن هذه المعاهدات لم تصمد طويلاً حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية^(١).

ثانياً: تمهيد الطريق إلى القسطنطينية:

كانت عادة السلطان الفاتح في حروبه أنه قبل أن يهجم على مدينة أو قلعة يعمل على حصارها وعزلها وقطع الاتصال بينها وبين البلاد التي قد تأتي لنجرتها، فلذلك يبني القلاع والحصون لمحاصرتها، فشيد قلعة "روميلي حصار" على الشاطئ الأوربي في شمال القسطنطينية وكان السلطان بايزيد الأول قد بنى قلعة قبل ذلك عرفت باسم

(١) راجع على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١٠٦، حسن أبو عليه، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ١٢٠.

"أناضولي حصاري" على الشاطئ الآسيوي للبسفور لكي يحكم الحصار على القسطنطينية^(١).

ولأجل ذلك جلب الكثير من مواد البناء وآلاف الفعلة والبنائين من جميع أنحاء الإمبراطورية واشترك بنفسه وكبار رجال الدولة والقضاة والفقهاء في أعمال البناء حيث خلعوا ملابسهم الزاهية والثمينة وانتشروا بين العمال والفعلة وزاحموهم بمناكبهم في نقل الأتربة والأحجار^(٢).

وقفة:

إن مشاركة القادة الجنود هو أمر يرفع الروح المعنوية لهم ويجعلهم يشعرون أن القائد مثلهم ويشعر بما يشعرون به، وهذا ما علمنا إياه النبي -صلي الله عليه وسلم- مثلما فعل في غزوة الخندق، وذلك رغبة في الأجر ولينشط المسلمين، حيث أجهد المسلمون أنفسهم، والنبي -صلي الله عليه وسلم- يكابد معهم النصب والجوع فيشعر بما يشعرون به ويتألم كما يتألمون هم، حتي إذا تعبوا نظروا إلي النبي -صلي الله عليه وسلم- فيأخذهم الحماس من جديد، وقد استمرت هذه المشاركة حتى فرغ من حفر الخندق، وكان صلي الله عليه وسلم يضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب بالمكتل.

قال أبو واقد: ولقد رأيته يوماً بلغ منه، فجلس، ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر، فذهب به النوم، فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه، وأنا قريب منه، ففزع، ووثب فقال: ألا أفزعتموني؟!

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليه، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ١٢٠.

(٢) محمد سالم الرشدي، محمد الفتح ص ٧١.

فأخذ الكرزن (الفأس) يضرب به، وإنه ليقول:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فهذه هي التربية الإسلامية للقادة الذين يريدون الانتصار بعقيدة صحيحة ويقتفون أثر النبي -صلي الله عليه وسلم-.

رد فعل الامبراطور البيزنطي:

لما رأى الإمبراطور البيزنطي ما يفعله الفاتح من بناء القلاع والحصون ذهب عنه الغرور الذي كان فيه بل تحول مكانها لخوف وهلع شديدين فأرسل إلي محمد الفاتح وقد نسي أمر زيادة المصاريف لأورخان ومحاولته لتفتيت عري الدولة، وقال له إن ما تفعله يعد نقضاً للاتفاقيات والمعاهدات التي بين الدولتين، فكان رد الفتح السياسي المحنك: "ليس فيما أقوم به ما يهدد دولتكم، إنما هي أسباب الحيلة أتخذها لدولتي و ليس في ذلك أي نقض للعهد، إن لكم القسطنطينية بأسوارها وليس لكم ما وراء ذلك في شيء، وهل نسيت ما انتاب والدي من فزع عندما تحالف إمبراطوركم مع المجر واراد منعه من العبور إلي البحر وسدت سفنه المضيق واضطر السلطان مراد أن يستعين بالجنوبين لقد كنت حينذاك فتى يافعا في أدرنه، وقد ارتعد المسلمون من الخوف والفزع وكنيت تسخرون منهم وتشمتون لقد أقسم والدي في موقعة فارنا ليقمين قلعة ههنا على الشاطئ الأوربي وها أنا أبر بيمينه وليس لكم الحق والقوة لمنعي، أما الشاطئ الأوربي فلان الأوروبيون قد هجروه وليس لكم القوة في الدفاع عنه، أما الشاطئ الاسيوي فلانه يسكنه مسلمين، أذهبوا إلي سيدكم وأخبروه أن السلطان العثماني الآن يختلف عن أجداده فإن لي عزماً وقوة عزمهم وقوة فوق

قوتهم، انصرفوا الآن إلي دياركم سالمين ووالله ما جاءني أحد منكم بعد ذلك بمثل هذه الرسالة إلا قتلته" (١).

وبدأ الامبراطور يستخدم خليل باشا حيث يرسل الهدايا المحملة بالذهب، لمحاولة إقصاء السلطان، إلا أن محمد الفاتح لم يسمع له (٢).

فأيقن الإمبراطور البيزنطي أنه لا مناص من الحرب، ولذلك حاول تخريب القلعة ولكن الأتراك تصدوا للروم الذين قاموا بهذه المحاولات وردوهم على أعقابهم وحدثت بعض المناوشات بين الفريقين ترتب على أثرها أن أبواب القسطنطينية أغلقت استعداداً للحرب (٣) كما سنرى لاحقاً.

ثالثاً: إعداد الجيش:

فإنه عز وجل يأمرنا بأن نأخذ بالأسباب، وإعداد العدة قدر المستطاع، وهنا يكمن الفرق في الفهم بين ما هو مطبق حالياً وبين ما يريده الله (٤).

(١) محمّد سالم الرشيدى، محمد الفاتح ص ٧١.

(٢) المرجع السابق ص ٧٢.

(٣) المصدر السابق ص ٧٣.

(٤) فحالاً لا يوجد اهتمام بتطوير وتقديم الدولة لتستطيع أن تصنع أسلحتها وغذائها وكسائها بنفسها دون الاعتماد على الخارج كما هو الحال فالتعويل على الاستيراد يمكن أعداء الأمة بناء، وفي أي لحظة أرادوا عن طريق تضيق الاستيراد، أو التضيق بسعر العملة، مما يرفع الأسعار الداخلية في الدولة فتتشغل عن أمور خارجية، بل وقد يصل الأمر إلى ثورة على الحكام إن اقتضى الأمر، فيصبح هذا الاستيراد الغير منظم للمواد الأساسية وسيلة لتدمير الدولة في أي لحظة.

بذل السلطان الفاتح جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوي البشرية حتى وصل تعداداه إلى قرابة ربع مليون مجاهد وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش ذلك الزمان، واهتم بتدريب هذه الجموع على أعلى مستويات التدريب وفي شتى فنون القتال، ناهيك عن الإعداد المعنوي للجيش حيث انتشر العلماء والخطباء لبث روح الجهاد في الجيش ليكون على أتم استعداد في أي لحظة لاقتحام المدينة، بل أصبح الجيش هو الذي ينادي متى نبدأ الفتح^(١).

كذلك اهتم السلطان محمد الفاتح بتطوير جيشه على الجانب التسليحي، ليكون ذو مقدرة أعلى من الدول المجاورة، فبدأ بتصنيع المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه، حيث أحضر المهندس المجري أوربان والذي عرف عنه براعته في صناعة المدافع فأحسن استقباله وقد تمكن من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة، وكان على رأسها المدفع السلطاني المشهور والذي ذكر أن وزنه يصل إلى مئات الأطنان، وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها^(٢).

الحرب:

تحرك الجيش العثماني تجاه أسوار القسطنطينية بخمسين ألف جندي ثم انسحب بعد ثلاث أيام على أدرنه، ويبدو أنه قصد بذلك تفقد الأحوال حول المدينة، أو لمعرفة ردود أفعال المدافعين عن المدينة كيف ستكون، وما هي الاحترازاات التي اتخذوها، ولم يتحرك أحد ليووقف السلطان أمام تحركاته العسكرية، فالكل في ترقب وحذر من الخطوة التالية^(٣).

(١) راجع على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١٠٦.

(٢) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص ٣٦١.

(٣) تاريخ الدولة العثمانية رجال وحوادث ص ٣٤.

ثم عقد السلطان محمد الثاني اجتماعاً مع كبار القادة في قصره بأدرنه ورسم خطة الهجوم^(١)، وعرفهم بنقاط ضعف القوة المدافعة عن المدينة، وعقب الانتهاء من الاستعدادات تحرك السلطان الشاب صوب المدينة في ٢٣ مارس ١٤٥٣م - ربيع أول من عام ٨٥٧هـ، حيث ولت الجيوش العثمانية أمام المدينة في ٥ أبريل عام ١٤٥٣م - ٢٥ ربيع أول عام ٨٥٧هـ، وشرعت في الحصار من اليوم التالي مباشرة، وكان الجيش العثماني المحاصر يتراوح ما بين ١٥٠ - ٢٠٠ ألف مقاتل تقريباً، ويتشكل من فرقة القابو قولي (خدم الباب السلطاني)، وسباهة مقاطعات تيمار الأناضولي، علاوة على جنود العزب والكوكللو، أما الأسطول العثماني الذي شارك لأول مرة في حصار المدينة بشكل جاد فقد كان يتراوح ما بين ١٠٠ - ١٥٠ قطعة بحرية كبيرة وصغيرة، والحقيقة أن الحصار لم يكن مكتملاً لتعذر الوصول لأسوار المدينة من ناحية الخليج وذلك بسبب سد الخليج أمام السفن العثمانية بسلسلة عظيمة، أما القوات المدافعة عن المدينة فلم يكن يعلم العدد بشكل قوي^(٢).

وقبل أن يبدأ السلطان محمد في الهجوم ووفقاً لقواعد الشريعة الإسلامية أرسل وزيره محمود باشا إلى الإمبراطور يطلب تسليمه المدينة حقناً للدماء، إلا أن الإمبراطور رفض هذا الطلب موضحاً استعداداته لدفع الجزية بموجب معاهدة تبرم بين الطرفين، وأنه عاقد العزم على الدفاع عن المدينة حتى الموت، وهكذا باءت المفاوضات بالفشل وبدأ أول هجوم على المدينة في ١٢ أبريل - ٢ ربيع الآخر وراحت المدافع الكبيرة تدوي في سماء القسطنطينية حتى ١٨ أبريل - ٨ ربيع آخر، ولم يسفر ذلك عن نتيجة إيجابية^(٣).

(١) الدولة العثمانية رجال وحوادث ص ٣٤.

(٢) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٨٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٨٩.

محاولات الإمبراطور البيزنطي:

حاول الإمبراطور البيزنطي الاستئجار بدول أوربا لمساعدته في صد الخطر العثماني على أبوابه، ولكن الرد الأوربي جاء متفاوتاً وفقاً لمصلحة كل دولة، ولكن من لبى النداء كان أهالي جنوه فأرسلوا أسطولاً بحرياً تحت إمرة يوحنا جستنياني، كما قدم الجنويون في جلطة أربعة آلاف مقاتل لم يكن هدفهم إنقاذ المدينة على قدر هدفهم في سبق البنادقة في حال النصر وكان في المدينة ألف وستمئة من البنادقة وغرييون آخرون يعيشون فيها واعتبروا هذه الحرب على أنها حربهم. وقد كتب مراسلات إلى ملوك وأمراء الشرق المسلمين والنصارى مبيناً الخطر الذي يهددهم أنفسهم في حال سقطت المدينة وتزايد وتطور قوة العثمانيين، ولكن لم يلبي دعوته أحداً^(١).

فحاول الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دراجازيس أن يمهد لمهلة ضد الدولة العثمانية لاستغلال الفرصة بعد ذلك لكنه فشل، فحاول أن يستقطب البابا والأوربيين لنصرته، فدعا إلى مساعدة البابا الذي قبل طلبه وأرسل له بدلاً من الجنود والعتاد التي تساعد على مقاومة العثمانيين الكاردينال أيزيدور مستغلاً الظرف الذي به المدينة للتفاوض حول مسألة هامة وخطيرة وتمس العقيدة المسيحية وهي توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت زعامة البابا الغربي^(٢)، وتفيد المصادر البيزنطية واللاتينية وكذلك نيقولو باربارو وهو الطبيب الذي دون يوميات الفتح من داخل الأسوار وذكر الاجتماع الذي اجتمع فيه أيزيدور-مفوض البابا- ومجموعة من رجال الإمبراطورية مع قسطنطين الحادي عشر، والذي أسفر عن رفض تام لفكرة التوحيد تحت زعامة الكنيسة الغربية، إذ برزت مسألة العقيدة بشكل فج وكبير من رجالات الدولة للدرجة التي قال فيها الرجل الثاني للإمبراطورية البيزنطية القائد الأعلى

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ١٠٧.

(٢) كما لو أنه يشترط لتقديم الدعم للمدينة أن يكون هو الزعيم الروحي للعالم المسيحي ككل ويدخل تحت لوائه الأرثوذكس لتكوت تحت زعامة الكاثوليك.

لوكاس نوتاراس بعصبية دينية لمذهبة: لئن تحكنا في القسطنطينية عمائم الأتراك أهون من أن تحكم فينا قلانس اللاتين، وبناء عليه فإن مشروع قسطنطين باء بالفشل الذريع في هذه المسألة الدينية التي تُبين مدى الاختلاف القائم بين الكاثوليك والأرثوذكس^(١).

إن هذا الوضع الذي نذكره الآن في حال رجال القسطنطينية وتعصبهم لمذهبهم هو ما عمد عليه أعداء الأمة الإسلامية لتقسيمنا، حيث حاولوا أن يقسموا الأمة إلى مذاهب وطوائف مثل النصارى إلا أن هذه المحاولات فشلت^(٢)، فعمدوا على دعم فرق داخل العالم الإسلامي على حساب فرقة أخرى مثل دعم المتصوفة على حساب غيرهم، مما يزيد من حدة الخلاف، إلا أنهم وجدوا ضالتهم وما يريدون في فكرة القومية^(٣).

هزيمة:

ومع هذا الوضع اشتد الحصار من قبل قوات الفاتح على المدينة حيث أصبحت لا يستطيع أحداً دخولها أو الخروج منها، الأمر الذي يعني إحكام الحصار على المدينة بشكل كبير، إلي أن حدث حادث هز النفوس بدرجة كبيرة، بل وخلق قلب السلطان نفسه، مما جعله يهرع إلى شيخه آق شمس الدين، إذ حدث أن استطاعت خمس سفن جنويه بقيادة جستيناني الدخول إلى القسطنطينية وهزيمة بعض السفن العثمانية، مما قلل من عزيمة الجيش العثماني، بينما على الصعيد الآخر جعل -هذا الأمر- الأمل يتجدد مرة أخرى من أن هناك سبيل لرد العثمانيين من على أبواب القلعة، وتم تعيين

(١) نيقولو باربارو الفتح الإسلامي للقسطنطينية يوميات الحصار العثماني دراسة د حاتم عبد الرحمن الطحاوي ص ٣٤، ٣٥- عبد الفتاح حسن أبو عليّة، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ص ١١٩.

(٢) لا يمكن اعتبار الشيعة من بني الإسلام وخصوصاً الاثنا عشرية وما على شاكلتها لذلك فمن يظن أن تقسم العالم الإسلامي إلى سنة وشيعة فهو واهم، إذ أن الإسلام هو ما عليه أهل السنة والجماعة.

(٣) إن القوميات هي البديل المناسب لفكرة زعزعة استقرار العالم الإسلامي والنيل من دولة مسلمة دون تدخل الدول الإسلامية الأخرى، فلا نعجب من هؤلاء ذلك لأنهم يفكرون بطريقة القومية وما هي إلا جاهلية نهى عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنكرها الإسلام أيما نكران، فهي سبب شتات وتفرق.

جستنياني قائدًا للقوات المدافعة عن المدينة، ولم يكل رجال الكنيسة فكانوا يطوفون بشوارع المدينة ويشجعون الناس على الذهاب إلى الكنائس والتضرع لله ودعاء المسيح والسيدة العذراء مريم بل وأخذ الإمبراطور قسطنطين نفسه يتردد على كنيسة آيا صوفيا لهذا الهدف^(١).

مفاوضات:

ظهرت البسالة المنقطعة النظير من قبل الجيش العثماني وكذلك من المدافعين عن المدينة بقيادة الإمبراطور البيزنطي، الذي بدأ يعرض المفاوضات على محمد الفاتح ليخلص شعبه بكل ما يستطيع من قوة وحيلة هذه الحرب مقابل أن يدفع الأموال للجيش العثماني، ولكن رد الفاتح كان تسليم المدينة وأنه في هذه الحالة لن يتعرض بأذى لأي أحد في أنفسهم وأموالهم وعرضهم فمن شاء عاش في المدينة سيكون آمناً ومن شاء أن يرحل فيرحل في أمان^(٢) وبذلك فشلت هذه المفاوضات أيضاً، ولم يكن سبيل سوى استكمال الحرب مرة أخرى.

فرحة وهزيمة وانكسار:

كانت المشكلة الكبرى هي أن الحصار به نقص في الجزء ناحية القرن الذهبي، ولكن رغم ذلك ازدادت بسالة العثمانيون بشكل أكبر، وزادت حدة المدفعية وزادت ضربات المدفع السلطاني الجديد على أسوار المدينة، حتى استطاعوا أن يفتحوا ثغرة عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من المدينة، واندفع على إثره الجنود الانكشارية في بسالة منقطعة النظير في مواجهة السهام والنبال والزيت الحارق من كل حذب وصوب في محاولة لاستغلال هذه الثغرة، إلا أنها كانت صغيرة لم تسع لدخولهم،

(١) راجع تاريخ الدولة العثمانية رجال وحوادث ص ٣٤ وما بعدها، سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية ص ١٨٨، على الصلابي، الدولة العثمانية ص ١٠٨ وما بعدها.

(٢) محمد الفاتح عبد السلام فهمي ص ٩٢.

بالإضافة إلى مقاتلة المدافعين عن المدينة في إصرار وقوة أيضاً، مما منع هذه المحاولة من الولوج إلى داخل المدينة، إلا أن هذا الأمر أثار الرعب بشكل لا يُتخيل داخل المدينة، وكذلك حاولت بعض السفن الدخول إلى القرن الذهبي واقتحام السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، إلا أنها فشلت واستطاعت السفن البيزنطية صد كل الهجمات من هذه الجهة، مما اضطرت معه بقية السفن الإسلامية من الانسحاب والعودة مرة أخرى. وبعد يومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوربية، التي حاولت الوصول إلى الخليج وأشرف الفاتح بنفسه على هذه المعركة، حتى قيل أنه كان يدخل بحصانه في المياه حتى غاص إلى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه، وكان يقول للقائد: "إما أن تغرقها أو تستولي عليها وإذا لم توفق فلا ترجع إلينا حياً" لكن السفن استطاعت أن تعبر رغم كل الجهود المبذولة فغضب السلطان غضباً شديداً وعنفه وعزل قائد الأسطول البحري "بالطه أوغلي" بعدما اتهمه بالجبن فكان رده قائلاً "إنني استقبل الموت بجنان ثابت ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة فلقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما في وسعنا من حيلة وقوة ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة"، أدرك الفاتح حينها أن الرجل قد أُعذر فتركه ينصرف واكتفى بعزله وجعل مكانه حمزة باشا^(١).

كانت الهزائم المتتالية للبحرية العثمانية عاملاً في خفض الروح المعنوية للجيش العثماني، حتى أن خليل باشا بدأ يتكلم بقوة أنه لا بد من الرجوع وفك الحصار على المدينة بأقصى سرعة، ولكن الشيخ آق شمس الدين هداً من روع السلطان، ونصحه بأن يستعين بالله وإنهم إن شاء الله منصورون، وهذا مصداقاً لقوله -صلي الله عليه وسلم- « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١١٢.

تعالى»، ومن نعم الله تعالى أن أخذ السلطان محمد بقول شيخه شمس الدين، وبناء على ذلك استمر في الحصار.

عبقرية لا مثيل لها:

بعد أن استعان السلطان ومن معه بالله عز وجل لاحت في الأفق فكره رائعة للسلطان محمد الفاتح تعد وفقاً لمعطيات عصره معجزة من معجزات الزمان، إذ لم يسبقه أحد من قبل بتنفيذ مثل هذه الفكرة.

إذ فكر السلطان محمد الفاتح بنقل السفن الحربية إلى القرن الذهبي، وهو العقبة الدؤوب التي تقف أمامهم ليستكمل بها الحصار، وهي بنقل السفن من ميناء "بشكطاش" إلى القرن الذهبي وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي "جلطة" خوفاً من سفن الجنوبيين وقد كانت المسافة ثلاثة أميال، ولم تكن الأرض مبسوطة إذ كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة، ولذلك تحرك بسرعة وخفة وأعطى الأمر الذي بدأ على إثره بتمهيد الأرض وتسويتها في ساعات قليلة، وأتي بالواح من الخشب دُهنّت بالزيت والشحم ثم وضعت على الطريق الذي مهد لتتزلق عليها، مستغلين خفة السفن وصغر حجمها، وقد جرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب ثلاثة أميال ونزلت في القرن الذهبي بالليل وقد كان الفاتح يشرف على هذا الأمر بنفسه، ولقد كان منظر السفن بأشرعتها المرفوعة وهي تسير في وسط الحقول وكأنها تسير وسط البحار منظرراً غاية في الروعة والإبهار والفرحة للجانب المسلم، وغاية في الرعب والخوف والفرع في الجانب الآخر وداخل المدينة، الأمر الذي انتشرت معها الشائعات وأن المدينة ستفتح وغير ذلك من الأمور^(١).

(١) على الصلابي الدولة، العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١١٣: ١١٦.

وبعد ذلك استمر دك المدينة بالمدافع مع اللجوء إلى فكرة عبقرية أخرى وهي حفر الانفاق للدخول للمدينة من أسفلها، إلا أن أعداداً كبيرة توفيت على أثر ذلك إذ علم المدافعون عن المدينة بذلك والقوا بالزيت المغلي المحرق داخل الانفاق، مما مات معه الكثير حرقاً وخنقاً، إلا أن ذلك لم يفت في عضد الجيش العثماني بل فكروا في حيل أخرى وأفكار عبقرية جديدة كصنعهم لقلعة خشبية ضخمة متحركة من ثلاثة أدوار وبارتفاع أعلى من السور وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة، وكان الذين في الدور الأعلى يقذفون الرماة بالنبال لكل من يطل براسه وقد وقع الرعب في نفوس الجميع، إلا أن هذه الحيلة أيضاً لم تنجح بالكلية في اختراق الحصون، وإن كانت على وشك القيام بذلك، إلا أنها جعلت الرعب في كل حذب وصوب داخل المدينة، فلا يعلمون من أين سيأتي العثمانيون أمن أسفل منهم أم من أعلاه أم من الأبواب، أم من البحر، فالأمر أصبح هاجساً للجميع.^(١)

المفاوضات الأخيرة:

أيقن الفاتح أنه على وشك فتح المدينة، فحاول أن يدخلها بسلام فعرض على الإمبراطور خروجه دون إراقة الدماء مقابل تسليم المدينة، ويعدده بأن الجميع لن يتعرض لهم بأي أذى، إلا أن الإمبراطور أرسل رده قائلاً "إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه يقسم أن يدافع عنها حتى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يموت تحت أسوار المدينة"، ولما وصل الرد للسلطان قال "حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر"^(٢).

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١١٣: ١١٥.

(٢) راجع سالم الرشيدى، محمد الفاتح.

الفتح الكبير:

استعد السلطان الفاتح بكل ما أوتي من قوة ودعاء وتضرع لله تعالى بأن يكون هو المذكور بالحديث الشريف، وتجهز على أكمل صورة وعند الساعة الواحدة صباحاً من يوم ٢٠ جمادي الأولى (سنة ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م) بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن صدرت التعليمات والأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار يدكونها دكاً وخاف البيزنطيون خوفاً كبيراً وشرعوا بدق النواقيس في الكنيسة وكان الهجوم النهائي برياً وبحرياً في آن واحد، وقد قدمت تضحيات كبيرة^(١) في هذا الفتح لا تعد ولا تحصى إلى أن تم ذلك بفضل من الله، وكان النصر الكبير العظيم بفتح أعتى المدن بفتح مدينة القسطنطينية، تلك المدينة التي استمرت نحو ١١٢٥ عاماً عاصمة لروما الشرقية، فأصبحت بلد ودار الإسلام وأطلق عليها إسلامبول.

مفارقات:

ومن المفارقات الغريبة في فتح القسطنطينية أنها أسست في عهد قسطنطين الأول وسقطت في عهد قسطنطين الحادي عشر، بل وسقطت في الشهر الذي أسست فيه وهو شهر مايو.

معاملة أهل المدينة:

توجه السلطان محمد إلى كنيسة آيا صوفيا حيث أطلق عليه بعد هذا الفتح لقب السلطان محمد الفاتح، وكان دخوله ظهراً ومنع أي اعتداء وأمر بأن يؤذن لصلاة الظهر في الكنيسة لتعلن مسجداً وتم طمس كل الصليبان التي فيها، وطمأن القساوسة والرهبان على حياتهم، وكذلك أهل المدينة، وأنهم سيكونون في أمان تام، وحفظ

(١) على الصلابي، العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١٢٥.

أملأهم وأرواحهم وأعطاهم نصف الكنائس وجعل الآخر مساجد، ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريرك لهم فاختاروا "جورج سكولاريوس" واعتمد السلطان ذلك وجعله رئيساً لطائفة الأروام وأعطاه حرساً انكشارياً، ومنحه حق الحكم في القضايا المتعلقة بالروم مع فرض الجزية عليهم^(١).

نتائج الفتح:

كان لفتح مدينة القسطنطينية أثراً كبيراً على العالم أجمع دون استثناء، ففي العالم الإسلامي، كان له أثر لا مثيل له من رفع الروح المعنوية إلى عنان السماء، إذ أن هذا هو حلم الأجداد وبشرى النبي الكريم، فهو الحلم الذي قتل لأجله الكثير، وبذل أملاً في تحقيقه الكثير والكثير، وها هو يتحقق على يد الفاتح رحمه الله، وعلى إثر ذلك فقد أرسل السلطان الفاتح رسلاً إلى ربوع العالم الإسلامي في فارس والهند والممالك والأشراف وغيرهم يخبرونهم بهذا الحدث التاريخي الذي لم ولن يتكرر في التاريخ، وحمل العالم محمد الزيتوني رسالة إلى شريف مكة ومعه ألفين من القطع الذهبية، وسبعة آلاف أخرى توزع على علماء مكة وفقائها، وتليت في الحرم رسالة بشرى الفتح، وكان ذلك في عهد الشريف بركات بن حسين ابن عجلان^(٢)، ومما ذكر المؤرخ "ابن تغر بردي" عن هذه الواقعة، وكذلك ابن إياس في وصف الناس وحالهم أنهم أقاموا الأفراح وعلقت الزينة في القاهرة بل كان الناس جميعاً تتشارك في وضعها لأيام وليال مبشرين أنفسهم بهذا الفتح المبين الذي بشر به الحبيب محمد، فكان ذلك حافزاً معنوياً للأمة الإسلامية نحتاج إلى عشر معشاره الآن ليرفع الروح المعنوية لدى المسلمين في وقت تكالب علينا الأعداء من كل حذب وصوب، فإننا الآن في أمس الحاجة لأي نصر على هؤلاء أو لمن يقف في وجههم

(١) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٦٥.

(٢) عبد الفتاح حسن أبو عليه ص ١٢٦ بتصرف.

دون خنوع وخضوع مثلما يفعل الحكام المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله، فمثل هذه المواقف يعلم الغرب أثرها القوي على النفوس المسلمة، لذلك يعتمد إلى التعقيم الإعلامي عن مقتل الجنود الأمريكيان هنا وهناك، أو عن الهزائم في منطقة ما أو دولة ما أو خسائر مالية أو ضرب أماكن عسكرية لهم، ذلك لأن هذا يشعل في النفوس العزة من جديد وهذا ما لا يتمناه الغرب، بل يخشى من قيام دولة واحدة مسلمة على عقيدة صحيحة، لأنهم يعلمون تمام العلم، أن هذه الدولة يمكن أن تنتصر على العالم كله، ولكن بشرط أن تكون على عقيدة صحيحة، حيث إذا نادى فستجد من يلبي، وهذا ما صرح به كثير من مسؤولي الولايات المتحدة.

ومن ناحية الأتراك فقد تشجعوا على التوغل في أوروبا متطلعين إلى السيادة على إيطاليا التي فيها كرسي البابوية الغربية. فبسقوط القسطنطينية، يكون قد سقط الحاجز والقبلة الذووب التي كانت مانعاً لانتشار الإسلام في أوروبا، إذ بعد ذلك انتشر الإسلام إيماناً وانتشاراً، بل وطبعت القسطنطينية بالطابع الإسلامي ولكن بشكل تدريجي، وأطلق عليها إسلامبول الذي أصبح إستانبول أي مدينة الإسلام^(١).

وبالنسبة للمؤرخين فقد اعتبر الكثير منهم أن هذا الفتح هو بداية للعصور الحديثة ونهاية للعصور الوسطى، إذ بهذا الفتح تغير وجه العالم الغربي بشكل كامل من حيث طبائعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفلسفية، الأمر الذي يجعل وبحق هذا الفتح نقلة نوعية غير متكررة في التاريخ مما يعتبر بداية للعصور الحديثة، حيث سطع في الأفق عصر الإمبراطورية العثمانية بدلا من السلطنة أو الدولة.

وبالنسبة لدول أوروبا فقد انتابها الفزع بهذا الخبر ناهيك عن الخزي والعار وتجسم لهم خطر الجيوش الإسلامية القادمة من استانبول وبذل الإعلام المتمثل في طبقة الشعراء والأدباء في تصوير المسلمين بأشنع الصور لتأجيج براكين الغضب تجاههم

(١) المرجع السابق ص ١٢٦.

في نفوس النصارى، وعقد الأمراء والملوك الاجتماعات التي تنادي بنبذ الخلافات والشقاق التي بينهم والتوحد ضد الخطر الإسلامي القادم، وكان البابا "نيقولا الخامس" من أكثر المتأثرين بهذا الخبر إذ صرف كل جهده لتوحيد إيطاليا وشجعها على قتال المسلمين، وبالفعل نجح في تشكيل بدايات حلف الذي كاد أن ينجح لولا أن الموت قد جاءه ومات البابا نيقولا الخامس ولم تستكمل هذه الجهود، إلا أن الأمير فيليب دوق بورجوندي حاول الاستكمال فاستنفر ملوك النصارى، وحذا حذوه البارونات والفرسان وكل متحمس لعقيدة النصارى، حتى أصبحت عقيدة قتال المسلمين حرب مقدسة وسبباً لدخول الجنة هي العقيدة التي انتشرت في جموع العالم المسيحي بعد ذلك، وكانت سبباً من أسباب سقوط الأندلس من أيدي المسلمين، وقتل أهلها شر قتله بعقيدة ملوثة متطرفة، وبطريقة أعمت القلوب والعقول عن رؤية الحق.

وقد حاول البابا "بيوس الثاني" بعد ذلك تجميع حملة صليبية بكل ما أوتي من وسائل لتأجيج نار الحقد على المسلمين بصفة عامة والأتراك بصفة خاصة، وبالفعل كادت أن تنجح تلك الجهود في شن الحملة إلا أن المشاكل الداخلية لكل دولة جعلتها تعتذر عن البدء فيها، ففرنسا وإنجلترا قد استنفذتا قوتيهما نتيجة حرب المائة عام وإسبانيا التي انشغلت بقتل المسلمين وطردهم من إسبانيا، كما أن بريطانيا انشغلت في الحرب الأهلية ومشكلة إعداد الدستور، والجمهوريات الإيطالية فكانت توطد علاقتها بالدولة العثمانية مكرهة تارة وحباً في المال تارة أخرى، فانتهى الأمر إلى أن أصبحت المجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية وحدهما، أما البندقية فعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع الدولة العثمانية، والمجر فقد انهزمت جيوشها أمام جيوش العثمانيين واستطاع الفاتح أن يضم الصرب واليونان والأفلاق والقرم والجزر الرئيسية في الأرخبيل، وكان ذلك في فترة قصيرة حيث داهمهم في سرعة على إثر النصر وشتت شملهم مستغلاً الحمية لدى الجيش. وحاول البابا بيوس الثاني إقناع الأتراك باعتراف النصرانية -وهو الأمر المضحك في ذلك- أملاً في أن يفعل الفاتح مثلما فعل قسطنطين من قبل، إلا أن الأوضاع تختلف فحتى قسطنطين لم يدخل النصرانية

لاقتناعه بها وإنما رغبة في تحقيق مصالح سياسية، فكل المؤرخين تؤكد أنه عُذِّدَ بعد وفاته على فراش الموت، إي لم يُعَمِّدَ في حياته، والتعميد هو البداية لدخول العقيدة النصرانية مثل الشهادة في الإسلام، أما الفاتح فهو مسلم على عقيدة صحيحة ومنتصر وكل الاتجاهات الآن تتجه صوب الدولة المسلمة المنتصرة فكيف له أن يظن مثل هذه الأمور!

سبل العثمانيين في نشر الإسلام داخل أرجاء القسطنطينية:

في البداية قام الفاتحون بتغيير نمط المدينة إلى الطابع الإسلامي ولكن بتغيير تدريجي، حتى يتقبله أهل المدينة ولا يكون لافتاً بنظرة عدائية إلى المعالم الإسلامية، وأحسنوا المعاملة جيداً للنصارى وحاولوا نشر الإسلام بثتى السبل:

أولاً: سلخوا سياسية اللين في معاملة الأسرى من المسيحيين، وخير دليل على ذلك معاملة السلطان الفاتح لأسرى المدينة، حيث كان يعتق من يثبت إخلاصه حتى ولو بقي على دينه وعقيدته، مما كان له بالغ الأثر في نشر الإسلام كما أعطاهم السلطان الأمان لحظة أن وطأت قدماه إسطنبول، ولم يثبت أن قام جندي واحد بالقتل أو النهب^(١)، وذلك عكس ما حدث عند دخول المدينة من قبل النصارى سابقاً إذ دمرت عصابات من المسيحيين المعابد الوثنية وقتلوا الكهنة الوثنيين شر قتله بل وأقيمت مذابح في حقهم بعد ذلك حتى القرن السادس الميلادي^(٢).

الاحتفال بمن يعلن إسلامه، وإمداده بكل السبل التي تعينه على الحياة الدينية الجديدة، ونشر ذلك بالمساجد مع تبسيط أداء الشعائر الدينية حتى يتسنى للمسلم الجديد فهمها وأداءها بسهولة ويسر. الأمر الذي جعل كثير ممن أسلم أن يدعوا ذويهم للإسلام.

(١) زياد أبو غنيم، السلطان المجاهد محمد الفاتح ص ٧٥، ٧٦-أمانى جعفر صالح الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية ص ١٥٢.

(٢) أمانى جعفر صالح الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية ص ١٥٢.

وانتشر الزواج رغم اعتراض الكنيسة من الزواج بالمسلمين ونتج عن ذلك دخول كثير من النساء في الإسلام، كما أن هذا لم يكن بالإكراه إذ بقي البعض منهن على دينهم رغم الزواج مما رفع روح الألفة والتسامح والبعد عن التعصب^(١).

مرحلة ما بعد الفتح:

بعد أن تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح القسطنطينية توجه لبسط سيطرته على المناطق المحيطة.

الصرب:

وكان من بدايات تحرك الفاتح نحو المناطق المحيطة كانت صوب الصرب، وذلك عندما وصلت الأخبار للفتح بأن أمير الصرب التابع للعثمانيين يجري اتصالاً مع الصليبيين نحو حملة صليبية ضد الدولة العثمانية فطلب منه تسليم مفاتيح بعض القلاع الصربية لتأمين الحدود، إلا أن طلب الدولة العثمانية قبيل بالرفض، الأمر الذي اضطر معه الفاتح لتجريد عدة حملات نحو بلاد الصرب؛ مما أجبر أميرها برانكوفيتش من الفرار منها إلى المجر في كل مرة، وكان السلطان الفاتح يكتفي بتأكيد نفوذه على الصرب ويفتح بعض القلاع قبل عودته، فلما توفي برانكوفيتش (عام ١٤٥٧م) ثم توفي من بعده ابنه الصغير "لازار" دون أن يترك وريثاً للملك الأمر الذي فتح الباب للتنافس على الصرب بين المجر والدولة العثمانية ومن ثم كلف السلطان محمد وزيره محمود باشا بفتح مدينة سمندرة عاصمة الصرب حيث فتحها بعد حصار قصير في (١٤٥٩م) وبذلك ضمت بلاد الصرب لأملاك الدولة العثمانية وأصبحت سمندرة قاعدة عسكرية أولى ضد المجر وذلك حتى فتح بلجراد^(٢).

(١) أمانى جعفر صالح، الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية ص ١٥٢.

(٢) سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية ص ١٩٥.

المورة^(١):

وفي المورة كان أخوي الإمبراطور البيزنطي المقتول يتنافسون على الحكم مع أسرة كانتا كوزين فلجأ الأخوين ديمتريوس وتوماس إلى الدولة العثمانية طلباً المساعدة، وبالقسط قد لبي السلطان الطلب حتى مكنهم من السيطرة على المورة مقابل تقديم خراج سنوي، ولكن ما حدث بعد ذلك أنهما تصارعا على الحكم فيما بينهم نتيجة الاختلاف في تقسيم البلاد، وتعدى توماس بمساعدة الأرناؤوط على ممتلكات أخيه ديمتريوس ورفض تقديم الخراج السنوي فأرسل الأخير يطلب مساعدة السلطان الذي لبي الطلب، وتوجه السلطان بجيوشه في الوقت الذي كان وزيره محمود باشا ييسر سيطرته على الصرب، ودخل السلطان المورة وانساح فيها، وقام بفتح قلاع كثيرة فيها حتى استسلم ديمتريوس ووقع اتفاقية^(٢) مع الفاتح، ولكن الاتفاق لم يستمر طويلاً إذ نقض توماس العهد فجرد الفاتح حملة جديدة قادها بنفسه عام ١٤٦٠م إذ توجهت إلى "برزخ كورنت"، فسلم ديمتريوس عدد من القلاع وأسرع توماس بالفرار نحو روما^(٣)، والحقيقة أن السيطرة على بلاد المورة كانت من أهداف الفاتح إذ بذلك لا

(١) المورة: وهي شبه جزيرة، وتشكل الجزء الجنوبي من بلاد اليونان.

(٢) كانت تنص على البنود الآتية:

١- الحفاظ على الأرواح وأموال أهالي مدينة كورنت عندما تدخلها الجيوش العثمانية.

٢- بقاء المدن والقلاع التي استولى عليها العثمانيون في المورة، وهو ما يعادل ثلث مساحة المورة تحت الإدارة العثمانية.

٣- يقوم كل من ديمتريوس وتوماس بتقسيم الأراضي الباقية بينهم على أن يقوموا بأداء خراج سنوي للدولة يقدر بثلاث الاف ذهبية.

٤- الاستعانة بأميري المورة وبقواتهما في حالة وقوع أي اعتداء من الخارج على الدولة.

(٣) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٩٧، ١٩٨- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٨

يستطيع أحد أن يخرج ويطالب بحق في القسطنطينية لذلك كان يلبي المساعدات لهؤلاء حتى يكون له موطأ قدم هناك إلى أن استطاع السيطرة عليها بعد ذلك.

جنوبي البحر الأسود:

كانت منطقة جنوبي البحر الأسود تضم مستعمرات أماصرا والتي كانت تتبع لجنوه، وتضم البلاد التابعة لجندار ومينائي سينوب وسمسون^(١) التابعتين للدولة العثمانية بالإضافة إلى بعض الأراضي التابعة للروم في طرابزون.

مستعمرة أماصرا: وهي إحدى المستعمرات التجارية والهامة، وكانت تدفع الجزية للعثمانيين بموجب معاهدة بين الطرفين، وفي محاولة من جنوه لأخذ منطقة غلطة فاعتبر السلطان الفاتح هذه فرصة وأصدر الأمر لمحمود باشا ليتحرك صوب أماصرا بحراً وتحرك هو برأً فما علم أمير أماصرا بذلك حتى قام بتسليم المدينة وقلعتها عام ١٤٦٠م^(٢).

وهجم على ميناء "أماستريس" وكان مركزاً تجارياً لأهالي جنوه المتواجدين بهذه المنطقة، ولكون سكانها من التجار ولا يفرق معهم أي دين المهم أن تروج تجارتهم ففتحوا الأبواب على مصراعيها ودخل الجيش العثماني بعد أن أعطى لهم الأمان، ثم أرسل إلى "إسفنديار" أمير مدينة سينوب يطلب منه تسليم القلاع والخضوع له ولأجل تعزيز هذا أرسل أحد قواده مع عدد عظيم من المراكب لحصار الميناء

(١) سمسون: أو سامسون أو صامسون وهي مدينة تركية في شمال شرق البلاد علي البحر الأسود ومن هذه المدينة انطلق أتاتورك ليعلن حرب الاستقلال.

(٢) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ١٩٧، ١٩٨.

فسلمها إليه الأمير وأقطعه الفاتح أراضي واسعة بأقليم بيثنيا وهو أحد أقاليم الأناضول كمكافئة له لخضوعه دون حرب^(١).

إمارة أبناء جندار: لما عاد الفاتح إلى بورصة أرسل إلى إمارة أبناء جندار يخبرهم بتوفير الاحتياجات اللازمة لحملة التي ستكون على طرابزون، وتوفير الاحتياجات للأسطول الذي سيصل إلى سينوب، وضرورة المشاركة في الحملة، وهكذا وري السلطان في حملته على طرابزون بحملته على سينوب، ولما التقت القوة المشاركة بقوات الفاتح قام السلطان بتعيينه على سينوب وعين أخيه المحجوز لديه على قستموني فلما علم حسن بك ابن إسماعيل ابن جندار تحصن في سينوب؛ فدخلها الوزير محمود باشا ودخلت في ممتلكات الدولة، أما قستموني فاعترف أهلها بأحمد أميراً لجندار بعد أن كان محجوزاً لدى أخيه، إلا أنه رفض تنفيذ قرار نقله إلى سنجقية المورة ثم فر هارباً فضمت الإمارات للدولة العثمانية^(٢).

طرابزون:

كان يحكمها في هذه الفترة داويد كومنن الذي قطع الخراج الذي يُدفع للدولة العثمانية، وراح يطلب مساعدات البابا في روما، بل وطالب السلطان بما دُفِعَ له من قبل من أموال، الأمر الذي جعل السلطان يتحرك لتصفية هذه البؤرة الصليبية من المنطقة، فنجح بضم طرابزون بعد معركة فيها عام ١٤٦١م، وبذلك يكون الفاتح نجح في جنوبي الأسود تماماً^(٣).

(١) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٩.

(٢) سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٠، ٢٠١.

الأفلاق:

كان حاكمها لا يتردد في مساعدة الأعداء كلما ساحت الفرصة لذلك ولذلك حرص الفاتح ومن قبله على توطيد الحكم في هذ المناطق، ونجح في مساعدة الأمير (ولاد) الذي كان محجوزاً لديه في توليه إمارة الأفلاق عام ١٤٥٦م، وإن كان قد أظهر الطاعة لفترات طويلة، إلا أنه استغل انشغال الفاتح بحربه في البحر الأسود، وراح يعلن العصيان ويخرب المدن وينهبها كنكبولي وويدين وغيرها، فخرج السلطان بجيشه لملاقاته ولكنه فر هارباً إلى ملك المجر، وبذلك عين الفاتح أخيه الذي كان محجوزاً أيضاً لديه وبذلك دخلت الأفلاق في طاعة الفاتح وواحدة من ولايته ذات النظام الخاص^(١).

البوسنة^(٢) والهرسك:

كانت المنافسة شرسة بين العثمانيين والبنادقة؛ ولذلك كان حتمية تأمين الحدود والتغرات التي من الممكن أن تنفذ منها وعلى رأس ذلك كانت البوسنة والهرسك.

ولما رفض حاكمها "طوماشافيتش" دفع الخراج السنوي، جرد الفاتح حملة ضده فتحصن في قلعة كيلوج التي توجه إليها وزيره محمود باشا، وتوجه الفاتح بنفسه إلى عاصمة البوسنة في "بايجه" وحاصرها ونجح في فتحها، كما نجح محمود باشا في إجبار طوماشافيتش على الاستسلام، ولم تكد الأخبار تصل إلى حاكم الهرسك حتى

(١) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠٢، ٢٠١.

(٢) البوسنة: إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغوسلافي الآن وعاصمتها سرايفو وأكثر أهلها من المسلمين.

بأدر بالاستسلام للفتح وأعلن التبعية له وبذلك ضمت البوسنة والهرسك للدولة العثمانية عام ١٤٦٣م^(١).

حرب الستة عشر عاماً:

لقد كان لبسط نفوذ العثمانيين على بلاد المورة والبوسنة والهرسك والخزر في البحر الأسود، ناهيك عن فتح القسطنطينية بالغ الأثر في إشعال النفوس تجاههم بكل حقد وغل منتهزين أي فرصة للانقضاض عليها وبتشجيع من البابا الذي راح يؤجج النفوس هنا وهناك، الأمر الذي أشعل حرباً استمرت لمدة ستة عشر عاماً، بدعم من حلفاء أوروبا كالمجر والبندقية والبغدان^(٢) والبابا وغيرهم.

إرهاصات الحرب:

كانت البداية مع حدوث سرقة من أحد الخدم الذي استطاع أن يسرق نحو مائة ألف آقجة عثمانية والتجأ إلى مدينة "كورون"^(٣) التي كانت تابعة للبنادقة -العدو اللدود للدولة العثمانية- والتي رفضت تسليم السارق بحجة أنه دخل للمسيحية إلا أن الحقيقة أن الأموال اقتسمت مع محافظ المدينة البندقي، فاتخذ العثمانيون ذلك سبباً لدخول مدينة "آرجوس" تأديباً للبنادقة الذين أرسلوا عمارة بحرية أنزلت ما بها من جنود إلى بلاد المورة فثار أهلها وقاتلوا العثمانيين المحافظين على بلادهم وأقاموا ما كان تهدم من سور "برز كورنت" لمنع وصول المدد العثماني إلا أنهم وفور علمهم أن الفاتح قادم ومعه ثمانين ألف من الجنود حتى دب الرعب في قلوبهم؛ فعادوا على أعقابهم

(١) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠٢، ٢٠٣- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٧٠

(٢) البغدان: هي المنطقة الشرقية من رومانيا ومتاخمة لحدود الاتحاد السوفيتي.

(٣) تقع من الناحية الشرقية من الرأس الجنوب الغربي داخل الخليج.

وبالفعل دخل العثمانيون المدينة بدون معارضة كبيرة واسترجعوا ما أخذ من قبل وأرجعوا السكينة في البلاد، وفي السنة التالية أعاد البنادقة الكرة ولكن بدون فائدة^(١).

انطلاق الحرب:

استمرت هذه الحرب ستة عشر عام وذلك من عام ١٤٦٣م حتى عام ١٤٧٩م وقد بدأت البندقية الحرب بالهجوم على المورة عام ١٤٦٣م واحتلت قسماً كبيراً منها وحرّضت الأهالي على العصيان للدولة العثمانية، وفي نفس الوقت حدثت أولى المواجهات بين العثمانيين والبنادقة أمام قلعة "كورينتوس"، وبالتزامن مع ذلك كان ملك المجر ماتياس بن هونيادي يدخل البوسنة بقواته ويحتل عاصمتها، وكانت أساطيل الحلفاء الأوروبيين تقوم بالمهاجمة على مدينة أنطاليا جنوبي الأناضول، بينما راح أمير البغدان يعلن خروجه على الدولة في شمالي البلقان، ويقوم حاكم آق قويونلي أوزون حسن بتحريض أبناء قره مان الذين يستغلون أي فرصة للنيل من الدولة العثمانية^(٢). أي أنها كانت حرب شاملة من الداخل والخارج، بأعداء ظاهرين وآخرين مفترض أنهم متحالفين مع الدولة وبينهم نسب وصهر كأبناء قره مان.

وهنا برزت العبقرية العسكرية لمحمد الفاتح الذي استطاع بفضل الله أن يسيطر على الأوضاع رغم كل هذا الهجوم الذي حدث ضده، إذ خرج هو بجيشه لملاقاة الجانب الأقوى وهو الجانب المجري عام ١٤٦٤م فتوجه إلى البوسنة نحو العاصمة التي دخلتها الجنود المجريين وحاصرها حصاراً شديداً مما أجبر الجنود المجريين على الفرار وتوجه سليمان باشا إلى البغدان التي أعلنت العصيان إلا أنها أخفقت في رد العصاة فتوجه الفاتح بنفسه بعد ذلك إلى هناك عام ١٤٧٦م ولما رفض أميرها

(١) راجع محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٧٠، راجع سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠٥.

(٢) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠٦.

شروط الفاتح وتسليم المدينة دخلت جيوش الفاتح وانساحت في المدينة وخضعت للدولة العثمانية، وفي الأناضول ونتيجة لتحريض آق قويونلي خرج الأمير القره مانى بير أحمد على الدولة العثمانية لدعم التحالف الصليبي الذي شكله فجرد السلطان حملة ضده وقادها بنفسه عام ١٤٦٦م سيطر فيها على قونية، فر على إثرها بير أحمد إلى أوزون حسن (حسن الطويل) حاكم الخرفان البيض (آق قويونلي)^(١).

كان البابا في هذه الاثناء يقوم بالتحريض على الدولة العثمانية بشكل كبير بهدف شن حملة صليبية أكبر للإجهاز عليها تماماً إلا أنه توفي قبل إتمام مشروعه ولكن كان لاستجابة إسكندر بك أثر كبير إذ كانت مشاركته في هذه الحرب التي كانت سجالاته بينه وبين الفاتح الذي لم يقوى على هزيمته أو دخول بلاده إلا بعد وفاته ١٤٦٧م، وإن كان استطاع السيطرة على بعض القلاع والحصون في بلاد الأرناؤوط، إذ كان من أشد خصومه وأكثرهم كرهاً للدولة العثمانية التي حاربها ما يزيد عن خمسة وعشرين عاماً، ولكن في نهاية الأمر تم النصر للدولة العثمانية ودخلوا مدينة "قرويا" العاصية عليهم عام ١٤٧٨م واستطاعوا بعد ذلك دخول "إسكندرية الأرناؤوط" (إسكودرا) في يناير من عام ١٤٧٩م^(٢).

أما على جهة الأناضول فقد كان حاكم آق قويونلو^(٣) الذي يدعم أمراء قره مان ضد الدولة العثمانية يتحين أي فرصة للقضاء عليها رغم أنه من المفترض مسلم وعلى

(١) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٦.

(٣) الآق قويونلي، الأغ قويونلو، الخرفان البيض: يرجع أصل التسمية إلى بعض العادات القديمة والتي أضفت طابعاً مقدساً على هذا الحيوان (الخروف (وصلت حد جعله حامى القبيلة وشعارها. أما عرقياً فتتحدّر القبيلة من الأتراك الأغوز أو ما يعرف بالغز، أي من القبائل التركمانية بدأت القبيلة منذ 1340م في شن حملات منظمة ضد بيزنطة كان هدفها الأول السلب. ثم توسع الأمر ليشمل سورية والعراق. تمكنت بعدها من الاستيلاء على منطقة ديار بكر وأمد. كما عقدت الأسيرة مصاهرة مع حكام إمارة طرابزون، وقد كانت الآق قويونلو معروفة بالمذهب الشيعي، ولكن أسرة أوزون اتخذ المذهب السني مرعاً لها، وكانت توي العلاقات مع طرابزون بزواج كاترينا من آل كومنينس وقد أصبحوا بعد أباطرة. ويعتبر أول حكامهم كان قره يلك عثمان-1389م) والذي عينه تيمور لئلا يحاكم من قبله على ديار بكر وما حولها عام 1402م. بعد سنة 1435م. بدأ

منهج أهل السنة كأبناء قره مان إلا أن حب السلطة يطغى على أمور كثيرة، خصوصاً عندما تكون العقيدة غير صحيحة.

فبعد فرار بير أحمد إليه وسيطرة العثمانيين على قونية ومن بعد ذلك بعام لارنده فلم يجد أوزون حسن إلا الحرب المباشرة مع الدولة العثمانية، فدعم بير أحمد وقاسم بك بنحو عشرين ألف من الجنود يقودهم ابنه بوسفجه ميرزا عام ١٤٧٢م وبالفعل تمكنت من الهجوم على توقات ولارنده وأقشهر ووصلت حتى بكشهر، إلا أنها لقيت هزيمة قاسية أمام الجيوش العثمانية بقيادة الشهزادة مصطفى، حيث سقط بوسفجه ابن أوزون حسن أسيراً وفر أحمد أوزون حسن وفر قاسم بك إلى إيج آيل. فقد كان الوضع الشديد الذي تمر به الدولة العثمانية لا يحتمل خروج أوزون حسن عليها بهذه الجيوش؛ الأمر الذي جعل الفاتح يتوجه بنفسه لملاقاته في معركة فاصلة عند موضع قريب من نهر الفرات يقال له "أوتلوك بلي" وكان النصر للفاتح، ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عضد دولة آق قويونلي، إذ استمر دعمهم لأبناء قره مان، وبينما كان جيش الفاتح يواجه أوزون حسن كان قاسم بك بدعم من أساطيل الحلفاء في إيج آيل يسيطرون على قلاع سليفكه وصيغين قورقو، ولذلك رأى الفاتح أن الوقت قد حان للقضاء على أبناء قره مان نهائياً وإزالة هذه الشوكة التي في ظهر الدولة والتي تفت في عضدها دائماً وتنتهز أي فرصة للقضاء عليها والخروج عليها، فولى وجهه إليها وأرسل الوزير "كديك أحمد باشا" إلى "آرمناك" ثم "سليفكه" فضمها كما استعاد

التنافس بين هذه الأسرة وأسرة الخرفان السود (القراقوينلو) وفقدت الأولى العديد من مناطق نفوذها لصالح الثانية. وقد بلغت الدولة أوجها في عهد حسن أوزون 1453-1478 م الذي استطاع القضاء على دولة الخرفان السود ثم بدأ في ضم أراضيها إلى مملكته منذ 1469م. استطاع هذا الأخير أن يهزم التيموريين في معركة حاسمة سنة 1459م. زادت أطماعه في الاتساع وبدأ منذ 1459م. في شن حملات على جورجيا مكنته من الاستيلاء على حصن كييف 1462م، ثم خرتيرت) هاربوت 1465 (م. عاد بعد سنة 1471م إلى كرمان ليواجه العثمانيين ورغم تعاونه مع القوات المسيحية إلا أنه انهزم أمامهم سنة 1473م.

القلاع المحيطة بها وفر بير أحمد وقاسم بك إلى أوزون حسن وخلصت بلاد القره مان نهائيا للدولة العثمانية^(١).

وصية الفاتح:

وقد أوصى الفاتح وهو على فراش الموت وصية تعبر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة وقيمة مبادئه التي آمن بها والتي يتمني من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها "هأنذا أموت، ولكنني غير آسف لأنني تارك خَلْفًا مثلك؛ كن عادلاً صالحاً رحيماً، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي؛ فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قَدِّم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء، ولا تفتر في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمُّون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجَانِبِ البدع المفسدة، وباعد الذين يُحَرِّضُونَكَ عليها، وَسِعْ رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تَنْبَدَّ، إِيَّاكَ أَنْ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى مال أحد من رعيَّتِكَ إِلَّا بِحَقِّ الإسلام! واضمن للمعوزين قُوَّتَهُمْ، وابذل إكرامك للمستحقِّين"^(٢).

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤١١ - سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠٨.

(٢) على الصلابي، الدولة العثمانية أسباب النهوض والسقوط ص ١٦٥، ١٦٤.



الشيخ آق شمس الدين

إن فتح القسطنطينية من الأمور العظيمة التي لا تخفى على أحد في العالم أجمع سواء من المسلمين، أو النصارى، أو اليهود أو حتى غير هؤلاء جميعاً، فهذا الحدث قد أحدث ضجة قلبت العالم كله رأساً على عقب، بل غيرت مجرى التاريخ بحق.

فالقسطنطينية ذات مكانة كبيرة في العالم أجمع فنجد نابليون قد قال مرة في حقها "لو كانت الدنيا مملكة لكانت القسطنطينية عاصمتها"^(١)، بل إن هذا الفتح قد بَشَّرَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال "التفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش"^(٢)، وبالقطع كلنا نعلم عن محمد الفاتح القائد الفذ العظيم فاتح القسطنطينية، ولكن للأسف الشديد قل من يعلم عن ذلك الرجل الذي عزز الفكرة في رأس الفاتح وأقنعه تمام الإقناع أنه هو المقصود بهذا الحديث، وأنه هو الذي سيكون الفاتح إن شاء الله.

أتعلمون من هذا الرجل العظيم الذي يعتبره البعض الفاتح المعنوي للقسطنطينية^(٣)، إنه الشيخ العالم آق شمس الدين رحمه الله، ولذلك فحري بنا أن نعلم عن هذا الرجل ولو القليل.

التعريف به:

هو محمد ابن حمزة الدمشقي الرومي ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح عالماً من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني ونسبه

(١) على حسون، تاريخ الدولة العثمانية.

(٢) مسند الامام احمد (٣٣٥-٤).

(٣) على الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١٢٩.

يتصل بالخليفة الراشد أبو بكر الصديق. ولد بدمشق عام ٧٩٢هـ - ١٣٨٩م حفظ القرآن وهو ابن السابعة، درس في أماسيا^(١) ثم حلب ثم أنقرة وتوفي عام ١٤٥٩م، وهو الذي علّم الفاتح ورباه^(٢).

وقفة:

وهنا لابد أن نقف وقفةً هامةً في تربية العظماء في الدولة الإسلامية، بل في التاريخ الإسلامي قاطبة ستجد أن من حقق إنجازاً أو فتحاً عظيماً لابد أن تتوافر فيه عدة شروط؛ أولها وأهمها أن يربى على طاعة الله تعالى، ومن هؤلاء كان محمد الفاتح رحمه الله، حيث أحاطه والده بالعلماء بل كان شديد الحرص به حتى إنه ختم القرآن الكريم صغيراً فأرسل إليه أكثر من شيخ إلى أن أتم حفظ القرآن كله في وقت يسير^(٣).

أما الشيخ آق شمس الدين الذي كان يُدرس للفاتح العلوم الأساسية في هذا الزمن وهي: القرآن والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات (العربية-الفارسية-التركية) وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وكان الشيخ آق شمس الدين من الذين أشرفوا على السلطان الفاتح عندما تولى إمارة مغنيسيا ليتدرب على إدارة الولايات وأصول الحكم^(٤)، فمراد الثاني والد الفاتح كان

(١) أماسيا: وتقع في شمال شرق الأناضول، وهناك بلدة أخرى تسمى أماسيا تقع إلى الجنوب الشرقي من أزمير.

(٢) المراجع السابق ص ١٢٩، ١٣٠.

(٣) فيذكر في هذا الصدد أن محمد الفاتح قد تأثر بالعلماء الربانيين بشدة منذ طفولته ومن أحصهم العالم الرباني أحمد ابن اسماعيل الكوراني وهو مشهود له بالفضيلة وكان مدرساً للفاتح في عهد مراد الثاني فقد أرسل إليه والده عدد من المعلمين ولم يمثل لأمرهم ولم يقرأ شيئاً حتى إنه لم يختم القرآن فكلب السلطان مراد رجلاً له مهابة فارسل الشيخ إسماعيل الكوراني فجعله معلماً للفاتح واعطاه قضييا يضربه به إذا خالف الأمر، وبالفعل أتى الفاتح فقال له أرسلني والدك لتعليمك والضرب إذا خالفت أمرى فضحك الفاتح ظناً منه أنه لن يفعل فضربه الشيخ الكوراني في هذا المجلس ضرباً شديداً حتى خاف منه وهابه مهابة شديدة وحفظ القرآن كله في وقت يسير.

(٤) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١٣٠.

حريصاً على تفقيه الابن كما تربي هو وكذلك أسلافه عملاً بوصية عثمان ابن
ارطغرل مؤسس الدولة العثمانية.

خلاصة ما أود قوله هو أن العثمانيين قد اهتموا بتربية الأبناء تربية إسلامية على
طاعة الله تعالى، كما أنهم اهتموا بالعلماء فشيخ مثل الشيخ آق شمس الدين يُعلم الفاتح
كل هذه العلوم فلا نعلم من أي شيء نتعجب هل من الشيخ الذي يعلم كل هذا! أم من
الفاتح الذي تعلم من الشيخ كل ذلك!

ومن أبرز الأمور التي ركز عليها الشيخ في تربية الفاتح -وخصوصاً منذ الصغر-
هي إقناعه بفتح القسطنطينية وأنه هو المقصود من الحديث الشريف "لتفتحن
القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش"^(١)، وبالفعل كانت قناعة
الفاتح منذ الصغر أنه هو من سيفتح هذه المدينة الحصينة وأنه نعم الأمير الذي
سيوقف زحف النصارى من هذه المدينة التي تبث الفتن والسموم، وتفت في عضد
الدولة في كل وقت وعلى مر التاريخ، فأهلها نصارى وعلى عقيدة، أي أنهم ليسوا
من أولئك المنتسبين للنصرانية فقط، بل بعقيدة من بينها تدمير أي دين مناوى
للنصرانية وعلى رأسه الإسلام أي ممن يدخلون في قوله تعالى {ولن ترضى عنك
اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}، ولذلك كانت تحركاتهم من هذا القبيل حيث
تشويه الإسلام والعمل على إضعافه؛ ولذلك كان اهتمام الفاتح من أول يوم في حكمه
بفتح هذه المدينة، وفقاً لما تعلم على يد شيخه آق شمس الدين.

(١) مسند الإمام احمد (٤-٣٣٥).

فتح القسطنطينية:

تحرك الفاتح بجيش عظيم إلى المدينة الحصينة وبدأ القتال الشديد الذي ظهرت فيه قوة المسلمين وبسالة المدافعين من البيزنطيين، الوضع الذي جعل البعض يشعر أن الأمر مستعصي عليهم، وأنها لن تفتح بل في بعض الأوقات كان هناك انتصاراً مؤقتاً لصالح البيزنطيين، الذي أبهجهم وذلك بنجاح دخول أربع سفن^(١) أرسلها البابا إليهم، أو الجنويين تحديداً مما رفع الروح المعنوية لهم، فهنا اجتمع الأمراء والوزراء في حضرة الفاتح وقالوا له صراحة "إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ يقصدون أق شمس الدين- فهلكت الجنود وفسد الكثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن جاء عون من بلاد الإفرنج للكافرين داخل القلعة ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح"^(٢) فأرسل السلطان إلى الشيخ في خيمته يسأله عن الحل فأجاب الشيخ "لا بد من أن يمن الله بالفتح"، فلم يقتنع السلطان بهذا الجواب فأرسل وزيره مرة أخرى ليطالب الجواب من الشيخ الذي رد برسالة إلى تلميذه يقول فيها "هو المعز الناصر، إن حادث تلكم السفن قد أحدث في القلوب التكسير والمامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة، إن القضية الثابتة هي: أن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله، ولقد لجأنا إلى الله وتلونا القرآن الكريم، وما هي إلا سنة من النوم بعد وقد حدثت ألطاف الله تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلاً من قبل" فكان خطابه هذا مطمئناً للسلطان الذي به تذكر تعاليم الشيخ والتوكل على الله، وأنه يأخذ بالأسباب ولا يركن إلى المتخاذلين من الذين معه، والاستعانة لا تكون

(١) وفي بعض الروايات "خمس سفن" راجع كلامنا عن الفاتح.

(٢) أسعد الخطيب - البطولة والفداء عن الصوفية ص ١٤٦.

إلا بالله وليس بدعم وصل إلى أرض العدو، فهؤلاء لا يغنون عنهم شيئاً إن أراد الله الخير لنا والنصر حليفنا^(١).

وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الفتح بعد أن كان البعض يريد أن يعاود الأدرج وعلى رأسهم خليل باشا المتهم بتعاونه مع الأعداء^(٢).

وبالفعل ظهرت تدابير الله في خلقه إذا رذت السماء رذاً خفيفاً كأنما ترش الأرض رشاً فخرج السلطان من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال: "لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل المطر المبارك في أوانه فإنه سيذهب الغبار ويُسهّل لنا الحركة"^(٣)، فهذا هو اليقين في الله وحسن التوكل عليه، وتلك هي القلوب الثابتة، التي تربت على أيدي العلماء الكرام الذين شربوا العلم ونهلوا منه.

وبعد أن قرر السلطان الاستمرار في الفتح بناء على نصيحة ومشورة الشيخ آق شمس الدين، وكان اليوم الحاسم، هو يوم ٢٩ مايو عام ١٤٥٣م سنة ٨٥٧ هـ، اليوم الذي فتحت فيه القسطنطينية ودكت أسوارها دكاً دكاً، فأراد السلطان أن يكون شيخه بجواره فأرسل يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد بالخيمة ومنع الحراس رسول السلطان من الدخول، فغضب الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحرس السلطان من دخول الخيمة بناء على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجراً وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجد على الأرض، ولحيته البيضاء تعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تتحدر على خديه فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر

(١) على الصلابي، محمد الفاتح ص ١٢٩.

(٢) على الصلابي، محمد الفاتح ص ١٢٩.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ويسأله الفتح القريب^(١)، وعاد السلطان عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين قد أحدثوا ثغرات بالسور وتدفع منها الجند إلى القسطنطينية^(٢) ففرح السلطان بذلك وقال: ليس فرحى لفتح المدينة، إنما فرحى بوجود مثل هذا الرجل في زمنى^(٣).

ويذكر الشوكاني أن الشيخ آق شمس الدين هو الذي حدد للسلطان يوم الفتح الذي فتحت فيه المدينة، وكان النصر المبين العظيم.

فهذه هي مكانة العلماء، وهذا هو فضلهم، فهل نجد في عصرنا الحالي أمثال آق شمس الدين؟ وهل نجد من يقدر قيمة العلماء؟ بل هل نجد أصلاً من يقدر قيمة العلم؟!

هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل

(١) راجع العثمانيون في التاريخ والحضارة.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الشوكاني - البدر الطالع (٢-١٦٧).



بايزيد الثاني

ولد بايزيد الثاني عام ٨٧٥ هـ - ١٤٨٠م^(١) وجلس على تخت السلطنة عام ٩١٨ هـ^(٢)، ولم يكن السلطان بايزيد ميالاً للحرب واشتهر بحبه للعلوم والأدب لكن سياسة الدولة دعتّه إلى الالتفات نحو الحرب بفعل سياسة جيرانه العدوانية والواقع أنه لم تحدث في عهده أي فتوحات جديدة بل اقتصر نشاطاته العسكرية على المناطق الحدودية لصد الاعتداءات الخارجية^(٣)، وقد حدث تنازع كبير على السلطة بين الأخوين حيث نرى أنه من الضروري عرضه.

صراع الأخوة:

بعد وفاة السلطان العظيم محمد الفاتح ترك من وراءه ولدين؛ هم جم الابن الأصغر وهو صاحب الـ ٢٣ عاما وبايزيد الابن الأكبر صاحب الـ ٣٤ عاماً، وكان الثاني حاكماً على مدينة أماسيا، في حين كان الأول حاكماً على بلاد القرممان ومتمركزاً في قونية^(٤).

وعلى الرغم من كون محمد الفاتح قد سن القوانين التي تحكم البلاد إلا أنه لم يتم وضع قانون يحسم مسألة تولي الحكم من بعد السلطان أو الحاكم العثماني، وبالتالي يتم حسم المسألة بالأقوى سيطرة على مقاليد الأمور، هذا إن لم يتم قتل أحدهم، وعلى ذلك فإن ما يحسم مسألة النزاع على السلطة أمران لا ثالث لهما، الأول إتفاق أركان

(١) عزتو يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان ص ٥٩.

(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ١٣٦.

(٣) سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢١٦.

الدولة وقبولهم لأحد دون الآخر ليكون ولياً للعهد، والثاني رغبة الحرس الخاص بالسلطان أي فرقة الكيجري (الإنكشاريين)^(١).

نقطة هامة:

لقد وجدنا بعض المراجع تقول أن السلطان محمد قد أوصى بالحكم لابنه جم رغم كونه الأصغر، وتجد بعض الأقوال الأخرى تقول بأنه أوصى بالحكم لابنه الأكبر بايزيد، إلا أن الراجح عندنا أنه لم يوصي بشيء في هذا الصدد إلى أن يخرج علينا أحد بدليل قاطع في هذا الشأن.

تنافس الوزراء:

كان الوزراء وهم أركان الدولة منهم من يؤيد بايزيد ومنهم من يؤيد جم، وكان الوزير الأعظم قرماني محمد باشا والوزير السابق كديك أحمد باشا يؤيدان جم في توليه للحكم بدلاً من بايزيد، بينما كانت فرقة الكيجري وبعض الوزراء الآخرين يؤيدون بايزيد^(٢).

وعلى ذلك بعد وفاة السلطان محمد إتفق الحاضرون وكانوا الغالبية لتولية بايزيد على إبلاغه أولاً بالخبر ليأتي ويتولى زمام الأمور في هدوء ثم يبلغ بعد ذلك الخبر لأخيه جم، وكان ممن يوافقهم بالرأي ظاهرياً فقط الوزير الأعظم "قرماني محمد باشا"، الذي أرسل خلسة أحد رجاله ليبلغ جم بالموقف وليأتي سابقاً ليتولى زمام الأمور بدلاً من أخيه، إلا أن أحد أتباع بايزيد استطاع أن يقبض على هذا الرسول ويقتله في الحال قبل وصول الرسالة إلى جم، ولما علم جند الكيجري بذلك وبما فعله الوزير الأعظم قاموا بقتله وتعيين مكانه "إسحاق باشا" جراء هذه الخيانة لهم ولما اتفقوا

(١) المرجع السابق ص ٢١٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٦.

عليه، وأعلنوا العصيان الذي أحدث قلاقل في الدولة واضطراباً لم يهدأ إلا بعد تولي بايزيد مقاليد الأمور^(١).

ولما علم جم وكان من الواضح أن له قطاعاً من الرأي العام متعاطفاً معه إلا أنه لم يكن بقوة بايزيد، فلم يرض بهذا الوضع وأن السلطة أصبحت لبازيد بدلاً منه، واقتراح تقسيم الدولة إلى قسمين القسم الأوربي لبازيد والقسم الآسيوي له، إلا أن بايزيد رفض العرض لأنه يعمل على تفتيت الدولة القوية التي سهر أسلافه على جمعها وأصر على أن تبقى الدولة موحدة تحت سلطته وأعد جيشاً ضخماً وسار به نحو بورصة وهاجمها ففر جم منها إلى سلطان المماليك قايتباي في مصر، فرحب به وأكرمه وأمدّه بكل ما يحتاجه من أموال للسفر مع أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ولما عاد من الأراضي المقدسة إلى مصر أرسل إليه بايزيد يقول له "بما أنك اليوم قمت بواجباتك الدينية في الحج فلماذا تسعى إلى الأمور الدنيوية، من حيث أن الملك كان من نصيبي بأمر الله، فلماذا تقاوم إرادة الله؟ فأجابه جم بقوله: هل من العدل أن تضطجع على مهد الراحة والنعيم وتقضي أيامك بالرغد واللذات، وأنا أحرم من اللذة والراحة وأضع رأسي على الشوك وقام جم بالاتصال بكبار أتباعه في الأناضول وأثارهم ضد بايزيد وتقدم ليغتصب السلطة ولكنه هزم فعاد مرة أخرى وهزم من جديد، فالتجأ إلى رودس حيث يوجد فرسان القديس يوحنا وعقد مع رئيس الفرسان اتفاقاً إلا أنه لم يوفي به وتم نقضه تحت ضغط بايزيد وأصبح سجيناً في جزيرة رودس وكسب فرسان القديس يوحنا بهذا المكسب كثيراً إذ مرة من بايزيد وأخرى من أنصار جم حتى بيع كرهينة لبابا أنوست الثامن، ولكن لما مات هذا البابا ترك جم لخلفه إسكندر السادس فعرض على بايزيد الثاني أن يقتله لقاء مبلغ مالي، ولكن يحدث في هذه الأثناء بوادر حملة صليبية سنذكرها لاحقاً يترتب عليها أن يقتل

(١) المرجع السابق ٢١٦ - محمد سهيل طقوش تاريخ العثمانيين ص ١٣٥.

الأمير جم حفاظاً على المصالح مع الدولة وفي نفس الوقت يتم إلقاء التهمة على السلطان العثماني الذي يُعتبر بذلك قد تخلص من خطر كبير كان يهدده^(١).

وقفه:

نريد أن نقف وقفة صغيرة مع موقف جم الأخ الأصغر وكذلك موقف بايزيد ومن قبلهم موقف الوزير الأعظم الذي أحدث فتنة كبيرة في الدولة كانت من الممكن أن تقضي عليها، حيث قد أصبح رأي الأغلبية وهم أهل الشورى في هذا الصدد متجه صوب بايزيد، وبالتالي فأي مخالفة لذلك ستحدث شقاً كبيراً في الدولة وبالفعل قد أحدثت.

أما وقد تولى مقاليد الأمر فعلياً وأصبح حاكم فعلي وله شوكة وبالتالي لا يجوز الخروج عليه من جم، الذي رد بإجابة غاية في الخنوع والخضوع للدنيا حيث ركز كل جهوده وتركيزه على الملذات والنعيم التي يتنعم فيها بايزيد، دون التفكير في أي شيء آخر، وهذا الكلام لا يبرئ بايزيد أيضاً ولكن المتهم الأكبر في ذلك هو جم الذي تعلق قلبه بالدنيا على حساب أي شيء آخر، وأكبر دليل حتى عندما فكر أن يلتجأ لأحد ذهب وتوجه إلى فرسان القديس يوحنا، فأي خزي هذا.

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١٨، محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ١٣٧ بتصرف.

السعي وراء الوحدة الإسلامية:

إن المماليك كانت تعتبر في ذلك الوقت القوة الإسلامية في الشرق وكانت تواجه وبقوة الخطر البرتغالي الذي يحاول أن يهدم الإسلام بل الكعبة إن استطاع.

وقد حدثت بعض المعارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشامية إلا أنه لم ترتقي لمستوي حرب شاملة، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهم، وخصوصاً عندما أراد السلطان قايتباي السيطرة على بلاد ذي القدر ومدينة البستان التابعتين للدولة العثمانية فاستقطب أمير ذي القدر على العثمانيين، وإن كان تدخل "باي تونس" وقضى بينهم في محاولة للصلح بأن يبقى الحال على ما هو عليه قبل هذا الاحتكاك. ولكن هذا كله كان بدايات الصراع بين الطرفين التي ستعكس على المستوي البعيد، إلا أن السلطان بايزيد قرر أن يرسل رسولاً من قبله للسلطان المملوكي سنة ١٤٩١م ومعه مفاتيح القلاع التي استولي عليها العثمانيون على الحدود وقد لقي هذا ترحيباً كبيراً من السلطان المملوكي فقام بإطلاق الأسرى العثمانيين وأسهمت سياسة بايزيد في عقد صلح بين الطرفين في ذات السنة ظل سارياً حتى نهاية عهد بايزيد الثاني وذلك من باب حرصه على وحدة العالم الإسلامي^(١).

بدايات حملة صليبية:

لم تنس الدول الصليبية ما حدث في فتح القسطنطينية التي أصبحت منارة الإسلام الجديدة وعاصمة العالم، ودار الإسلام أي إسلامبول.

(١) راجع على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ١٨٧-محمد سهيل طقوش تاريخ العثمانيين ص ١٣٧- راجع محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص ٣٩٩ ومع بعدها.

وقد كان من قبيل أحلام ملك فرنسا شارل الثامن أن يسيطر على إسلامبول فأغار على إيطاليا، وأرسل من يمهد له الطريق في البندقية والأراضي الألبانية ذلك لأنه من الضروري إذا أراد الولوج إلى إسلامبول أن يمر بهذه الأراضي، إلا أنه اصطدم بمصالح ملك نابولي والبندقية الذين خشوا من ازدياد نفوذ وقوة الفرنسيين الفرنجة فأرسل من يخبر السلطان بتقدم الجيوش الفرنسية إلى بلاده وقد كانت هذه القوات وصلت إلى روما وطلبت من البابا تسليم الأمير جم لاستغلاله في الحرب فقام البابا بدس السم له وقتله كي يتخلص من هذا العبء الثقيل الذي سيسبب له الحرب مع الدولة العثمانية، ودفن ثم نقلت جثته إلى الديار العثمانية ودفن في بورصة، وفشلت الحملة الصليبية الجديدة إذ واجهها بايزيد بكل قوة وحسم وحزم^(١).

سياسة جديدة من قبل الأعداء:

لما أيقن الأعداء أن اللقاء الحربي مع الدولة العثمانية هو أمر ينتهي بالفشل لهم والنصر المبين للعثمانيين، لذلك لجأوا إلى أسلوب جديد وهو الدبلوماسية حيث تستروا به كي ينخروا في الدولة الإسلامية، ويدمروا المجتمع المسلم بعد معرفة كل نقاط ضعفه وقوته، ويعملون على إضعافه، ففي عهد بايزيد وصل أول سفير روسي إلى إسلامبول عام ١٤٩٢م وذلك في عهد دوق موسكو إيفان وقد أعطي له ولغيره حصانات وامتيازات فتحت الباب أمام أعداء الأمة لكشف عوراتها والعمل على إفسادها فقد استطاع الدوق إيفان الثالث أن ينتزع إمارة موسكو من أيدي المسلمين العثمانيين وبدأ التوسع على امتداد شبه جزيرة الأناضول، ولا يعني ذلك أن بايزيد الثاني كان ضعيفاً أو مسالماً إلا أن الدولة كانت تمر بظروف صعبة في محاربتها لأعداء الإسلام مما ممكن للبعض من الحصول على بعض الانتصارات^(٢).

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ١٣٧ بتصرف.

(٢) على الصلابي، الدولة العثمانية ص ١٨٨.

ملخص للصراع الداخلي على السلطة:

لقد حدث صراع على السلطة بين السلطان بايزيد الثاني وأبناءه الأمر الذي احتدم بشدة وكاد أن يؤثر على الدولة بشكل كبير وحتى نفهم الصراع منذ البداية فلا بد أن نعرض الأمر منذ تولية سليم في طرابزون عندما كان شاباً صغيراً.

فقد كان الأمير سليم الأول يحكم سنجق طرابزون وهو من السناجق البعيدة عن عاصمة الدولة وقليلة الإيرادات في نفس الوقت، مما جعل سليم يطلب المدد والعون من أبيه وأن يجعله في سنجق أقرب إلى العاصمة وأنه قد ضاق به الحال في طرابزون، وكذلك طلب لابنه سليمان سنجق قريب من العاصمة مثل بقية الأمراء من أبناء أخيه أحمد، ولأن السنجق القريب من العاصمة كان يمثل خطوة أقرب لاعتلاء العرش فقبول هذا بالفرض من أحمد مما جعل سليم يبذل جهداً أكبر إلا أن طلبه رفض في النهاية، الأمر الذي جعل صراعاً يشتعل بين الأخوين سرعان ما ظهر للعلن، فأرسل سليم لأبيه يقول له "إن كان سخطك علي هو فتحي لعدد من القلاع ودخولي في صراع مع شاه إيران فإن ذلك لأجل حماية الإسلام وحماية حدود الدولة من التهديدات"، وفي نهاية الأمر وافق بايزيد على منح سليمان ابن سليم حكم مدينة "كفه" في "شبه جزيرة القرم" فيما أعطى مراد بن أحمد حكم مدينة "بولو"، وفي تلك الأثناء ضرب زلزال شديد مدينة إسلامبول لدرجة أنهم نعتوه بالقيامة الصغرى، وجعل السلطان بايزيد يترك المدينة ويذهب إلى أدرنه، الأمر الذي جعل الناس تتكلم عن سن السلطان وكبره وحالته الصحية وعجزه عن إدارة الدولة، وفي تلك الأثناء بدأ الأمير والأخ الثالث قوروقوت^(١) في التحرك هو الآخر جانب أخويه الأميرين أحمد وسليم، فقام سليم فجمع أسطولاً بحرياً وتوجه نحو مدينة كفه، التي بها سليمان

(١) وتكتب قورقود.

ابنه وقد أعرب عن استيائه الشديد من إدارة الوزراء للدولة في ظل مرض أبيه السلطان، وانتقل قوروقوت إلى مانيسا فيما انتقل أحمد إلى أنقره، وكان لزيارة سليم المفاجئة لمدينة كفه سبباً قوياً لإغضاب السلطان بايزيد الثاني واشتعال حدة الصراع^(١).

قام سليم بجمع أنصاره من خان القرم في كفه وبكوات الروميلي فسارع الوزراء بإخبار السلطان الذي أرسل خطاباً لسليم بضرورة العودة لطرابزون ولكنه رفض قائلاً "لماذا منعتموني من الخروج إلى الغزو؟ أطلب منكم منحي سنجقاً في الروميلي حتى ألبى رغباتكم وأنشغل بهذا السنجق القريب من العاصمة...."، وكان بعض الناصحين الذين أرسلوا من قبل الوالد لإعادته عما يطلب، إلا أنه كان رده عليهم "أنتم تعرفون أنني لست من الذين يرجعون عن الأماكن التي ذهبوا إليها"^(٢).

وكان في ذلك الوقت الخطر الشيعي يتحرك بشدة والتهديد التركماني الذي قام به شاه قوينلي في الأناضول بتحريض من الشاه إسماعيل الصفوي يتنامى بشده فعرض الأب على ابنه مدينة "موغلا" وإقليم "منتشا" ليحكمه ولكن سليم رفض، كما أرسل إلى أبيه يعلمه بأن وزراء وأمراء تمردوا لصالح أخيه أحمد، وقد أرسل أكثر من مره رجالاً لأبيه المقيم في أدرنه وفي نهاية المطاف قرر أن يذهب بنفسه إلى هناك، فعلم بايزيد الثاني وجهز جيشاً تحسباً لأي أمر قد يحدث وخصوصاً وأن الكثير يعرب عن قلقه للسلطان ويوغر قلبه تجاه سليم، وقد انتهت المفاوضات بينهم على عدم تنازل السلطان أثناء حياته لأي ابن من أبنائه عن السلطنة، وقد وافق السلطان على ذلك، إلا أن الذي حدث أن اشتد المرض على السلطان بايزيد واشتدت المحنة أكبر وبدأ الانكشاريون يعلنون رغبتهم في سليم وعدم رضاهم عن أحمد الذي فشل في قمع ثورة شاه قوينلي التي اندلعت لصالح الشيعي شاه إسماعيل، وكذلك فشل قوروقوت

(١) فاتح أقيجه، السلطان سليم الأول ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق.

في صد المتمردين عن "مانيسا" بل هرب وفر رغبة في حماية السلطة عن حماية الناس والمدينة فنهب المتمردون المدينة وقصر الأمير ذاته، كما فشل كبير بكوات الأناضول "فارجو باشا" في قمع الثورة وكذلك كان مصير كبير بكوات قارامان "حيدر باشا"، والحال كذلك مع الصدر الأعظم الذي استشهد بعدما أسندت إليه ولأمير أحمد مهمة إخماد الثورة ففشلا مما جعل مكانة أحمد تتراجع بشدة لدى الانكشاريين، إلا أن الوزراء قللوا من شأن الجيش الانكشاري وقالوا إن أمرهم يسير فعند تنصيب أحمد سيمنحهم بعض الأموال التي تكفي لإسكاتهم أي كالعظمة التي تمنح للكلب، وهذا الكلام قد وصل للجيش الانكشاري الذي خرج في شوارع العاصمة وعلقوا لافتات مكتوب عليها "أنتم لم تضعونا في اعتباركم وترغبون في تنصيب الأمير أحمد سلطاناً ووصفتمونا بالكلاب التي تنتظر العظام لتأكلها، لكنكم أخطأتم وعليكم أن تعلموا أننا لسنا كلاب بل أسود، وما نريده كطعام لنا هو الرؤوس وليست العظام ولهذا فنحن على استعداد لقطع رؤوسكم جميعاً"، وكان في ذلك الوقت سيتم تنصيب الأمير أحمد بناء على نصيحة الوزراء للسلطان بايزيد مما يعني مخالفة ما تم الاتفاق عليه مع سليم، فقطع الانكشاريون طريقه فعاد مرة أخرى بينما كان في الطريق لتولي السلطة وجاء في ذلك الوقت سليم الذي علم بذلك ومن دعم الانكشاريين له، فقال له السلطان لفيد عينتك يا بني قائداً للجيش فلتأت إلى هنا فوراً ولا تعتقد أن هذه حيلة فوالله إنني لصادق فيما أقول وأنا على استعداد تام لتنفيذ ما تريده، وفي هذه الأثناء كان قورقوت قد شعر بالضجر نتيجة الضغط الذي يمارسه أخيه الأكبر أحمد عليه فخرج من عنده وتوجه نحو سليم نظراً لأن الغلبة الآن تتجه صوبه^(١).

بعد وصول الرسالة التي أرسلها بايزيد إلى سليم فكان رده أنه لن يعصي لوالده أمراً ولكن الجنود لن تطيعه إلا إذا كان سلطاناً قائداً للجيش وإلا اعتبر مثله مثل أي

(١) المرجع السابق.

وزير لديه، ففهم السلطان الرسالة التي أرسلها بايزيد فتنازل له عن السلطنة وبايعه أخوه قوروقوت وكذلك أركان الدولة^(١).

وفاته:

بعد التنازل للسلطان سليم قام السلطان بايزيد ذاهباً إلى "سراية ديمتوقه"، ويوصوله إلى محل يسمى "سوكودرلي دره" مات بالطريق عام ١٥١٢م وأحضرت جنازته إلى "الأسنانة"^٢ ودفن بالجامع الشهير باسمه الذي أنشأه هو أثناء حياته^(٣).

(١) المرجع السابق ص ٤١، ٤٢.

(٢) الأسنانة هو أحد الأسماء التي أطلقت على مدينة القسطنطينية، في العهد العثماني.

(٣) إبراهيم بك حلیم، تاریخ الدولة العثمانية العلية ص ١٠٦.



السلطان سليم الأول

ياوز سليم

مولده وتوليته الحكم:

ولد السلطان سليم الأول سنة ٨٨٥ هـ - ١٤٧٠ م بأماسيا^(١)، وارثاً لـ عَزَّشَ السلطنة وعمره أربعون عاماً، وأمه هي "عائشة جلبهار سلطان بنت علاء الدولة بوزكوت بك" المنحدر من سلالة ذي القادر التركمانية، وهي سيدة تركمانية تركية مسلمة وليست ممن أسلم من طائفة الدوشيرمة كما هو معتقد لدى البعض^(٢) ولقب بالـ "ياوز" أي الشديد القاسي، لقسوة طبعه^(٣)، وقال آخرون إن سبب التسمية لشجاعته وتصميمه في ساحة المعركة، وذلك بعد أن تنازل والده السلطان بايزيد عن الحكم له في صفر من عام ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م بضغطة من الإنكشارية^(٤)، وهو أول من يجمع بين الخلافة والسلطنة من بني عثمان كما سنرى بعد ذلك.

نشأته:

لقد تلقى سليم الأول في قصر أماسيا -الذي كان والده والياً عليها- كسائر إخوته من الأمراء تعليماً جيداً منذ نعومة أظفاره، كما عين والده أساتذة خصوصيين لما رأى فيه من الذكاء وقدرات عالية منذ طفولته، وساهم هذا التحصيل العلمي المتميز في إكسابه هواية القراءة فلم يفن عشقه للكتب والمكتبات والقراءة حتى آخر أيامه، وهو

(١) إبراهيم بك عبد الحليم، تاريخ الدولة العثمانية ص ١١١.

(٢) فاتح أقيج السلطان سليم الأول ص ٩.

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ١٤٧.

(٤) على حسون تاريخ الدولة العثمانية ص ٥١.

يعتبر من أكثر السلاطين العثمانيين اهتماماً بالقراءة؛ إذ كان مولعاً بها لدرجة أن من حوله كانوا يصابون بالفلزع عند ضياع كتاب من كتبه^(١).

طرابزون:

عندما بلغ الأمير سليم سن السابعة عشر عاماً ولي سنجق طرابزون والذي سيبقى يحكمه طيلة ٢٤ عاماً -أي حتى تولي السلطنة بعد ذلك- وقد تعلم في خلال هذه الفترة أموراً كثيرة، حيث تعلم شؤون البحر والسفن وتشكيل الأساطيل، كما تعلم كيفية السيطرة على البحار وأن السيطرة على البحر هي أهم شروط السيطرة على اليابسة، ومن أهم الأمور التي استفاد منها سليم من تواجده في طرابزون هي متابعة الخطر الشيعي عن كُتُبٍ وبمعرفة أدق تفاصيله مما سيكون عاملاً من عوامل حسم الصراع الإسلامي الشيعي بعد ذلك^(٢).

ونظراً لقلّة الإمكانات والإيرادات في مدينة طرابزون طلب سليم من والده السلطان أن يمدّه بمساعدة إلا أن طلبه رُفض وكانت هذه المدينة تتعرض لهجمات القراصنة الجورجيين الذين استقر بهم المقام عند سواحل القوقاز؛ إذ كانوا يهددون المدينة بين الحين والآخر، وعقب إسناد حكم المدينة للأمير سليم لم يتحمل هذه الهجمات التي يقودها الجورجيون فخرج في غزوة ضدهم، كما قام ببعض المناورات العسكرية على طول الحدود بين الدولتين، ولقد حقق سليم نصراً مؤزراً فلم يعد الجورجيون يجروؤن على الإبحار صوب طرابزون لمزاولة أنشطة القرصنة، كما دخل الأمير في صراع مع الشراكسة النصاري الذين كانوا يعتبرون أنفسهم القوى العسكرية

(١) فاتح آقجه، السلطان سليم الأول ص ٩، ١٠.

(٢) فاتح آقجه، السلطان سليم الأول ص ١٧، ١٨.

الأفضل، وبدأ نجم سليم يعلو وينتشر اسمه ويشتهر بين الجنود، الأمر الذي سيكون عامل حسم في توليه الحكم بعد ذلك^(١).

وكان الأمير سليم يتابع الخطر الصفوي بشدة ويرسل التقارير أولاً بأول لوالده السلطان إلا أن طبيعة السلطان بايزيد أنه جانحٌ للسلم عكس والده الفاتح وابنه سليم الذي كان يرسل المخابراتين بكثرة لتتبع وتقصي الأحوال التي ساءت في الأناضول نظراً لتهديد الشاه إسماعيل الصفوي مما حدا ببايزيد أن يطلب من سليم اتخاذ التدابير؛ فبادر الأمير بمنورة عسكرية جنوبي طرابزون ومن ثم ضرب طوقاً أمنياً حول مدينة أروم، فأرسل الشاه جيشاً قوامه إثني عشر ألف جندي لكن الأمير سليم نجح في تفريق هذا الجيش في منورة قادها بنفسه وقد اضطر أهالي قبيلة آق قويونلي التركمانية من مغادرة أراضيهم نظراً لأفعال الشاه الصفوي فأوهم السلطان سليم في طرابزون. ولقد انزعج الشاه إسماعيل الصفوي بشده جراء تلك الأحداث وأراد أن يغزو طرابزون إلا أنه عدل عن هذه الفكرة نظراً لصُعوبة المدينة وحصانتها فخرج في غزوة ضد مدينة ذي القادر التركمانية وكان الشاه قد أمر جيشه بدفن المدافع الثقيلة في "إرزينجان" فوصل هذا النبأ إلى سليم الذي لم يتردد لحظة فدخل المدينة واستولى على مدافع الجيش الشيعي وأصبح الأمير المغامر الذي يحكم مدن الأناضول الصغيرة حديث الناس بفضل شجاعته الكبيرة التي ظهر بها أمام الصفويين^(٢).

توليه الحكم:

بعد أحداث كثيرة تم عرضها إبان حديثنا عن السلطان بايزيد ونتيجة لضغط الجيش الإنكشاري الذي كان يرى في سليم أنه الأجدر على تولي السلطنة، نظراً لما له من

(١) فاتح آقجه، السلطان سليم الأول ص ١٨، ١٩.

(٢) فاتح آقجه، السلطان سليم الأول ص ٢١، ٢٢.

دراية وقدرة حربية عكس والده الذي يجنح للسلم فتولى الحكم بعد تنازل والده إبان حياته عام ١٥١٢م.

ولما كان تعيين سليم بناء على مسعى من الجيش الإنكشاري^(١) فكان ذلك يقتضي توزيع المكافأة عليهم حسب المعتاد فأعطى لكل نفر منهم خمسين دوكاً، وذلك في محاولة لترضية الجيش وعدم خسارة قادته الذين يحاولون السيطرة على السلطان سليم، ثم عين ابنه سليمان حاكماً للقسطنطينية^(٢)، وبدأ يستعد لتتقية أي منازعات قائمة له على السلطة.

السلطان سليم مع إخوته:

بعد أن تولى السلطان سليم الحكم أجلس أخاه أحمد في ولايته على أماسيا وصاروخان، فلم يرض أحمد لأخيه السلطنة، أملاً بأن تكون له هو لأنه الأكبر، فأرسل ابنه علاء الدين بعسكر إلى (بورصة) فواجه السلطان سليم؛ ففر علاء الدين هارباً ثم تداعت الأحداث بعد ذلك بأن ادعى أحمد لنفسه السلطنة وكان يمارس سلطاتها كما لو أنه السلطان وليس سليم، ومال إليه عدد من الوزراء حتى صار البعض يُستهزئُ بمن هم في حزب سليم، فعلم سليم ذلك، وازداد الأمر سوء لما علم باتجاه بعض أمراء الجيش لأخيه أحمد؛ فبدأ بقتل الصدر الأعظم مصطفى باشا الذي

(١) راجع ما ذكرناه عن نشأة الجيش الإنكشاري في عهد أورخان.

(٢) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية ص ١٨٨.

كان يرسلُ الأخبارَ لأحمد أولاً بأول ثم اتجه إلى أخيه^(١) فقلته^(٢)، وكان لأحمد ولدان الأول مراد والثاني علاء الدين فالأول هرب إلى بلاد العجم والثاني إلى مصر^(٣).

ثم تفرغ إلى أخيه قورقود وكان يحبه جداً، ولكن شك فيه؛ فأوعز إلى وزرائه أن يكتبوا إلى أخيه يمينانه بالحكم فأرسلت الرسائل بانتظار الرد، الذي جاء من قورقود موافقاً على ذلك أي بالمساعي لأنْ يَكُون هو السلطان، فكان لا مفر من قتال أخيه الذي هرب إلى الجبال ثم جيء به فُقِّلَ، وكذلك قتلَ أبنائه نظراً لكثرة الوشائيات التي قالت بمحاولاتهم الوصول للحكم، وبذلك تفرد السلطان سليم بالحكم دون منازعة نهائياً له فيه^(٤)، ومن عجيب الأمور في الدولة العثمانية رغم كثرة القتال بين الإخوة فيها إلا أن الدولة لم تتأثر كثيراً بهذا القتال إذ فور استقرار الأمور التي تحدثت سريعاً، نتجبه الدولة بالكامل وراء السلطان الجديد، وهذا ما حدث أيضاً مع محمد جلبي في قتاله مع إخوته، والذي يُعتبر المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

سياسة السلطان سليم:

إن سياسة الدولة العثمانية في زمن السلطان سليم سارت على أسس وهي:

(١) وقد سئل السلطان سليم لماذا قتل أخيك أحمد رغم أنك تمكنت منه قبل قتله فقال إن أعداء الدولة الخارجين كثيرون، فإذا ذهبت إلى الحرب استولت عليه شياطين الإنس والجن بالغش، فيعمل مثل ما عمل ويترتب على ذلك إراقة دماء المسلمين فقتل واحد لإحياء كثيرين أمر واجب، أي إنه يرى ضرورة قتله لأنه نافسه على الحكم، فإذا ذهب وترك البلاد للحرب فقد يحاول مرة أخرى أن يأخذ الحكم منه وبذلك تشتعل الحرب بين المسلمين فيموت الكثير، ولذلك قتل فرد أولى من قتال فنتبين من المسلمين وتراق بينهم الدماء، وهو يعلم أخاه جيداً أنه سوف ينافسه مرة أخرى على السلطنة، وهذه كانت وجهة نظره هو.

(٢) إبراهيم بك عبد الحليم، تاريخ الدولة العثمانية ص ١١١.

(٣) المرجع السابق ص ١١١.

(٤) يلماز ازوتونا، الدولة العثمانية ج ١ ص ٢١٥، ٢١٤.

أولاً: القضاء على الدولة الصفوية الشيعية لمحو الخطر الشيعي الذي يهدد الدولة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

ثانياً: ضم الدولة المملوكية لتحقيق الوحدة الإسلامية.

ثالثاً: حماية الأراضي المقدسة، وخصوصاً مع رغبة الأعداء بهدمها.

رابعاً: ملاحقة الأساطيل البرتغالية التي تسعى لأن تعيث في الأرض فساداً بل ودخول الكعبة لهدمها.

خامساً: دعم حركة الجهاد في الشمال الإفريقي للقضاء على الإسبان.

سادساً: مواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا^(١).

والواقع أن السلطان سليم قد أحدث تغييراً جذرياً في سياسة الدولة العثمانية في الحركة الجهادية فيها، إذ توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة شرقياً نحو المشرق الإسلامي^(٢).

الخطر الشيعي^(٣):

ظهرت في بلاد فارس دولة فنية شيعية هي الدولة الصفوية نتيجة ضعف وتفتت الإمبراطورية التيمورية^(٤)، حيث كانت بلاد فارس تعاني من فوضى وانقسام، واعتلت السلالة الصفوية عرش إيران بداية من القرن السادس عشر، ويرجع أصل

(١) على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٠٠ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٩.

(٣) سنفضل جلياً بعد ذلك في هذا الامر عند حديثنا عن الشاه إسماعيل.

(٤) راجع ما ذكرناه عن تيمور لينك

الصفويين من "أذربيجان"^(١) وتنسب إلى الشيخ "إسحاق صفى الدين" المتوفي عام ١٣٣٤م، ومن هذا الاسم أخذت السلالة الصفوية اسمها^(٢).

وتوالى الأحداث إلى أن تولى الشاه إسماعيل الحكم^(٣) وأحدث تغييراً جذرياً باعتناق المذهب الإثنا عشري^(٤)، والقتل والفتك بالمسلمين بشكل شره شرس، وكان لابد من أن يقف له أحد وخصوصاً بعد دعم النصارى له في مواجهة الدولة العثمانية.

وحاول السلطان سليم أن يمنع انتشار المذهب الإثنا عشري في الأناضول بشتى الطرق ولو بالقتل فجمع سراً معلومات عن كل من اعتنق هذا المذهب أو ينتمي إليه فجمعهم وقتلهم^(٥).

واشتد الوطيس بين الجبهتين، الجبهة السنية المتمثلة في السلطان سليم والدولة العثمانية، والجبهة الشيعية المتمثلة في الشاه إسماعيل المدعوم من النصارى، فيسر الله الأمر لأن يكون السلطان سليم، والدولة العثمانية الفتية القوية حائط صد لكل

(١) أذربيجان: هي واحدة من ست دول تركية مستقلة في منطقة القوقاز في أوراسيا. تقع في مفترق الطرق بين أوروبا الشرقية وآسيا الغربية، ويحدها بحر قزوين إلى الشرق وروسيا من الشمال وجورجيا إلى الشمال الغربي وأرمينيا إلى الغرب وإيران في الجنوب.

(٢) عبد المنعم هاشم الخلافة العثمانية ص ٢٥٠.

(٣) يقول الدكتور عبد العزيز سليمان نواز: "إن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء ضد الدولة العثمانية التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط وكان مستعداً لأن يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطراً على العالم الإسلامي حينذاك، وهكذا بينما كان البرتغاليين يخشون من وجود جبهة إسلامية قوية ضدهم في المياه الإسلامية، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم"

(٤) الشيعة الإثنا عشرية أو الإمامية أو الجعفرية هم طائفة دينية إسلامية، وعادة فإن لفظة الشيعة إذا قيلت مطلقة دون تخصيص فإن الذهن ينصرف نحو الإثنا عشرية لكونها الطائفة الأكبر من حيث عدد الأتباع من بين الطوائف الشيعية الأخرى، وتسمى الذين أطلقت عليهم هذه التسمية تمييزاً لهم عن الطوائف الأخرى التي تحمل اسم الشيعة كالزيدية والإسماعيلية، ولاعتقادهم بأن النبي محمد قد نصَّ على اثني عشر إمام خلفاء من بعده، فكانت عقيدة الإمامة هي الفارق الرئيسي بينها وبين بقية الطوائف الإسلامية. وهم على الترتيب التالي: الأمام على ابن ابي طالب، الحسن والحسين ابني علي ابن ابي طالب، علي زين العابدين، محمد الباقي، جعفر الصادق، موسى الكاظم، علي الرضا، محمد الجواد، علي الهادي، الحسن العسكري، محمد المهدي.

(٥) العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ٢ ص ٣٥-راجع عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٢٥٣.

الهجمات التي كان توجه ضد الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت، إذ قيده الله وجيشه ودولته لقتال هذا الشيوعي الصفوي الإثنا عشري، فقاتله حتى انتصر عليه بفضل الله في نهاية الأمر في معركة "جالديران"^(١).

وكان لهذه المعركة نتائج مهمة وكبيرة يعد أهمها:

سيطرة العثمانيين على الأناضول الشرقية والجنوبية باستثناء القسم الواقع تحت السيطرة المملوكية، وانتكاس الصفويون وانحسار المد الشيوعي، إلا أنه لم يستطع أن يقضي عليهم نهائياً ولم يستطع أن يحرر إيران من هذا المذهب الشيوعي الإثنا عشري الذي استمر إلى يومنا هذا بحقه وحنقه على الإسلام والمسلمين، والذي يجيز قتل أهل السنة، ويؤجر من يقتل سنياً، فقد سمعت من أحد المعممين الشيعة الإيرانيين يقول: إن من قتل سنياً بُني له قصر في الجنة، ويقول آخر: من قتل سنياً فتحت له أبواب الجنة، ويقول آخر: من قتل سنياً غُفرت له كل ذنوبه، فإلى هذه الدرجة يحثون على قتلنا والفتك بنا ليكون الجزاء هو الجنة بالنسبة لهم، ولا نعلم أي جنة يدخلون، وأي رسول يتبعون فإن كانوا يتبعون محمداً -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما يقولون فلم يسبوا زوجته، وإن كانوا يقرأون القرآن فلماذا يسبون من أحبه الله ورضي عنهم ورضوا عنه، وذلك بلعنهم أبى بكر وعمر، بل إن كانوا يحبون الله عز وجل فلم يؤله بعضهم علياً رضي الله عنه وأرضاه- فهؤلاء ذو عقيدة فاسدة مفسدة.

ومن النتائج الهامة أيضاً هي التفرغ لقتال المماليك، وازدياد النفوذ العثماني، وزيادة هيبتهم في نفوس الغرب الصليبي.

(١) سنسرد تفاصيل هذا القتال لاحقاً.

قتال المماليك:

لم ينته السلطان سليم من محاربة الشيعة وفتح بلاد "ديار بكر" ^(١) و"الموصل" حتى أخذ في الاستعداد لفتح مصر، وخصوصاً بما أن السلطان "قنصوه الغوري" ^(٢)، تحالف مع الشاه إسماعيل الشيعي لمحاربة الدولة العلية العثمانية، ولما علم السلطان قنصوه بتأهب السلطان سليم لفتح مصر أرسل رسولاً يعرض عليه أن يتوسط بينه وبين العجم (الدولة الصفوية) لإبرام صلح (أي أنه يتودد ولكن بشكل فيه عزة، متناسياً ما فعله من تحالفه مع الشيعة)، فرفض السلطان الصلح ولم يقبل به بل وطرد السفير بعد أن أهانه ^(٣) وسار بجيشه إلى بلاد الشام لبدء القتال بين الطرفين في "مرج دابق" ^(٤)، وفي ذلك الوقت بعد أن قرر السلطان سليم الحرب والتحرك وقطع صحراء فلسطين قاصداً مصر قد نزلت الأمطار على أماكن سير الحملة مما يسرت على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة يسهل اجتيازها ^(٥)، حيث اعتبر سليم ذلك إشارة من ربه للفتح المبارك، حتى تتوحد الأمة الإسلامية بفتح مصر.

ولعل أسباب الصدام بين المماليك والدولة العثمانية ترجع إلى عدة أمور لا بد من سردها حتى تتضح الصورة وتبين النتائج بعد ذلك:

(١) تقع الآن في تركيا وتقع إلى الشمال من الحدود السورية

(٢) وهو الملك الأشرف سيف الدين قنصوه الغوري الظاهري الأشرفي، من مماليك الأشرف الظاهر خشقدم، ثم انتقل إلى الشرق قانداي.

(٣) من الأمور التي لا تجوز هي قتل الرسل، وكذلك إهانة الرسل والسفراء إلا إذا تناول هو فهنا يجوز الرد عليه رداً قوياً يعيد العزة للأمة الإسلامية من جديد.

(٤) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية ص ١٩٢.

(٥) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢١١.

أولاً: تحالف المماليك مع الشيعة كما ذكرنا آنفاً.

ثانياً: تفشي ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والانضمام إلى الدولة العثمانية، فقد اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي مع الشعب وتباحثوا في حالهم، ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة نيابة عن الجميع يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون إن الشعب السوري ضاق "بالظلم" المملوكي وإن حكام المماليك "يخالفون الشرع الشريف"، وإن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيراً عن فرحته، سيخرج بجميع فئاته وطوائفه إلى "عينتاب" -البعيدة عن حلب- ولن يكتفوا بالترحيب به في بلادهم فقط، ويطلبون من سليم الأول أن يرسل لهم رسولاً من عنده، وزيراً ثقة، يقابلهم سرّاً ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس^(١)، وقد كانت هذه الرسالة أحد العوامل التي دعمت السلطان سليم في حرب المماليك وفتح مصر^(٢).

ثالثاً: وكان الحال في مصر ليس بعيداً عن ذلك، فكان علماء وفقهاء مصر على نفس الشاكلة من كره المماليك في أواخر عهدهم حيث تفشى الظلم، فقد ذكر عبد الله بن

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ١٧٠.

(٢) ولقد ذكر الدكتور محمد حرب أن هذه الوثيقة موجودة في الأرشيف العثماني في متحف طوب كابي في إسطنبول، رقم ١١٦٣٤ (٢٦) وبين أن ترجمة الوثيقة من العثمانية إلى العربية كما يلي: (يقدم جميع أهل حلب: علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالي، بدون استثناء طاعتهم وولاءهم -طواعية- لمولانا السلطان عز نصره - وبإذنتهم جميعاً، كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العلية. إن جميع أهل حلب، وهم الموالون لكم، يطلبون من حضرة السلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم، أو نطردهم، وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم، بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب، خلصنا أيها السلطان من يد الحكم الشركسي، احمنا أيضاً من يد الكفار، قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان، إن الشريعة الإسلامية، لا تأخذ مجراها هنا، وهي معطلة، إن المماليك إذا أعجبهم أي شيء ليس لهم، يستولون عليه، سواء كان هذا الشيء مالاً أو نساءً أو عيالاً، فالرحمة لا تأخذهم بأحد، وكل منهم ظالم، وطلبوا منا رجلاً من ثلاثة بيوت، فلم نستجب لطلبهم، فأظهروا لنا العداء، وتحكموا علينا، (ونريد) قبل أن يذهب التركمان أن يقدم علينا وزيراً من عندكم أيها السلطان صاحب الدولة، مفوض بمنح الأمان لنا ولأهلينا ولعبيائنا، أرسلوا لنا رجلاً حائزاً على ثقتكم يأتي سرّاً ويلتقي بنا ويعطينا عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين).

رضوان أن علماء مصر (وهم ممثلو الشعب المصري) يلتقون سرّاً بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر، ويقصون عليه (شكواهم الشريف) و(يستنهضون عدالة السلطان العثماني) لكي يأتي ويأخذ مصر).

رابعاً: التقاء الحدود المملوكية والعثمانية فكان لا بد من الصدام في أي وقت نظراً لاختلاف الوجهة والغاية بين كلا من الدولتين.

خامساً: ما لا يمكن إنكاره هو الرغبة التوسعية للسلطان سليم.

سادساً: لقد كان علماء مصر يرسلون السلطان سليم الأول لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه، ليستولي عليها، ويطردها الجراكسة (المماليك)^(١)، فرأى علماء الدولة العثمانية بأن ضم مصر والشام يفيد الأمة في تحقيق أهدافها الاستراتيجية، وصد الخطر البرتغالي على البحر الأحمر والمناطق المقدسة الإسلامية، وكذلك صد خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط، الذي كان على رأس الأسباب التي دعت السلطان العثماني لأن يتوجه نحو الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض في البداية، ثم تحمل العبء الكامل في مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكي.

ونستدل على ذلك بما قاله السلطان سليم الأول العثماني لطومان باي آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الريدانية (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأمصار، وأنا كنت متوجهاً إلى جهاد الرافضة (وبعني الصفويين) والفجار (وبعني بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا)، فلما بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر إلى

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٠٩، ٢١٠.

حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة، ومشيت إليه^(١).

معركة مرج دابق:

بداية صدرت ثلاث فتاوى من علماء السلطنة العثمانية تفيّد بأن الحرب ضد المماليك أصبحت جهاداً لا بدّ منه -أي أنها أضفت الطابع الديني على الحرب- بعد أن اتهموا المماليك بالخيانة العظمى^(٢)، ومما أكد هذا حصول السلطان سليم على بعض المراسلات بين المماليك والفرس، تؤكد تعاملهم مع الصفويين ضد الدولة العثمانية.

فتحركت الجيوش العثمانية للسيطرة على بعض الثغور والإمارات التي قد تسبب لها عائقاً في السيطرة على مصر، وعلى رأس هذا كانت إمارة "ذي القدر"^(٣) الفاصلة بينه وبين المماليك، ولعل أيضاً سبب اهتمامه بهذه الإمارة هو كثرة الغارات التي كانت تقيمها على القوافل العثمانية^(٤).

اعتبر قنصوه الغوري هذا الأمر بمثابة إعلان الحرب على الدولة المملوكية، وكان هدف سليم هو استدراج قنصوه إلى الشام، في حين أن قنصوه كان يخشى الحرب نظراً للأوضاع السيئة التي يمر بها وخصوصاً مع تزايد مطالبات الجند بالمال ونزول بعضهم في الشوارع ليعيشوا في الأرض فساداً، مما أضعف قوة قنصوه بشكل كبير، ولما رأى أن وضع الجيش لا يمكن به النصر تعاون مع الشاه الشيعي الصفوي

(١) قراءة جديدة في التاريخ العثماني ص ٧٠ طريق على الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢١٠.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٩ ص ٤٠٠، ٤٠١.

(٣) وهي أحد الإمارات التركمانية.

(٤) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ١٦٥.

الذي كان مستعداً تمام الاستعداد وخصوصاً بعد هزيمته في جالديران، ولكن هذا التعاون لم يسفر عن شيء بل صب في صالح سليم الذي إعتبرَ هذا طعناً للعثمانيين والإسلام ولذلك كانت الحرب لا محالة، وكان اللقاء في "مرج دابق" التي كُلت بنصر العثمانيين على المماليك^(٢).

أسباب انتصار العثمانيين على المماليك:

نرى أنه من الأهمية بمكان أن نعلم أسباب النصر والهزيمة في هذه المعركة حتى نأخذ منها العظات والعبر التي نتفعنا في حياتنا المعاصرة اليوم، فنرى أن أهم أسباب النصر:

أولاً: أن السلطان سليم وجيشه العثماني كان يتحرك من منطلق ديني عقدي، بغية توحيد الصفوف الإسلامية ضد الصفويين والبرتغال والإسبان خصوصاً، وضد العالم النصراني والشييعي عموماً، ولذلك كانت الحمية الإسلامية عالية مما كان عاملاً قوياً للنصر.

ومن هذا أريد أن أعقب على هذه النقطة بكلمة هامة ألا وهي "إن وضوح الهوية ووضوح الهدف سبباً وسبيلاً لقوة المسلمين على مر العصور"، فعندما اتضحت هوية الجيش العثماني، وهدفه كان النصر حليفاً له بفضل الله، وخصوصاً بعد خيانة قنصوه الغوري بتعاونه مع الشيعة ضد أهل السنة.

ثانياً: كانت الجيوش العثمانية جيدة التسليح على أكمل وجه وعلى أفضل ما يكون، عكس الجيش المملوكي الذي لم يهتم في الفترات الأخيرة من عمره بالتسليح والنظر

(١) راجع محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص ٤٧٩ ومع بعدها.

(٢) راجع، المرجع السابق ص ١٦٦: ١٦٨.

والمتابعة لما يحدث من تطورات علمية في الجانب العسكري، حيث صب كامل اهتمامه على المشاكل والتقلبات الداخلية وكيفية تسديد رواتب الجند.

ومن هذا يتضح لنا أن الاستعداد الجيد يكون بعد التوكل على الله سبباً وسبباً حاسماً في النصر، أما التواكل فهو ليس من الإسلام في شيء.

ثالثاً: كره الشعب للماليك نتيجة الظلم الذي تفشى من قبلهم سواء في الشام أو مصر، وهذا يؤكد دائماً أن الظلم للشعوب ورفع الضرائب عليهم، بل والاستمرار في فرضها^(١) هو ظلم بين لهم، لا يرضى الله به أبداً، وفي نهاية الأمر يعود بنتيجة وخيمة على الشعب نتيجة سكوته على الظلم، وعلى الحكام أيضاً نتيجة الظلم مثلما حدث مع قنصوه الغوري.

رابعاً: حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع في جميع نواحي حياتها واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدولة، بعكس الدولة المملوكية التي انحرفت عن الشريعة الغراء ومارست الظلم على رعاياها^(٢).

معركة الريدانية:

أراد السلطان سليم بعد انتصاره في مرج دابق أن يوقف الحرب وألا يستمر في زحفه على مصر لكن راودته فكرة توحيد العالم الإسلامي والتي هي هدفه من البداية، فعرض على طومان باي^(٣)، الذي تولى السلطنة بعد الغوري، أن يعلن خضوعه له مقابل أن يسند سليم الأول إليه حكم مصر على أن يضرب العملة باسم

(١) من شروط الضريبة حتى تكون متوافقة مع الإسلام الا تكون مستمرة وتكون للحاجة الضرورية فقط، أما فرضها باستمرار هو ظلم وما لا يجوز شرعاً.

(٢) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ٣١.

(٣) ابن شقيق السلطان الغوري.

الدولة العثمانية، ويخطب الخطبة باسم سليم الأول على المنابر ويدفع ضريبة سنوية، أي إن مصر تصبح آيالة عثمانية واليها أو حاكمها هو طومان باي، إلا أنه رفض هذا الأمر واستعد للقتال مرة أخرى في موقعة الريدانية التي انتصر فيها سليم مرة أخرى.

وقُبضَ على طومان باي، ومن الملاحظ أن سليم لم يكن يريد أن يقتله ولكنه في نهاية الأمر أذن للاحاح خير بك وجانبرد الغزالي^(١) فأمر بقتله في (٢١ ربيع الأول ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م) وأعدم على باب زويلة، ومكث السلطان في مصر ثمانية أشهر، زار خلالها مساجد المدينة وأثارها ووزع العطايا وحضر الاحتفالات التي تحمل الكسوة إلى الكعبة الشريفة^(٢).

مصر تحت الحكم العثماني:

وقد نقل الدكتور علي حسون عن الجبرتي من كتابة تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار في المجلد الأول وصفاً لفترة حكم العثمانيين في مصر إبان عهد سلاطينهم العظماء أقتطف بعضاً منها:

"... وعادت مصر إلى النيابة كما كانت في صدر الاسلام ولما خلص له (أي السلطان سليم) أمر مصر، عفا عمن بقي من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلل الحرمين والأنبار ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوث والمغارم ولما توفي تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وأتم المقاصد ونظم الممالك وأثار الحوالك ورفع منار الدين وأحمد نيران الكافرين. لم تزل البلاد منتظمة في سلوكهم ومنقادة تحت

(١) وهم أحد الامراء المماليك الذين انفصلوا عن قنصوه الغوري وانضموا إلى الجيش العثماني.

(٢) إبراهيم بك حلیم، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١١٧.

حكمهم، وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذب عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين فلذلك اتسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم. هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين" (١).

وفاة السلطان سليم:

توفي السلطان سليم الأول في ٩ شوال سنة ٩٢٦ هـ الموافق ١٥٢٠م وهو ابن ٥١ عام، وذلك إثر مرض ألم به في طريق عودته من إسلامبول إلى أدرنه (٢) واستمر في حكمه تسع سنين وأُخفي خبر موته حتى حضر ابنه سليمان من إقليم صاروخان خوفاً من ثورة الإنكشارية (٣)، وبالفعل قد جاء بعد ذلك سليمان وتولى زمام الأمور.

انتقال الخلافة:

لن نخوض بداية في أحداث انتقال الخلافة وتنازل الخليفة المتوكل على الله عن هذا اللقب للسلطان سليم، وذلك لأن الواقع التاريخي يقول بأن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب "خليفة الله في طول الأرض وعرضها" منذ عام ١٥١٤م (٩٢٠هـ) أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعها لآل عثمان، لذلك نرى أنه لا جدوي من تفاصيل انتقال وتنازل الخليفة العباسي المتوكل على الله للسلطان سليم، الذي كان وأجداده قد كسبوا مكانة عظيمة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتد به، بل يعزل ويعين من قبل المماليك كما

(١) على حسون، تاريخ الدولة العثمانية ص ٦٣.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٢٣.

(٣) على حسون، تاريخ الدولة العثمانية ص ٥١.

يحلوا لهم ومثال ذلك ما حدث في عهد برقوق حيث أراد أن يقتل الخليفة ولكن العلماء أفتوا بعدم جواز ذلك، فعزله وسجنه وعين غيره.

كما أن فتوح سليم أكسبته قوة ونفوذاً معنوياً ومادياً وخصوصاً بعد دخول الحرمين الشريفين تحت سلطانه وأصبح السلطان العثماني مقصداً للمستضعفين المسلمين الذين ينطلقون إلى مساعدته، وخصوصاً بعد أن هاجم البرتغاليين الموانئ الإسلامية في آسيا وإفريقيا^(١).

ولكن ما نود أن نتطرق إليه هو حكم انتقال الخلافة ذاته أو مسألة انتقال الخلافة من قرشي وهو الخليفة العباسي المتوكل على الله إلى غير قرشي وهو السلطان سليم الأول، نظراً لأن غالبية الكتب التاريخية لم تتحدث عن هذه النقطة بل تتلافها كما لو أنها شوكة ونيران تحترق كل من يقترب منها، فبعيداً عن الأحداث التاريخية نتطرق إلى هذه النقطة.

إن منصب الخليفة إنما هو أعلى المناصب في السلم الإداري وفقاً للنظام الإسلامي، وهو يلقب بعدة ألقاب أولها الخليفة، وثانيها أمير المؤمنين وثالثهما الإمام، وإن كانت لفظة الإمامة معروفة بشكل أكبر لدى الشيعة، ويميزون بها سيدنا علي -رضي الله عنه- عن غيره، وهذا ما لا يجوز أيضاً فكلهم أمراء مؤمنين وخلفاء وأئمة المسلمين.

ولهذا المنصب لا بد من توافر شروط كالرجولة والإسلام والعقل وغير ذلك من الشروط التي لم يُختلف عليها نهائياً بين علماء المسلمين، ولكن بدأ الخلاف عند الوصول لشرط القرشية، أي النسب من قُرَيْشٍ.

فقد قال البعض بشرط القرشية وهو ضروري لأنَّ يَكُونَ الرجل خليفة للمسلمين، وقال آخرون إن هذا الشرط غير معتبر وليس أساسياً بل هو **أفضلية**، بمعنى أنه إذا

(١) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص ٦١، ٦٢ - على الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢١٤.

تساوى فردان في الصفات والمقومات والضوابط والشروط والقدرة... الخ، وأحدهم قرشي فهنا يفضل القرشي على غيره، وقال آخرون لا تدخل القرشية نهائياً في الأمر بل غير القرشي أولى.

ومن هذا كله نخلص إلى تساؤل هام ألا وهو هل يشترط القرشية فيمن يتولى خلافة المسلمين، أم إن هذا الشرط هو شرط أفضلية لا أكثر؟

أهمية هذه المسألة:

وترجع أهمية هذا الأمر إلى أن ذلك في نهايته سيصب في حكم ولاية وخلافة بنى عثمان، من حيث كونها صحيحة أم غير صحيحة؟، وهل السلطان سليم ومن تبعه خلفاء للمسلمين أم لا؟ وبالتالي هل يجوز الخروج عليه؟ أو هل كان جائزاً ما فعله الشريف حسين؟ وغير ذلك من الأمور التي ستترتب على هذه الأحكام.

وهذه المسألة ليست متعلقة بالماضي وحسب، إنما تتعلق بالماضي والحاضر وكذلك المستقبل، وخصوصاً أن الخلافة القادمة ستكون بإذن الله على منهاج النبوة، وعلى هذا لابد لنا من اتضاح الصورة حتى نعلم حين حدوثها في أي فريق سنكون، وفي أي جانب سنؤيد ونعضض ونؤازر.

تفرقة لابد منها:

يجب بداية أن نفرق بين أمرين، الأول هو الذي سيتولى الخلافة العامة للمسلمين، والثاني هم الأمراء الذين ينوبون عن الخليفة.

وبالنسبة للثاني أي الأمراء، فلا يشترط فيهم ذلك فقد استعمل النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة من بعده أمراء غير قرشيين كما هو مشهور ومعلوم، وهذا يُعيدنا إلى الأمر الأول وهو الخليفة العام للمسلمين وهل تشترط فيه القرشية أم لا؟

الرأي الأول لمن يرى القرشية شرطاً أساسياً:

فقد ذهب فريق من أهل العلم -وحجتهم في ذلك قوية- إلى اشتراط القرشية في الخليفة، بل قالوا ولو كان عاجزا عن القيام بأمر المسلمين وعلى هذا استدلوا:

بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ"^(١)، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "النَّاسُ تَبِعَ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّانِ، مُسْلِمُهُمْ تَبِعَ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ تَبِعَ لِكَافِرِهِمْ"، وفي رواية: "قُرَيْشٌ وَلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ، فَبَرُّ النَّاسِ تَبِعَ لِبَرِّهِمْ، وَفَاجِرُ النَّاسِ تَبِعَ لَفَاجِرِهِمْ"^(٢)، وكذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةٍ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ"^(٣)، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ"^(٤)، وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَمْرِ، مَا لَمْ تَعْصُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ بَعَثَ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ كَمَا يُلْحَى هَذَا الْقَضِيبُ" لِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ، ثُمَّ لَحَا قَضِيبَهُ فَإِذَا هُوَ أَبْيَضُ يَصْلِدُ"^(٥)، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حيث قام على باب البيت ونحن فيه فقال: "الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ، إِنْ لَهِمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ حَقًّا مِثْلَ ذَلِكَ، مَا إِنْ اسْتَرْحَمُوا رَحِمُوا، وَإِنْ عَاهَدُوا وَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا عَدَلُوا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"^(٦)

(١) رواه احمد.

(٢) (الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم).

(٣) رواه مسلم.

(٤) صحيح البخاري.

(٥) رواه احمد، وصححه الالباني.

(٦) رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك.

وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم عن هذا الحديث: هذا الحديث وأشباهه دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش، لا يجوز عقدها لأحد غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة وكذلك من بعدهم.

وقال الماوردي في الأحكام السلطانية في شروط الخليفة: (الشرط السابع): النسب وهو أن يَكُونَ من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه، ولا اعتبار بضرار^(١) حين شذ فجوزها في جميع الناس، لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه احتج يوم السقيفة على الأنصار في دفعهم عن الخلافة لما بايعوا سعد بن عبادَةَ عليها بقول النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ". فأقلعوا عن التفرد بها ورجعوا عن المشاركة فيها حين قالوا منا أمير ومنكم أمير تسليماً لروايته وتصديقاً لخبره ورضوا بقوله: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وقال النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قدموا قريشاً ولا تَقْدِّمُوها"، وليس مع هذا النص المسلم به شبهة لمنازع فيه ولا قول لمخالف له.

ويخلص أنصار هذا الرأي إلى أن شرط القرشية هو شرط أساسي لا بد منه، ولا يمكن التنازل عنه بل كما ذكرنا آنفاً ولو كان عاجزاً.

الرأي الثاني وهو يرى عدم اشتراط القرشية في الخلافة بل غيرهم أولى:

وهذا ما ذهب اليه الخوارج والمعتزلة الذين أجازوا الخلافة لغير القرشي بإطلاق، بل لقد وصلوا إلى أبعد من هذا فجعلوا غير القرشي أحق بها^(٢).

(١) هو من المعتزلة وسيأتي ذكر قوله في هذا الامر.

(٢) ونحن بالقطع ليس على نهج هؤلاء بأي حال من الأحوال.

وكذلك قالت الأشاعرة، وعلى رأسهم الامام الجويني^(١)، فقد اعترض على القائلين بتواتر حديث "الأئمة من قریش" فقال: "وهذا مسلك لا أثره؛ فإنَّ ثَقَلَةَ هذا الحديث معدودون، لا يبلغون مبلغ عدد التواتر"^(٢).

فهو لا يقبل الاستدلال بهذا الحديث، ويرى أنَّ هذا الشرط ليس له مستندٌ لا من النقل ولا من العقل، ويقول: "ولسنا نعقلُ احتياج الإمامة في وضعها إلى النسب"^(٣).

وزاد الجويني على ذلك بأنَّ فضَّلَ غير القرشي على القرشي إذا كان أكثر أهلية لهذا المنصب. يقول: "إذا وُجد قرشي ليس بذی دراية، وعاصره عالم تقی، يُقدِّم العالم التقی. ومن لا كفاية فيه؛ فلا احتفال به، ولا اعتداد بمكانه أصلاً"^(٤).

أما المعتزلة فيقول ضرار بن عمرو مبالغاً: إن تولية غير القرشي أولى لأنه أقل عشيرة؛ فإذا عصى أمكن خلعه^(٥).

وقطعاً هذا قول شاذ إذ جعل ضرار هنا الغاية من تولية وتفضيل غير القرشي بإمكان خلعه أيسر من القرشي ذو العصبية والقوة للدفاع عن مكانه كخليفة، وهذا قول غير منضبط بأي حال من الأحوال، إذ لو سهل خلعه لكان مطمئناً لكل طامع ذي شوكة أن يغتصب منه الخلافة، وبالتالي لا يحدث استقراراً للأوضاع، الذي هو مبتغى الخلافة في الأصل.

(١) أحد أبرز أئمة الأشاعرة وتوفي ٤٧٨ هـ.

(٢) الجويني: غياث الأمم في التياث الظلم، ص ٨٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨-٨٢.

(٤) المرجع السابق ص ٨٢.

(٥) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ١٩٠/٣.

الرأي الثالث: يقر بالقرشية ولكن ليس على إطلاقها:

يرى أنصار هذا الرأي الإقرار بشرط القرشية ولكن مع توافر شروط لا بد منها في قریش وفي القرشي، -غير متوفرة الآن- أما إطلاق شرط القرشية دون قيود فهو غير كائن، فهي -أي الخلافة- لمن هو أصلح وأقوم بها بعد توافر الشروط الأخرى، فيستندون بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

وقوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، "إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"^(٢) ليبين لنا صلى الله عليه وسلم تكافؤ الناس في الواجبات والحقوق والعقوبات، بدون أي استثناء لنسب أو مركز اجتماعي.

وقوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يا فاطمة بنت محمد اعلمي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله اعلمي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله اعلمي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم"^(٣).

(١) سورة الحجرات الآية ١٣، ومقصد الاستناد هنا ان الله عز وجل لم يفرق بصفة عامة بين مخلوق وآخر الا بالتقوي وليس بالنسب.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم والنسائي، ومقصد الاستناد هنا بالحديث أن النبي يعلم فاطمة أن النسب للنبي صلى الله عليه وسلم لا يغني عنها شيئاً وهي القرشية الشريفة بنت النبي صلى الله عليه وسلم.

واستدلوا أيضًا بقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: (إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حيّ استخلفته فإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل^(١))، والمعروف أن معاذ بن جبل أنصاري^(٢) لا نسب له في قريش^(٣).

وهذا يدل على الجواز في تولية غير القرشي، كما روي عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: (لو أدركني أحد رجلين، ثم جعلت هذا الأمر إليه لو ثقنت به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح)^(٤).

وقوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَتَبْلَغُونَ؟» قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَتَبْلَغُونَ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لِيُبَلِّغُ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»^(٥) فهذا الحديث في ذاته يهدم شرط القرشية.

(١) رواه احمد، وقال ابن حجر في فتح الباري رجاله ثقات.

(٢) معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، يكنى أبا عبد الرحمن، إمام فقيه، وعالم، أسلم وهو ابن ثمانين سنة، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- وأردفه الرسول وراءه، وشيعه ماشيًا في مخرجه وهو راكب، وبعثه قاضيًا إلى الجند من اليمن بعد غزوة تبوك وهو ابن ثمان وعشرين سنة ليعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم، وكان له من الولد عبد الرحمن وأم عبد الله وولد آخر لم يذكر اسمه

(٣) الإصابة لابن حجر ج ٩ ص ٢١٩.

(٤) رواه احمد وضعفه البعض.

(٥) رواه احمد.

فالإسلام جاء ليمحي ويهدم أي قوميات أو عصبيات كانت قائمة في الجاهلية بشتى أنواعها من العنصرية والتمييز على أساس العرق أو النسب أو اللون أو المال، وجعل الأخوة بين أفراد الأمة الإسلامية مبنية على أساس العقيدة لا الدم أو المصالح المشتركة، ولم يجعل الله لأي بشر أي امتيازات على أساس النسب أو المركز الاجتماعي، فليس هناك أي مركز في الدولة، بما فيه مركز الخليفة، يُفضّل فيه شخص على شخص على أساس النسب والدم.

قال ابن حزم: في الإمامة بعد رسول الله: قد اختلف الناس في هذا فقالت طائفة إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستخلف أحداً، واختلفوا فقال بعضهم: إن خلافة أبي بكر أولى لأن النبي استخلفه في الصلاة (أي استخلاف ضمني)، وقال آخرون إن النبي نص على استخلافه نصاً صريحاً^(١)، واستدل بهذا، أن النبي لم يقل بقرشية الخليفة، بل لم يحددها على أرجح الأقوال، أي أن الأمر مطلق دون تحديد بقرشي أو غير قرشي.

وذكر أبو يحيى الأنصاري^(٢)، أن من شروط الإمام أن يكون "قرشياً لخبر النسائي «الأئمة من قریش» فإنْ فُقدَ فكناني، ثم رجل من بني إسماعيل، ثم عجمي على ما في التهذيب، أو جرهمي على ما في التتمة، ثم رجل من بني إسحاق"^(٣)، أي أن القرشية هنا للتفضيل ثم على الترتيب من يليه في الأفضلية.

وذكر الخطيب الشربيني^(٤) مثل ذلك فقال في تعداده لشروط الإمامة: "خامسها كونه قرشياً؛ لخبر النسائي «الأئمة من قریش» وبه أخذ الصحابة ومن بعدهم، هذا عند

(١) ابن تيمية، السياسة الكبرى في الإسلام ١٧٢، ١٧٣.

(٢) - توفي سنة ٩٢٥ هـ.

(٣) الأنصاري: فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب، ٢٦٨/٢.

(٤) توفي سنة ٩٩٧ هـ.

تيسّر قرشي جامع للشروط، فإن عُدم فمنتسب إلى كنانة، فإن عُدم فرجل من بني إسماعيل صلى الله عليه وسلم، فإن عُدم فرجل جرهمي كما في التتمة، وجرهم أصل العرب، ومنهم تزوج سيدنا إسماعيل حين أنزله أبوه صلى الله عليه وسلم أرض مكة، فإن عُدم فرجل من بني إسحاق صلى الله عليه وسلم، ثم إلى غيرهم. ولا يشترط كونه هاشمياً باتفاق؛ فإن الصديق وعمر وعثمان -رضي الله تعالى عنهم- لم يكونوا من بني هاشم^(١).

من أقوال المُحدثين في ذلك:

ذهب الدكتور يوسف القرضاوي إلى تأييد العلامة ابن خلدون، في اعتبار أن شرط القرشية قد زال بزوال قوة قریش ومجدها؛ لأن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدمًا^(٢).

وهو ما ذهب إليه الشيخ عطية صقر حين قال: "إن اشتراط القرشية التي نص عليها الحديث، ليس المقصود منه التبرك بالانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعشيرته، فليس ذلك من مقاصد الإمامة؛ وإنما من مقاصدها قوة النفوذ وهيبة السلطان لتحقيق المصلحة للأمة ودفع الشر عنها، وإذا كان الحديث متفقاً مع هذا المقصد في أيام النبي صلى الله عليه وسلم وبعدها بقليل، فربما لا يتفق في وقت آخر"^(٣).

(١) الخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ١٣٠/٤.

(٢) القرضاوي، يوسف: كيف نتعامل مع السنة النبوية، ص ١٣٠.

(٣) عطية صقر: فتوى بعنوان "حديث الأئمة من قریش" www.islam-online.net

وقد ذكر الشيخ أحمد النقيب أن شرط القرشية قائم ما لم يُتغلب عليه، فالعثمانيون تغلبوا على الخلافة فانزعجوا من العباسيين الضعفاء وأصبح هو السلطان والخليفة وعلى ذلك لابد أن يسمع له ويطاع.

رأينا في هذه المسألة:

أولاً: نرى وبالله التوفيق، أن الأحاديث التي وردت في هذه المسألة إذا نظرنا إليها من الوهلة الأولى قد يشعر المرء بالتعارض، ولكن إذا دققنا النظر فيها سنجد أنه لا تعارض بين الأحاديث، فالنبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في الحديث المذكور: "لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى"، وهذا ينفي أي تفضيل للقرشي على غيره، أما قوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن "الأئمة من قُرَيْشٍ" فهذا يجب ألا يؤخذ على الظاهر، بل إن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصف واقعاً قائماً، وهو أن الأئمة من قُرَيْشٍ، وذلك نظراً للحال القائم آنذاك من كون السيادة والريادة في قریش فهل يعقل إذا جاء الإسلام ذهبت هذه السيادة والريادة؟، فقریش كانت زهرة البلدان وأئمتها كانت لهم الكلمة المسموعة، بل وكانت القبائل في شبه الجزيرة العربية تعترف بقریش قوة يُعمل لها حساب وتقبل باقي القبائل قيادتها لهم حيث مكانتها وهيبتها في قلوب العرب كبيرة، فقبَل الإسلام كانت قریش قبيلة قوية وكانت حاضنة لأهم مقدسات العرب، وهو البيت الحرام، الذي كان يزوره الناس من كل القبائل والبلدان، وبالتالي كانت الزعامة مقبولة في ذلك الوقت أن تكون في قریش.

ثانياً: كان المجتمع الإسلامي على عهد النبي قوامه العرب، والزعامة مطلب وغاية، فأراد النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمحي أي خلاف قد يكون قائم في هذه الفترة أو في فترة الخلفاء الراشدين التي بها من الأئمة ما يقوى على هذه المهمة والتي تعتبر البداية لتأسيس الدولة الإسلامية الناشئة في ذلك الوقت، والتي لا يمكن أن تنهض بوجود خلاف، لذلك فاحتج أبو بكر في يوم السقيفة بذلك، وهذا ما لا يمكن أن نحتج به الآن نظراً لأن الأوضاع تغيرت بشكل جوهري، حيث إن قریش الآن ليست بالمكانة التي كانت من قبل، وفكرة كونها شرط لأن يكون الخليفة منها أمر غير

منطقي الآن، وفقاً لوضع قریش القائم حيث الوصف الاجتماعي والتركيب المجتمعي للمجتمع المسلم قد اختلف اختلافاً جوهرياً عما كان عليه في عهد الرسول صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأصبح العرب يشكلون الأقلية في هذا المجتمع الإسلامي الكبير الذي نسال الله أن يجمعه مرة أخرى على كلمة الإسلام.

ناهيك عن البعض ومنهم ابن تيمية يرى أن الخلفاء انتهوا منذ نهاية فترة الثلاثين عاماً الواردة بالحديث ثم صارت ملكاً بعد ذلك ومعاوية أولهم^(١).

ثالثاً: بالتدقيق في الأحاديث سنجد أن أحاديث القرشية لا تدل البتة على أن رجال قریش هم الأتقى أو الأعلم أو الأكثر عدلاً، بل إن الواقع الذي نحياه الآن يدل على أن هناك أناس قرشيين وينتسبون إلى بيت النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا سبباً في فساد كبير وطامات كبرى حلت على الأمة الإسلامية ككل، على رأسهم زعيم المغفلين الشريف حسين الذي أفسد وضل وأضل^(٢).

رابعاً: إن ما يؤكد أن الأحاديث التي وردت في القرشية إنما تدل على واقع سياسي فقط وليس شرطاً للخلافة هي الأحاديث التي ذكرها المؤيدون لشرط القرشية ذاتهم حيث استدلوا بحديث "النَّاسُ تَبَعَ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ مُسْلِمُهُمْ لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ لِكَافِرِهِمْ"^(٣)، أو بالرواية الأخرى: "قُرَيْشٌ وُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ، فَبَرُّ النَّاسِ تَبَعَ لِبَرِّهِمْ، وَفَاجِرُ النَّاسِ تَبَعَ لِفَاجِرِهِمْ"، فهذا لا يدل البتة على أن رجال قریش هم الأفضل وبالتالي يستحقون تنصيب خليفة منهم دون غيرهم من بقية الخلق المسلمين، بل هو إخبار عن واقع سياسي واجتماعي في ذلك العصر يشبه الجزيرة العربية، فالرسول

(١) راجع ابن تيمية الولاية السياسية الكبرى في الإسلام ص ١٩٢.

(٢) سنفصل له لاحقاً.

(٣) صحيح مسلم.

يُخبر هنا أنه حتى الفاجر أو الكافر من العرب ينقاد لقائد فاجر أو كافر من قريش على التوالي.

فهل يعنى هنا أن الولاية تُكون للقرشي سواء كان فاجراً أو مسلماً؟! فبالقطع لا، إذ أن الإسلام هو شرطٌ أساسي في شروط الخلافة ولا يمكن التنازل عنه بأي حال من الأحوال، وهذا يعنى أن هذا الحديث لا يتعلق بالدين الذي هو أول شروط الخليفة، وبالتالي فالرسول يحدثنا عن توفر رجال في قريش لهم القدرة على القيادة، ويقبلهم الناس كقواد وزعماء، في ذلك الوقت، أي إنه توصيف لوضع قائم.

ويري المناوي^(١) أنها جاءت على صيغة الخبر لا الأمر؛ وبالتالي فإنه لا يترتب عليها حكم فيقول: "هذا على جهة الإخبار عنهم لا على طريق الحكم فيهم؛ أي إذا صلح الناس وبرّوا وليهم الأخيار، وإذا فسدوا وفجروا وليهم الأشرار، وهو كحديثه الآخر: "كما تكونوا يؤلى عليكم"^(٢).

خامساً: ما يستندون عليه من فعل أبي بكر في سقيفة بنى ساعدة، فإن الأخذ بظاهر الأمور يوقع في الأخطاء، فإذا دققنا في قول أبي بكر الصديق سنجده يقول "قَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَنْزِلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ لَيْسَ بِهَا غَيْرُهُمْ وَأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَجْتَمِعُ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَا تُصَدِّعُوا الْإِسْلَامَ"^(٣)، فأبو بكر هنا يوضح وضعا قائما بذاته لمنع أي خلاف قد يحدث في هذا الوقت الحرج، ولذلك لا بد من جمع كلمة العرب التي لن تجتمع إلا على قرشي.

(١) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين المشهور بالمناوي ولد سنة: ٩٥٢ هـ وتوفي سنة: ١٠٣١ هـ عاش في القاهرة، وتوفي بها، وهو من كبار العلماء بالدين والفنون انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، فمرض وضعت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تأليفه.

(٢) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ١٨٩/٣.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري.

سادساً: إن الأنصار هم من الصحابة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وبالتالي يؤخذ منهم مثلما يؤخذ من المهاجرين، وهؤلاء عاشوا مع النبي فترة عشر سنوات تجعلهم يفهمون كل هذه الأمور المتعلقة بالقرشية ولو وجد هؤلاء أن النبي كان يقصد في أي من أحاديثه حصر الخلافة في القرشية ما فكروا حتى أن يتدخل إلى عقولهم التفكير في الأمر وليس المطالبة به، كما حدث في يوم السقيفة.

سابعاً: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيْبَةٌ"^(١)، فهذا يقطع دابر الأمر كاملاً مكماً فالحديث لم يفرق بين الولاية العامة والخاصة بل جاء لعموم المسلمين وبالتالي ينفي فكرة القرشية.

ويذكر الشيخ ابن العثيمين رحمه الله عندما سئل ما وجه الجمع بين قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي"، وقوله: "الأئمة من قريش"؟ وهل يمكن أو يجوز لعبد حبشي أن يكون إماماً أعظم؟ وهل يوجد في هذا الزمان إمام أعظم؟

نعم إذا يسر الله للعبد الحبشي أن يكون إماماً أعظم فليكن إماماً أعظم، والرسول عليه الصلاة والسلام إنما قال ذلك في الاختيار، إذا أردنا أن نختار إماماً للمسلمين فلنختار من قريش، ولكن من قريش مَنْ؟ الذين قاموا بالدين، أما مجرد الانتساب لقريش أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه ليس بفضيلة إلا إذا اقترن بالدين، لو جاءنا رجل من قريش وقال: إنه أحق بالإمامة من غيره وهو فاسق. قلنا: لا، لأن من شرط الإمامة عند ابتداء الاستخلاف: أن يكون عدلاً، لكن لو أن أحداً قهر الناس وحكمهم فإنه يجب له السمع والطاعة، ولو كان عبداً حبشياً كان رأسه زبيبة، ففرق بين الاختيار وبين أن يسطو أحد ويستولي على الناس بقوته، فهنا نقول: نسمع ونطيع ولا

^(١) وورد الحديث كما رواه البخاري، "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيْبَةٌ"

ننابذ إلا أن نرى كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان، ولا يوجد إمام أعظم، وهذا من زمان الإمامة العامة فقدت من وقت وعهد الصحابة رضي الله عنهم، ألم تعلم أن عبد الله بن الزبير كان خليفة في مكة والحجاز، وأن بني أمية في الشام وما والاها، وأن فرقة أخرى في العراق؟ لكن من تولى على قطعة من الأرض وصار إمامها فهو إمام.^(١)

ثامناً: رأي أبي حنيفة في هذه المسألة هو ضرورة أن يكون الخليفة من قريش^(٢)، وليس هذا رأيه وحده بل هو رأي يتفق عليه أهل السنة^(٣)، وليست علة ذلك أن الخلافة الإسلامية -من وجهة نظر الشريعة- حق دستوري لقبيلة واحدة من قبيلة قريش، وإنما علة ظروف ذلك العصر حينما كان من اللازم للمسلمين أن يكون الخليفة قرشياً من أجل بناء المجتمع وإقامته واستناباه.

ويذكر ابن تيمية أن ذكر شرط القرشية معللة بما قاله ابن خلدون الذي تكلم في مقدمته عن العلة من اشتراط القرشية^(٤)، حيث يقول ابن خلدون: "أن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتُشرع لأجلها، ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه الذي لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هو في المشهور وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلاً لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها، حيث لن نجدها إلا اعتباراً للعصبية التي تُكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة

(١) تفرغ صوتي للشيخ رحمه الله.

(٢) المسعودي ج ٢، ص ١٩٢ بواسطة موقع طريق الإسلام بعنوان مذهب أبي حنيفة في الخلافة.

(٣) الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ١٠٦، البغدادى الفرق بين الفرق ص ٣٤٠.

(٤) ابن تيمية، الولاية السياسية الكبرى، ص ١٧٢.

بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها. وذلك أن قریشاً كانوا عصابة مضر وأصلهم وأهل الغلبة منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف. فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويسكنون لغلبهم فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يرددهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرة فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة. والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية. بخلاف ما إذا كان الأمر في قریش لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلبة إلى ما يراد منهم فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها. فاشتراط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأدعن لهم سائر العرب وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب. ويعلم ما كان لقریش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن إسحق في كتاب السير وغيره. فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلبة وعلماً أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علماً أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشتراطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبية على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية، ولا يعلم ذلك في الأقطار والأفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة. وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه. ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب في

شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس. ثم أن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم. وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي. والله تعالى أعلم^(١)، وكذلك قال ابن الأزرقي^(٢) ما يفيد قول ابن خلدون^(٣).

حتى إن الشيخ والعالم الجليل العز بن عبد السلام^(٤) قال: "وشرط في الأئمة أن تكون من أفضل الأمة، لأن ذلك أقرب إلى طواعيتهم على المساعدة في طلب المصالح ودرء المفاسد، وأمر بطوعية الأفاضل بشرط أن يكون الأئمة من قريش، لأن الناس يبادرون إلى طوعية الأفاضل في الأنساب والأحساب والدين والعلم، ويتقاعدون عن طوعية الأراذل، بل يتقاعدون عن طوعية أمثالهم، فما الظن بمن هو دونهم"^(٥). فيفهم من كلامه أنه مثلما أشار إليه ابن خلدون وغيره، من وجود الغاية مبرراً لشرط القرشية، إلي كون الخلافة يجب أن تكون في أفضل من هم بالأمة حتى يطاعوا؛ وبالتالي إذا أصبح حال قريش يرثى له كما هو الآن، وأصبحت الناس لا تعيرهم الاهتمام مثلما كان، فعلى هذا لا يمكن القول بالقرشية.

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون ص ١٤٧.

(٢) هو محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، أبو عبد الله، شمس الدين الغرناطي، المشهور بابن الأزرقي كان عالم اجتماعي سلك طريقة ابن خلدون، ولد ببلدة "مالقه" عام ٨٣١ هـ — ١٤٢٨ م أو ١٤٢٩، وتوفي في القنس يوم الإثنين السادس عشر من شوال سنة تسع وتسعين وثمانمائة ٨٩٩ هـ — ١٤٩١ م.

(٣) راجع ابن تيمية، الولاية السياسية الكبرى في الإسلام ص ١٩٤.

(٤) هو أحد اعلام السنة وتوفي عام ٦٦٠ هـ.

(٥) العز بن عبد السلام: الفوائد في اختصار المقاصد، ١٢١/١.

تاسعاً: إذا لم يقيم الخليفة القرشي الدين عامداً أو مقصراً أو نظراً لضعفه وسيطرة الجند أو الآخرين عليه، أو لم يقدر على سياسة الناس، وضعف أمر الخلافة على يده، فتغلب عليه من يقيم أمر الدين، ويجمع شمل المسلمين، ويوحد كلمتهم، وصفهم، ويرفع راية الجهاد عالية خفاقة على يده فإن ولايته صحيحة منعقدة عند أهل العلم.

فعن عبد الله بن مسعود: عن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَمْرِ، مَا لَمْ تَعْصُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ بَعَثَ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ كَمَا يُلْحَى هَذَا الْقَضِيبُ" لِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ، ثُمَّ لَحَا قَضِيبَهُ فَإِذَا هُوَ أَبْيَضُ يَصْلِدُ"^(١)، وفي هذا علامة من علامات النبوة حيث أن فيه إشارة إلى ما سيحدث بعد ذلك من فساد الحال لقريش، وقد حدث بالفعل فسلط الله عليهم الأقوام، كالتتر التي اجتثتهم من فوق الأرض، إلى أن ضعفوا ضعفاً شديداً فقيض الله السلطان سليم لأخذ زمام الأمور.

وقال ابن قدامة رحمه الله: وَلَوْ خَرَجَ رَجُلٌ عَلَى الْإِمَامِ، فَقَهَرَهُ، وَغَلَبَ النَّاسَ بِسَيْفِهِ حَتَّى أَقْرُوا لَهُ وَأَدْعَوْا بِطَاعَتِهِ، وَبَايَعُوهُ، صَارَ إِمَامًا يَحْرُمُ قِتَالُهُ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ خَرَجَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَتَلَهُ وَاسْتَوْلَى عَلَى الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا، حَتَّى بَايَعُوهُ طَوْعًا وَكَرْهًا، فَصَارَ إِمَامًا يَحْرُمُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ لِمَا فِي الْخُرُوجِ عَلَيْهِ مِنْ شَقٍّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ وَإِرَاقَةِ دِمَائِهِمْ وَذَهَابِ أَمْوَالِهِمْ، وَيَدْخُلُ الْخَارِجُ عَلَيْهِ فِي غُمُومٍ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (مَنْ خَرَجَ عَلَى أَمْتِي، وَهُمْ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوا عُقَّةَ السَّيْفِ، كَانِنًا مَنْ كَانَ)^(٢).

(١) رواه احمد، وصححه الالباني.

(٢) "المغني" (٥٢٦/٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وَالْقُدْرَةُ عَلَى سِيَاسَةِ النَّاسِ تَكُونُ إمَّا بِطَاعَتِهِمْ لَهُ، وَإِمَّا بِقَهْرِهِ لَهُمْ، فَتَمَّتْ صَارَ قَادِرًا عَلَى سِيَاسَتِهِمْ بِطَاعَتِهِمْ أَوْ بِقَهْرِهِ، فَهُوَ ذُو سُلْطَانٍ مُطَاعٍ، إِذَا أَمَرَ بِطَاعَةِ اللَّهِ (١)".

وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ فِي رِسَالَةِ عُبْدُوسُ بْنُ مَالِكٍ الْعَطَّارِ: "أَصُولُ السُّنَّةِ عِنْدَنَا: التَّمَسُّكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، إِلَى أَنْ قَالَ: "وَمَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَرَضُوا بِهِ، وَمَنْ غَلَبَهُمُ بِالسَّيْفِ حَتَّى صَارَ خَلِيفَةً، وَسُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَدَفَعُ الصَّدَقَاتِ إِلَيْهِ جَائِزٌ، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا".

وَقَالَ فِي رَوَايَةِ إِسْحَاقَ بْنِ مَنْصُورٍ - وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً" مَا مَعْنَاهُ؟. فَقَالَ: تَدْرِي مَا الْإِمَامُ؟ الْإِمَامُ الَّذِي يُجْمَعُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، كُلُّهُمْ يَقُولُ: هَذَا إِمَامٌ؛ فَهَذَا مَعْنَاهُ (٢).

عاشراً: ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قام على باب البيت ونحن فيه فقال: "الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ، إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكُمْ حَقٌّ وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ حَقٌّ مِثْلَ ذَلِكَ، مَا إِنْ اسْتَرْحَمُوا رَحِمُوا، وَإِنْ عَاهَدُوا وَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا عَدَلُوا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" فَهَذَا الْحَدِيثُ يَضَعُ شَرْطاً لِلْقُرَشِيَّةِ، وَهُوَ: مَا إِنْ اسْتَرْحَمُوا رَحِمُوا، وَإِنْ عَاهَدُوا وَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا عَدَلُوا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ مِنْهُمْ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ الْقُرَشِيَّةَ مُشْرُوطَةٌ بِأُمُورٍ إِنْ تَحَقَّقَتْ حَقٌّ لَهَا بِهَا، وَإِنْ لَمْ تَحَقَّقْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَقٌّ فِي

(١) موقع الشيخ صالح المنجد، الإسلام سؤال وجواب <https://islamqa.info/ar/227620>.

(٢) "منهاج السنة النبوية" ١/٥٢٨-٥٢٩.

أخذها، بل عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وذلك أيضا يؤكد قول النبي صلى الله عليه وسلم «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم»^(١).

وكان مما ينكره أبو حنيفة على الخلفاء ويرى معه بطلان إمامتهم هو تصرف بعض الخلفاء غير المشروع في الخزانة الرسمية للدولة وتعليقهم على أملاك الناس من بين الفعال التي كان الخلفاء يفعلونها في عصر أبي حنيفة، وكان يعترض على ذلك اعتراضاً شديداً لأنه كان يرى الظلم في الحكم، والخيانة في بيت المال من الأمور التي تبطل إمامة الإمام، كذلك لم يكن أبو حنيفة يبيع تملك الخليفة للهدايا التي ترسل إليه من الدول الأخرى، بل كانت -عنده- من نصيب خزانة الشعب لا من نصيب الخليفة وأسرته، فلولا أن هذا خليفة المسلمين وأن صيته ذاع بسبب قوتهم الاجتماعية لما أهديت إليه هذه الهدايا، لأن الناس لا يهدون من قعد في بيته^(٢)، ودليل ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو حميد رضي الله عنه قال: إن النبي استعمل رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي إلي فقال النبي: "ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي إلي، فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفسي بيده لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء يوم القيامة يحمله على رقبتة إن كان بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً"^(٣).

(١) أخرجه الروياني في مسنده. أنظر: مسند الروياني، ٤٨/١، حديث ٦٢٤. وذكره ابن عدي في الضعفاء. أنظر: ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال، ٨٦/٢، برقم ٣٠٧.

(٢) السرخسي شرح السير الكبير ج ١ ص ٩٨.

(٣) الصحيحين.

خلاصة القول:

نخلص من كل ما سبق إلى أمرين:

الأول: ما هو حكم خلافة السلطان سليم الأول؟

في ذلك يقول الشيخ صالح المنجد: إن خلافة السلطان سليم الأول صحيحة، سواء بكون شرط القرشية غير قائم بذاته، أو لكونه متغلب، أي أنها ولاية شرعية صحيحة، واجتمعت الأمة عليهم، وقد حملت الخلافة العثمانية لواء الإسلام ورفعت راية الجهاد عدة قرون، ولم تزل أوروبا الصليبية تخافها وترهبها، وتتحين الفرصة للقضاء عليها، حتى تم لهم ذلك في أوائل القرن الماضي.

وقد تفاوت سلاطين آل عثمان في قيامهم بالدين ومنهجهم في الاعتقاد، فلسنا نطعن في خلافتهم وخصوصاً في عصور القوة واجتماع المسلمين عليهم، وما حصل منهم من تقصير، أو انحراف في عهودهم المتأخرة فأمره إلى الله.

الثاني: بخصوص مسألة القرشية هل هي شرط أم لا؟

فنقول من خلاصة كل ما سبق ذكره، أن القرشية تكون شرطاً في حال كانت لقريش القوة والعصبية التي تقوي على حمل أمر الخلافة دون شق عصا المسلمين، ودون تعاوناً مع أعداء الإسلام مثلما فعل الشريف حسين وهو قرشي حاول أن يدعي لنفسه الخلافة على العرب، وكان تعاونه الجاد والدؤوب مع الإنجليز لإسقاط الخلافة العثمانية.

وكذلك مع ضرورة أن يكونَ القرشي الذي ولي الخلافة مقيماً للعدل وباسط للرحمة بين المسلمين وإلا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

أما في حال كون قريش مثلما هي عليه اليوم، فإنه لا يمكن وضع شرط القرشية واعتماد النسب وجعله هو المعول عليه في أمر الخلافة، ولهذا فمن يستطيع أن يفعل

مثلما فعل السلطان سليم الذي كان له الشوكة وأقام الدين والقوة والغلبة والقدرة على سياسة المسلمين، والصد عنهم ضد أعداء الإسلام والزود عن دين الله وتوحيد الصفوف، فليفعل ليكون خليفة المسلمين.

وإننا لعلّى يقين أن الخلافة ستعود حتما إن شاء الله تعالى وذلك مصداقاً لقول الرسول صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « تَكُونُ النَّبُوءَةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاصًا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوءَةٍ ». ثُمَّ سَكَتَ^(١).

وعليه تكون شروط توافر القرشية نوعان الأول متعلق بقريش ذاتها والثاني بالقرشي حين يتولى:

الأول المتعلق بقريش:

أن تكون قريش ذات قوة ومكانة بين البلدان.

أن تكون قريش لها العصبة والقوة التي تقوي على حمل المهمة الثقيلة

أما شرط استمرار القرشي بالخلافة مرهون بأمور، وهي:

الأول: إقامة الدين وشرع الله الكريم بين الناس.

(١) رواه احمد في مسنده قال: حدثنا سليمان بن داود الطيالسي: حدثني داود بن ابراهيم الواسطي: حدثني حبيب بن بن سالم عن النعمان بن بشير أنه قال: كنا قعودا في المسجد، وكان بشير رجلا يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشير بن سعد أتُحفظ حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته. فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة ... الحديث.

الثاني: بذل الرحمة بين الناس.

الثالث: القدرة على سياسة الناس.

وعلى هذا إن لم تتوافر هذه الشروط فلا يتوافر شرط القرشية، أي إنه أصبح معلق على شروط لا بد منها.

وخير الأئمة من يجعله الله لا من يصنعه البشر، قال تعالى لإبراهيم {إني جاعلك للناس إماماً} فآلهم اجعل لنا إماماً.



الشاه إسماعيل الصفوي

إن شخصية إسماعيل الصفوي من الشخصيات الهدامة والتي ساهمت في نشر المذهب الفاسد للشيعية بإيران ومحاولة إدخال أهل السنة فيه بالإكراه، والذي ينسب إليه تأسيس الدولة الصفوية، وإسماعيل الصفوي هو: أبو المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، أو إسماعيل بن حيدر بن الجنيد الصفوي ولد في 25 رجب 892 هـ - 25 يوليو 1487م.

ولكن من هم الصفويين؟ ومن أين جاءوا؟

فالصفويون ينسبون إلى صفى الدين الإردبيلي، المولود سنة ٦٥٠ هـ (١٣٣٤م)، والمتوفي سنة (٧٥٣ هـ)، وهو الجد الخامس للشاه إسماعيل، وقد نشأ نشأة صوفية، وكان صاحب طريقة، مما ساعد على التفاف الكثير من المريدين حوله، وانتشار دعوته، بالإضافة إلى الدعاية المؤثرة التي قام بها هو وأتباعه من المتصوفة وال دراويش الذين استطاعوا نشر دعوتهم لا في إيران وحدها بل في بعض أقاليم الدولة العثمانية وفي العراق وبلاد الشام^(١).

وقد استطاع الشيخ صفى الدين بكونه شيخ طريقة أن يشق طريقة في المجتمع الإيراني، كما استطاع أن يكسب تأييد الكثير من الإيرانيين مما أدى إلى تحول هذه الفرقة إلى الدعوة للمذهب الشيعي، حيث أشيع أن الشيخ صفى الدين وأولاده ينتمون إلى علي ابن أبي طالب؛ ومن ثم يكون لهم الحق في المطالبة بالحكم، وكان صفى الدين قد لجأ إلى التقية^(٢) إذ كان مظهره

(١) د. محمد نصر، الإسلام في اسيا من الغزو المغولي دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والاقليمية بتصرف ص

(٢) التقية "بمعناها المعروف المشهور من أصول الرافضة الاثنا عشرية التي يخالفون بها أهل السنة والجماعة ويخرجون بها عن صراط الله المستقيم .

فالتقية في دين هؤلاء هي أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن تدبينا ؛ فينسبون الكذب والخداع لدين الله ظلما وعدو. وليست هذه العقيدة الفاسدة من عقيدة أهل السنة في شيء ؛ فالكذب عند أهل السنة من صفات المنافقين، ولا يزال

يوحي بكونه من أهل السنة وأظهر أنه من أتباع المذهب الشافعي، ولما تمهدت السبل أمام هذه الدعوة المشؤومة أعلن أحفاده وهو الشاه إسماعيل الدعوة الشيعية، ومن هنا أصبحت إيران الدولة الصفوية بل وتعد نفسها من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم منهم براء^(١).

يقول الأستاذ علاء الدين في كتابه الصراع الصفوي العثماني: "إن حفيد صفي الدين-الخوجة علي- والذي تولى رئاسة الطريقة سنة ٨٠١ هـ/١٣٣٩م تحول إلى التشيع، وكان معتدلاً غير متعصب لمذهبه الجديد، غير أن ابنه إبراهيم أصبح متعصباً ومتحمساً للإثنى عشرية، فقاد أتباعه للصراع مع أهل السنة في داغستان وخلف في نفس الطريقة ابنه الشيخ حيدر والد إسماعيل الصفوي والذي تولى رئاسة جماعته سنة ٨٥٩ هـ/١٤٥٥م، وكان أتباعه من التركمان وليس الإيرانيين، وكانوا يسمون بالفلزباشية أي "نوو الرؤوس الحمراء".

الإنسان يكذب ويحترى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا، وهؤلاء يكذبون ويحترى الكذب في كل شيء، ثم يجعلون من ذلك اعتقادا ودينا!!

ومنهج أهل السنة والجماعة قائم على الصدق والعدل، وليس الكذب من دينهم بحمد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"الرَّافِضَةُ أَجْهَلُ الطَّوَائِفِ وَأَكْذِبُهَا وَأَبْعَدُهَا عَنْ مَعْرِفَةِ الْمُنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ وَهُمْ يَجْعَلُونَ النَّفْيَةَ مِنْ أَصُولِ دِينِهِمْ، وَيَكْذِبُونَ عَلَى أَهْلِ النَّبِيِّ كَذِبًا لَا يَخْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى يَرُؤُوا عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ أَنَّهُ قَالَ: النَّفْيَةُ دِينِي وَدِينُ آبَائِي، وَ النَّفْيَةُ " هِيَ شِعَارُ النَّفَاقِ ؛ فَإِنَّ حَقِيقَتَهَا عَنْدهُمْ أَنْ يَقُولُوا بِالسَّنَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَهَذَا حَقِيقَةُ النَّفَاقِ. " انظر "مجموع الفتاوى" (١٣ / ٢٦٣).

(١) المرجع السابق بتصرف ص ٢٤٠.

والشيخ حيدر^(١) هو الذي أدعى وزعم أنهم ينسبون إلى موسى الكاظم^(٢) أحد أحفاد سيدنا على بن أبي طالب، الذي على أساسه أعتبر الشاه إسماعيل الصفوي نفسه من آل البيت كما ذكرنا^(٣)، وقد تزوج الشيخ حيدر من مارتا بنت حسن الطويل مؤسس دولة الخرفان البيض والسابق ذكرها عند الحديث عن السلطان محمد الفاتح والتي حكمت شمال غرب إيران، وأمها -أي زوجة حسن الطويل-مسيحية اسمها كاترينا وهي ابنة كارلو يوحنا ملك مملكة طرابزون اليونانية^(٤).

وبعد أن جاء إسماعيل الصفوي الذي بدأ في نشر مذهب الشيعي بالقوة نظراً لضعف الدول المحيطة به آنذاك وانهيار دولة تيمور لنك بعد موته والتي تقاسمها أبنائه وتناحروا فيما بينهم مما جعل الفرصة متاحة أمام إسماعيل الصفوي الذي كان أجداده مقربين إلى تيمور لنك الذي استخدمهم سياسياً نظراً لكونهم ذو مكانة بين الناس.

واتخذ إسماعيل مذهب الإثنا عشري مذهباً رسمياً للبلاد، وفرضه بقوة السلاح والإرهاب، وأصبحت إيران الممثلة الرسمية له والمدافعة عنه بوجه الدولة العثمانية التي كانت تمثل الإسلام السني وقد كان ذلك التضاد في التوجهات مفتاحاً لصراع دموي دام زهاء الثلاثة قرون بل وله أثره إلى يومنا هذا في تركيا.

(١) وكان الشيخ حيدر متعصباً لمذهبه مقاتلاً في سبيله حتى قتل في صراعه مع ملك شيروان الفارسي المتعصب لسنيته، وكان من أعمال الشيخ حيدر الصفوي انه نسب إليه تشكيل القوات العسكرية الصفوية وابتكار رداء للرأس سمي "تاج حيدري" -وهو عبارة عن عمامة قرمزية بها اثنا عشر فنزعة نسبة إلى عدد الأئمة الاثني عشر عند الشيعة- وخلفه ثلاثة أولاد أصغرهم كان إسماعيل.

(٢) موسى الكاظم: أحد أعلام المسلمين، والإمام السابع عند الشيعة الإثنا عشرية، والده هو الإمام جعفر بن محمد الصادق أحد فقهاء الإسلام، قضى جزءاً من حياته في السجن، وعاصر فترة حساسة من تاريخ المسلمين. كنيته أبو إبراهيم وأبو الحسن، ومن ألقابه: الكاظم والعبد الصالح وباب الحوائج وسيد بغداد.

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٠.

(٤) موقع طريق الإسلام، مقال بعنوان الصفويون ودورهم الهدام في تاريخ الأمة.

بدأ إسماعيل الصفوي في تصفية معارضيه بشتى الأساليب والألاعيب، واستطاع الصفويون أن يجمعوا أعداداً كبيرة من المريدين والمؤيدين لهم، وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وأن كثير من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا من السنة، بل إن علماء الشيعة أنفسهم كانوا يخشون على ضياع المذهب من رفض السنة له وإعلان عصيانهم على الحاكم الصفوي الشيعي المذهب، الذي بذل جهداً كبيراً في نشر مذهبه بالقوة في إيران، فقام بالتجنيد للعناصر الشيعية واستغل حميتهم لضرب معارضيه والتأكيد على المذهب الشيعي، ولم يكتفى بهذا، بل اعتمد على قبائل التترلباش التركية الأصل لتكون نواة لقوته العسكرية، ذلك لأن المجتمع الإيراني كان يتكون من عناصر مختلفة نتيجة الغزو المتعاقب على البلاد مما كان يصعب صهر هذه العناصر في بوتقة واحدة وخصوصاً بتلك العقيدة الفاسدة، وقد كان إسماعيل الصفوي شرساً في حروبه شديد الفتك بمعارضيه وخصوصاً إذا كانوا من أهل السنة؛ فملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب وخرسان، أي أنه ملك مساحات كبيرة جداً^(١).

ووصل به الجبروت والتجبر أن أدعى الألوهية والربوبية فكان يسجد له عسكره ويأتمرون بأمره، وقتل خلقاً كثيراً من أهل السنة والجماعة حتى قيل إنه قتل زيادة على ألف ألف نفس بحيث لم يعهد في الجاهلية ولا في الإسلام ولا في الأمم السابقة في قتل النفوس ما قتله الشاه إسماعيل الصفوي، بل وقتل عدد من أعظم العلماء بحيث لم يبق عالم من علماء أهل العلم من السنة في بلاد العجم، وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم، وكان شديد الرفض والقتل والشراسة بخلاف آبائه^(٢).

(١) راجع على الصلابي، الدولة العثمانية اسباب النهوض والسقوط ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) البدر الطالع ج ١ ص ٢٧١.

بعض من العقائد والأفكار:

وكان من عقائد الشاه إسماعيل الصفوي وهي من عقائد المذهب الشيعي التي حاولوا نشرها في إطار الأقاليم العثمانية والتي رفضها المجتمع السنّي العثماني ذو العقيدة الصحيحة، فكان على رأس هذه العقائد سب الصحابة، رضوان الله عليهم وعلى رأسهم سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر، بل ولعنهم أيضاً، ولعن العصر الأول، وتحريف القرآن الكريم، ولذلك كان من الطبيعي أن يتصدى له السلطان سليم الأول رحمه الله وغفر له، زعيم الدولة العثمانية ممثلة السنة في ذلك الوقت والقوة التي يمكن أن تتصدى إلى هذه القوى الضارية التي تقتل كل من يقف أمامها بشراسة وقوة دون أدنى رحمة أو شفقه، فقد دخل العراق يُذبح في المسلمين السنيين على نطاق واسع وجمر مساجدهم ومقابرهم، مما يدل على حقد عقائدي على المسلمين، ولذلك لا نعجب مما يحدث الآن في سوريا فك الله أسرها ويسر الله أمرها من مذابح دموية بشعة -لا يتخيلها عقل- من الشيعة المدعومة بشيعة إيران ولبنان على وجه الخصوص، ولا نعجب أيضاً مما يحدث في العراق من مذابح لأهل السنة هناك، ولا من المذابح التي تقام لأهل السنة في الأحواز على يد إيران، ذلك لأن حروب العقيدة وهو ما نود التأكيد عليه دائماً وأبداً تختلف اختلافاً جذرياً عن أي حرب أخرى كاختلافها عن حرب المصالح، والتي تنتهي بانتهاء المصلحة أو الغرض من الحرب، أما حرب العقيدة فإنها لا تنتهي ولا تتوقف إلا بانتهاء أحد الطرفين نهائياً بالقضاء عليه أو بالدخول في عقيدته، لذلك نجد قول الله تعالى {وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}(١). فهذه هي حرب العقيدة التي لا يتم فيها الرضا إلا بالدخول في ملة الآخر، أو القضاء عليه تماماً، لذلك استمرت الحروب الصليبية لمائتين عام متصلة وإلى يومنا هذا وإن تغير شكلها وطريقاتها بمنظور آخر أو نسق مختلف بمسميات جديدة.

(١) سورة البقرة الآية ١٢٠.

الصراع مع العثمانيين:

لما رأى السلطان سليم تلك الأوضاع المتفاقمة من الشيعة فأعلن في اجتماع له مع العلماء والقضاة ورجال الدولة والسياسة عام ٩٢٠هـ - ١٥١٤م أن إيران أصبحت تمثل خطراً كبيراً لا على الدولة العثمانية بل على العالم الإسلامي كله، وأنه لهذا يرى الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية الشيعية، وكان رأي السلطان سليم هو رأي العلماء^(١).

وفى هذا يجب أن نلاحظ أمراً هاماً وخطيراً أن السلطان سليم رغم قوته المعروفة عنه وشخصيته إلا أنه لم يكن يترك الشورى في الرأي، ولم يترك أراء العلماء مع أهل الخبرة، وكان على رأي العلماء والسعي وراء ارتفاع شأن العالم الإسلامي وحمل همه في شتى بقاع الأرض كما يجب أن يكون عليه المسلم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»^(٢).

التحالف الصفوي مع أعداء الإسلام ضد المسلمين:

كان في ذلك الوقت البرتغال هم العدو الشرس ضد المسلمين بخلاف الإسبان حيث تسعى القوى البرتغالية للسيطرة على الأراضي الإسلامية وتدمير قوة الترك المتمثلة في الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول رحمه الله، فكانت سياسة البرتغال الرامية إلى التحالف مع الفرس في رسالة أرسلها البوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوي جاء فيها: "إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب وتهاجم مكة فستجدي بجانبك في

(١) جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس ص ٤٣٥ عن طريق على الصلابي الدولة العثمانية أسباب النهوض والسقوط ص ٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان ابن بشير.

البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو البحرين أو القطيف أو البصرة وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد"^(١).

وبالقطع كان الترحيب الشديد بهذه الرسالة والتعاون مع أعداء الإسلام في قتل المسلمين والقضاء على شوكة الإسلام المتمثلة في أهل السنة حيث الدولة العثمانية.

بداية الحرب:

بدأ السلطان سليم الأول بالفكر الصحيح من حيث تنظيف الداخل أولاً، فقام بحصر أتباع الأشاء إسماعيل الصفوي والمناوئين له داخل إقليم العثمانيين ثم قام بتصفيتهم، حتى يطمئن تمام الاطمئنان لمن حوله عند خوض الحرب المقدسة وبدء الجهاد في سبيل الله^(٢).

وأرسل رسالة إلى إسماعيل الصفوي بوجوب القصاص منه وبدء الحرب عليه، وأن يترك الفتنة وتبودلت الرسائل بين الطرفين ثم أخذ السلطان سليم طريقه نحو إيران^(٣)، وبدء السلطان يعسكر في صحراء "ياسي جمن" على مقربة من أذربيجان ووصلت الأنباء عن طريق العيون التي وضعها الشاه إسماعيل الذي كان لا يريد القتال بل يحاول أن يؤخره إلى أن يحل الشتاء فيهلك السلطان سليم ومن معه.

ولكن السلطان سليم كان قد وضع استخبارات داخلية داخل جيش الشاه إسماعيل، وعلم بهذا الأمر مما جعله يسرع التحرك بشده وحكمة وحذر، مما جعل الشاه إسماعيل يداهن معه محاولاً تجديد العلاقات بين الدولتين، ولكن السلطان سليم كان يعلم فقه التقية الذي يلجأ إليه

(١) زكريا سليمان قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٦٣.

(٢) العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ٢ ص ٣٥-راجع عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٢٥٣.

(٣) العيدروس، التاريخ العسكري العثماني ج ٢ ص ٣٥.

الصفويون للتخلص من الحرب معه^(١)، فلذلك رفض كل هذه المحاولات نهائياً، ووصلت الأخبار إلى سليم الأول أن الشاه إسماعيل بدأ بالتحرك واقترب من الوصول إلى صحراء جالديران فتحرك هو الآخر نحوها فوصلها في أغسطس عام ١٥١٤ هـ، واحتل المواقع الهامة فيها، وبدأت الحرب المستعرة بشدة وضراوة ثبت فيها العثمانيون ثبوت الأبطال، وكُتِبَ لهم النصر المبين على الصفويين الذين ألحق بهم هزيمة ساحقة على أرضهم^(٢).

واضطر إسماعيل الصفوي إلى الفرار من سليم الأول الذي كان يستعد لدخول تبريز عاصمة الصفويين، وبالفعل دخلها وانتصر على من فيها وحصر أموال الشاه الصفوي ورجال القلوباس واتخذها مركزاً للعمليات الحربية، ولم ينته الصراع بين السنة في الدولة العثمانية والشيعة في إيران بمعركة جالديران، وإنما ازداد العداء وحدة الصراع بين الطرفين بحيث أصبح كل منهم يترقب للآخر. وبانتصار السلطان سليم استطاع فتح مواقع أخرى وتحريرها "كکردستان" و"ديار بكر" و"مرغش" و"أبلسين" وباقي أملاك "دلفاود" وبذلك صارت الأناضول مأمونة من الاعتداء من الشرق وصارت الطرق إلى "أذربيجان القوقاز" مفتوحة للعثمانيين^(٣).

نهاية الصفوي:

تركت الهزيمة التي لقيها إسماعيل الصفوي أثراً قاسية في نفسه، ولم يكن قد لحقت به هزيمة قبل ذلك، حيث كانت الانتصارات متلاحقة بالنسبة له إلى أن وقف أمامه الأسد المغوار وناصر السنة السلطان سليم الأول؛ فمُنَى بهزيمة ساحقة وكبيرة، فشغلت نفسه بالتفكير في طريقة الانتقام من غريمه سليم الأول، إلا أن المنية عاجلت سليم الأول سنة (٩٢٦ هـ = ١٥٢٠م) وهو في طريقه لغزو إيران مرة أخرى.

(١) ولمراجعة تفاصيل الرسائل بين الطرفين راجع على الصلابي الدولة العثمانية ص ٢٠١ وما بعدها.

(٢) لمراجعة تفاصيل الموقعة راجع يلماز ازوتونا تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ٢١٥.

(٣) نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الاندلس ص ٤٣٦.

فشجعت وفاة سليم الأول المفاجئة إسماعيل الصفوي على أن تستحكم منه الرغبة في الانتقام من العثمانيين من جديد، غير أن الموت اغتال أمنيته، فمات متأثراً بالسل وعمره سبعة وثلاثون عاماً في (١٨ رجب ٩٣٠ هـ = ٢٣ مايو ١٥٢٤م) على مقربة من أذربيجان، ودفن في "أردبيل" إلى جوار أجداده، وخلفه في الحكم "طهماسب الأول".

ملحظ هام:

نريد أن نضع في الاعتبار أننا لسنا ممن يفضل التفرقة بيننا وبين الشيعة على أساس الفاظ "الصراع السنّي والشيوعي" بل نفضل التسمية الحقيقية للأمر وهي الصراع بين المسلمين والشيعة، لأن القول بلفظة السنة والشيعة توحى للعوام أن هؤلاء بين طيات المسلمين وأن الخلاف فقط هو في المذهب كما لو أن هذا مالكيًا وهذا شافعيًا، وقد قيل لي هذا في إحدى المرات من العوام، أما القول بالتسمية الحقيقية وهي الصراع بين المسلمين والشيعة فهنا نضع الأمور في نصابها الصحيح والتي توضح أن هؤلاء لا يعتبرون مسلمون ولا ينتمون إليه بل إن هؤلاء دين لا يدخل في إطار الإسلام بأي شكل ولا يمت له بصلة، فهؤلاء لهم قدسياتهم الخاصة وعقائدهم الفاسدة التي يكفرها الإسلام ويحرمها أشد التحريم، مثل ما ذكرنا سابقاً مضافاً إليها عقيدة الحلول والتقية وكذلك تقديس الأئمة لديهم فمنهم من جعلهم أفضل من الأنبياء بل إن هناك من جعلهم أفضل من الله عز وجل، ناهيك عن سب الصحابة، وسب وقذف أئمة عائشة رضي الله عنها وأرضاها، وأمور أخرى لا مجال للتفصيل فيها الآن.

خلاصة القول: إن اللفظ الصحيح الذي نريد إيضاحه هو الصراع بين المسلمين والشيعة كما نفضل أيضاً قولة الصراع الإسلامي اليهودي وليس العربي الإسرائيلي، فهذا أيضاً يقلب الحقائق ويدلسها، ولا بد من تصحيح الألفاظ حتى تتضح الهوية.

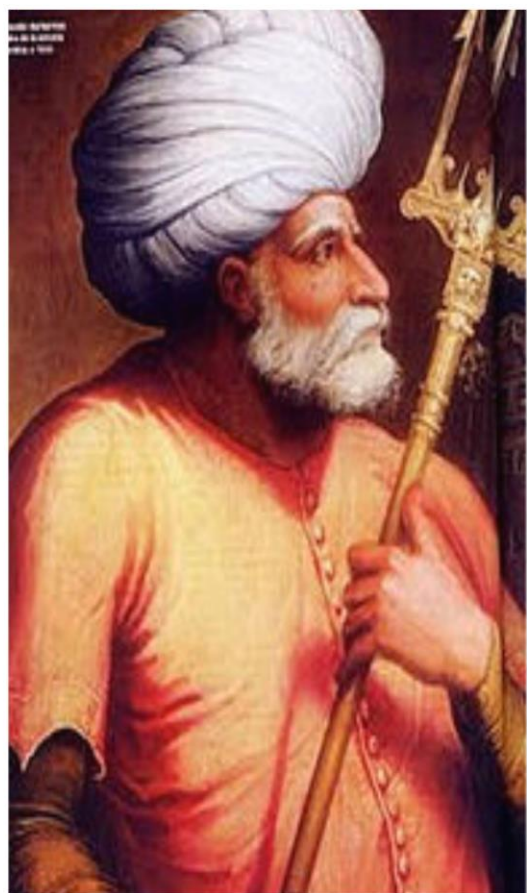
تأثير أحداث الصفويين إلى يومنا هذا:

لقد حدثت في تركيا الحديثة إبان إنشاء جسر جديد فيها، إذ أرادت الحكومة التركية تسميته باسم ياوز سليم، فوجدت اعتراضات كبيرة من الفئة العلوية المتواجدة بتركيا، وذلك لأنهم يزعمون

أن السلطان سليم قد ارتكب في حق الصفويين والشيعية مذابح، ولا ينسون معركة جالديران التي انهزم فيها الشاه إسماعيل الصفوي.

ولذلك فعند فهم التاريخ والأحداث التاريخية بفهم واعٍ نستطيع أن نرد على أمثال هؤلاء برد علمي، إذ بفهم ما فعله الشاه إسماعيل الصفوي وكم المسلمين الذين قتلهم وخروج السلطان سليم الذي اعتبر في ذلك الوقت منقذ للمسلمين ضد الشيعة يكون اعتراضات هؤلاء ما هي إلا أحقاد لن ولم تنتهي ذلك لأنهم يتكلمون بعقيدتهم الفاسدة وبنقمهم وحنقهم على أهل السنة.

وهذا يؤكد ما نقوله دائما أن التاريخ ليس شيء مضي وولى وانقضى بل هو بوابة لفهم الواقع وقراءة المستقبل.



الأخوان بربروس

إن الأمة الإسلامية رغم كونها مبتلاة دائماً بكثير من الأزمات الطاحنة في حياتها إلا أنها من أكثر الأمم حظاً بخروج الأبطال منها، بل الأسود الأشاوس في كل الميادين، وحديثنا عن أحد الميادين التي برع فيها المسلمون ولفترات طويلة من الزمن، وهي البحرية الإسلامية.

وحتى نفهم بعضاً من هذه البراعة في الدولة العثمانية، فحق علينا أن نتدارس شخصية الأخوان بربروس رحمهم الله، وكي نعرف قدرهم يكفي أن نتخيل للحظة أن دول أوروبا اجتمعت رغم اختلافهم للقضاء على هذه الشخصيات، فإلى أي درجة شكلوا عليهم خطراً؟! ويكفي قولاً فقط أن اسم بربروس كان يشكل رعباً في حياة أوروبا، بل كانت الأمهات ترعب أطفالها بهذا الاسم عند إغصابهم، فإلى هذه الدرجة كانت عظمة الأخوان، ولذلك وجب علينا أن نعرف مثل هؤلاء ليكونوا قدوة لنا في حياتنا إن أردنا أن نحيا حياة الكرام العظماء.

نسبهم ونشأتهم:

يُنسب الأخوان وفقاً لأرجح الأقوال إلى الأتراك، فأبوهم هو أبو يوسف يعقوب آغا^(١)، وقد كان هو وأبوه "عبد الله آغا" تماري سباهي (أي ضباط فروسية) بالجيش التركي، جاؤوا من قره سي وأخذوا أراضي تسمى تمار -أي أعطى لهم من قبل الدولة لإصلاحها- في شبه جزيرة "غاليبولي"، وعلى إثر اشتراك "يعقوب آغا" في الفتح لجزيرة مدللي عام ١٤٦٢م، فقد أعطيت لهم أراضٍ أوسع فاستوطن فيها وتزوج من إحدى بناتها^(٢)، وهي سيدة أندلسية ولدت له أربع

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٣١.

(٢) يلماز ازوتونا، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٣٩.

أبناء وهم إسحاق وعُروج^(١) وخضر (لقب بعد ذلك بخير الدين^(٢)) وإلياس^(٣)، وقد حرص الأب على تربيتهم تربية إسلامية صلبة، وقد اختار الابن الأكبر إسحاق طريق العلم والمعرفة فمضى في دراساته الإسلامية، أما بقية الإخوة فانصرفوا إلى الجهاد في البحر^(٤) بعدما انطلق عروج في هذا الميدان، إذ أنه ركب البحر ولم يتجاوز سنه العاشرة.

ومن الأمور التي أثرت حول الأخوين كانت مسألة إسلامهم من عدمه، فتجد بعض الكتاب المستشرقين يصورهم على كونهم قراصنة هدفهم الأساسي هو السلب والنهب وليس الجهاد في سبيل الله وأنهم لم يكونوا من المسلمين، ولكن الراجح في هذه المسألة هو كونهم من المسلمين وذلك لعدة أسباب كما أوضحها د. علي الصلابي في كتابه "الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط" من وجود بعض الآثار المنقوشة إلى يومنا هذا كالرخامة الجزائرية المكتوب عليها "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله أوروج بن يعقوب" وهناك نقوش أخرى تفيد نفس المعنى، ناهيك عن جهادهم المستمر والدؤوب في سبيل الله وتضحياتهم الواضحة لرفع راية الإسلام عالية خفاقة، فلو كان هدفه القرصنة لكانت الأمور وموازينها اختلفت لديهم وخصوصاً وقد أتاحت أمامهم أكثر من فرصة كما سنرى من مواقف لو طلبوا فيها المال للبي طلبهم من قبل الأعداء، إلا أنهم أثروا القتال حتى آخر نفس في حياتهم رحمهم الله دفاعاً عن دين الله وبغية إعلاء شأنه بل سيموت عروج مقاتلاً ومن قبل ذلك أيضاً تقطع يده أثناء القتال.

(١) وتكتب أوروج ويذكر البعض أن أصلها مأخوذ من حادثة الإسراء والمعراج التي يرجح أنه ولد ليتلها ولذلك سمي على اسمها.

(٢) وورد أن اسمه خسرف أيضاً، ويقال إن من أطلق عليه خير الدين هو السلطان سليم.

(٣) عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٣٠٤.

(٤) بسام العسيلي، خير الدين بربوس ص ٢٧.

الوضع قبل ظهور الأخوين:

حتى نفهم الوضع بوضوح وجلاء لابد أن نوضحه على عدة محاور؛ الأول وهو الوضع في الأندلس، والثاني على مستوى القوي الدولية، والثالث على مستوى المغرب العربي.

أولاً: الوضع في الأندلس:

عاش المسلمون في الأندلس معاناة شرسة وحرباً ضروس من قبل النصارى على إثر تحالف ملك أرغوان "فيردناند" ^(١) مع "إيزابيلا" ^(٢) ملكة "قشتالة"، فعلى إثر هذا التحالف أقيمت مذابح ومحاكم تفتيش التي يشيب لهولها الولدان عند ذكر ما حدث فيها من أساليب قمعية تعذيبية لا يقوم بها بشر لديهم ذرة واحدة من الإنسانية، ولكن هذه عقيدة هؤلاء وبغضهم وحقدهم على آل الإسلام فصبوا عليهم الغضب صبا، بل ومنع الإسلام نهائيا من البلاد وأجبر الجميع سواء اليهود أو المسلمين على التنصر ولكن سمح لليهود بالرحيل، أما بنى الإسلام فصُـبَ عليهم الغضب إزاء فتح القسطنطينية ^(٣) التي لم ينسوها أبداً، فكان كل من يشاهد بمظهر من مظاهر الإسلام ولو تعريضاً فقط أي ليس تصرّيحاً، يقتل ويعذب في محاكم التفتيش اللعينة التي نصبوها لنا، بل كان الوضع أضل من ذلك فكان من لا يأكل لحم الخنزير، أو لا يشرب الخمر،

(١) فرناندو الثاني (10 مارس ١٤٥٢ - ٢٣ كانون الثاني ١٥١٦) ملك أراغون من (١٤٧٩-١٥١٦) بصفته فرناندو الثاني وملك صقلية (1468-1516) وملك نابولي (1504-1516) وملك فالنسيا وسردينيا ونافارا وكونت برشلونة وملك قشتالة (1474-1504) بصفته فرناندو الخامس كقريين لزوجته حاكما فعليا على هذا البلد من عام ١٥٠٨ إلى وفاته.

(٢) أقرت قرار إجبار مسلمي ويهود إسبانيا على اعتناق المسيحية أو القتل أو الرحيل، وكانت من دعم رحلة كولومبوس في رحلته الاستكشافية التي أدت إلى وصوله لأمريكا، وكانت صاحبة القسم الشهير أنها لن تستحم إلا بعد خروج آخر مسلم من إسبانيا، ويقال أنها لم تستحم إلا ثلاث مرات طيلة حياتها منهم مرة عند الوفاة، ولا تتعجب من ذلك أبداً فهؤلاء لم يعرفوا معنى الطهارة أو النظافة إلا بعد دخول المسلمين إلى بلادهم، بل كانت بعد أن سيطرت على مقاليد الحكم أي بيت به مكان للخلاء فيقتل أهله.

(٣) ذلك لأن القسطنطينية لها تأثير كبير على العالم النصراني وكان لسقوطها دوي كبير ووقع خطير في نفوس النصارى وخصوصاً المتعصبين منها، وكذلك نظراً لأن أصول الغرب الأوربي من الجرمان فكان تعصبهم الشديد لهؤلاء.

أي أنه لا ينكر على فاعل هذه المعاصي المحرمة في كل الكتب السماوية، بل هو فقط لا يفعل أي أن الأمر مقتصر على نفسه فقط، فكان إزاء ذلك يُقتل ويُعذب أشر التعذيب^(١).

وهكذا كان الوضع باختصار شديد، حتى يعلم الجميع الفرق بين فتوح المسلمين واحتلال النصارى واليهود على مر التاريخ.

واستصرخ المسلمون إخوانهم في المشرق (المماليك البرجية)، كما استنجدوا بالدولة العثمانية، غير أن كل القوى الإسلامية كانت مشغولة بأكثر من أعبائها فهناك كان المغول، والدول الأوروبية على حدود بيزنطة وفي مصر والشام كان المماليك قد ضعفوا إلى درجة بات من الصعب تقديم أي جهد إضافي^(٢).

على مستوى القوى الدولية:

كان في ذلك الوقت قوة الدولة العثمانية وكذلك قوة المماليك، وعلى النقيض الآخر كانت القوى النصرانية متمثلة في القوة الإسبانية، والفرنسية والبرتغالية، كأكبر قوى على الساحة آنذاك.

فكانت فرنسا في ذلك الوقت تحت حكم الملك "شارل الثامن" الذي أدعى حقه في وراثة عرش نابولي، بل طالب ميلانو بأن تُضم إلى ملكه وحدثت معارك بينه وبين القوات الإسبانية التي انتصرت فيها، مما دفع فرنسا بأن تتحالف مع الدولة العثمانية، وكان يحكم ألمانيا الإمبراطور "مكسليمان" الذي كان من سياسته مناهضة التوسع الإسباني والفرنسي في إيطاليا، وتحالفت القوات الأوروبية ضد فرنسا أيضا مما ألحق بها هزيمة كبرى، وبعد وفاة الإمبراطور مكسليمان عين الملك "شارلكان" خلفا له، وبذلك أمكن لهذا الإمبراطور الجديد جمع بلاد واسعة تحت حكمه ضمت إسبانيا والنمسا، وبلجيكا وهولندا وصقلية وسردينيا ونابولي وقسما من بلاد

(١) لمعرفة تفاصيل أكثر حول الأندلس وما حدث فيها يمكن مراجعة راغب السرجاني الأندلس من الفتح إلى السقوط.

(٢) بسام العسلي، خير الدين بربوس ص ٤٥.

الجرمان وأغلب البلاد الأمريكية التي اكتشفت حديثا في ذلك الوقت، إذ لم تكتشف أمريكا بأكملها في ذلك الحين^(١).

على مستوى المغرب الأقصى:

كانت إمبراطورية فاس في هذه المنطقة دولة كبيرة وكانت تشمل أقصى غرب المنطقة بين البحر الأبيض والأطلسي أي المغرب الأقصى، ولكن حدث التنزع الكبير والتناحر وخصوصا بعد ضعف دولة المرابطين ثم "الموحدين"، ثم "المرينين"، فكان "الوطاسيون" فرع من المرينين وهم البرابرة المستعربين يتنافسون في فاس مع شرفاء السعدية، وإن كانت لن تثبت وجودها في الدفاع عن الأندلس إذ أنها لم يكن بإمكانها التصدي لتسلط الإسبان على شمال إفريقيا وسواحل الأطلسي لفاس، لكن الدولة الأكثر اقتدارا والأقوى مكانة كانت المغرب وكان الاستيلاء عليها من الخارج صعبا، وكانت السلالة المسماة عبد الواد أو الزياني، تحكم غرب الجزائر ومجينة، عرشها تلمسان وكان هؤلاء قد فقدوا قوتهم منذ زمن بعيد فكانوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم حيال الهجوم الإسباني^(٢).

وفي تونس كان الحفصيون^(٣): حيث ضعفت دولتهم هي الأخرى بشكل كبير وكانت تحافظ على بقائها بالتعايش مع الإسبان، وبحكم موقع تونس جنوب صقلية، فإن إسبانيا التي تسيطر على صقلية ونابولي كانت تشكل خطرا على تونس، فالتهاذن كان مؤقتا وإسبانيا تتحين الفرصة لاقتناص تونس وما تلاها.

وفي الجزائر فالوضع ليس بعيدا عن ذلك بل أضعف منه فكانت غارقة في نزاع داخلي مستميت لا تثبت فيه الزعامة لأحد، وكانت الدماء تراق بشكل كبير من قبل المسلمين بعضهم

(١) المرجع السابق ص ٤٩ بتصرف.

(٢) يلماز ازوتونا ج ١ ص ٢٤٠.

(٣) تأسست في عام ١٢٢٨م وبمضي الوقت تدهور حالها.

البعض. لذلك عمد الإسبان إلى البدء في التحرك لاحتلال هذه المناطق الضعيفة، ومما يؤكد ويظهر الوضع في هذه المنطقة تلك الرسالة التي أرسلت من قبل جاسوس من جواسيس فرديناد حيث كان في بلاد المغرب للتجسس على الأوضاع فيها تحسبا لقيام قومة تقف ضده جراء ما يفعله في مسلمي الأندلس، فكان نص هذه الرسالة "إن كامل بلاد شمال أفريقيا تحتاز فترة من الانهيار النفسي ويظهر معها أن الله قد أراد أن يجعل البلاد ملكا لصاحب الجلالة المسيحية"^(١).

فهذا يوضح الموقف بجلاء، حيث كان مأسوي إلى أقصى الدرجات، ويشبه ما نعيش فيه الآن إلى حد كبير إن لم يكن أسوء في أمور أخرى، فنحن الآن نعيش وتذبح بورما، والشيشان وسوريا والعراق واليمن وتركستان، وغير ذلك مما هو معلوم للجميع دون حاجة إلى تفصيل، إضافة إلى الضعف والهوان الذي نحياه ولا حول ولا قوة الا بالله.

وقفه ونكمل:

قد يرى البعض أن ذكر الأوضاع قبل ظهور الأخوين على الساحة لا قيمة لها، ولكننا فضلنا أن نفصل في ذكر هذه المرحلة وهذا الوضع حتى يعلم المسلمون، أن الوضع المأسوي الذي نعيش فيه الآن ليس بعجيب وغريب، بل كنا نعيش فيما هو أسوء من ذلك فيكفي فقط حال أهل الأندلس والتناحر بين المسلمين في بقاع الأرض مثل الذي نحياه الآن ونعيشه؛ بذل وهوان، ولكن كان هناك رجال ضحوا بحياتهم وكل ما يملكون فداء لهذا الدين ولعقيدتهم، فهل يخرج اليوم من رحم هذه الأزمة من يكون مضحيا لأجل دينه، ويساهم في توحيد الصفوف، وإذا قال قائل: وكيف لشخص واحد أن يفعل الكثير؟ فأقول له استكمل قصة هؤلاء الرجال حتى تعرف إنه برجل واحد يمكن أن يحدث الكثير، وكذلك إذا قرأت قصص الأبطال في التاريخ الإسلامي ستعرف أنه إذا كان الرجل تقياً، عالماً بدينه، يسعى لرفع شأنه عالياً، محباً للجهاد، فاعلم أنه سيجد السبيل لذلك، ولكن ليبدأ بالسعي، ولتكن قصة "عُرُوج" وخير الدين" ومن قبلهم "الشيخ

(١) بسام العسلي، خير الدين بربروس ص ٥٦.

عبدالله ابن ياسين" وكذلك "صقر قریش" وغيرهم في التاريخ خير حافظ ودليل على ما نقوله حيث إمكانية التغيير وتوحيد الصفوف برجل واحد يتحرك بدافع العقيدة الإسلامية وبمنهج صحيح دون أن تغلب المصالح المادية على تصرفاته وسياسته وإلا استبدله الله ومن معه يقوم لا يرضون الدنيا في دينهم ولا هدف أمامهم سوى توحيد الصف وإنقاذ المسلمين مما هم فيه ونشر دين الإسلام في ربوع الدنيا جمعاء.

التحرك النصراني:

إزاء هذا الوضع من الضعف والهوان تحرك "الكاردينال أكسمنس" مع ٣٣ سفينة حربية و٥١ سفينة نقل تحمل ٢٤٠٠٠ جندي إسباني واحتل ميناء وهران وذبح فيه ٤٠٠٠ مسلم، وساق البقية كعبيد لإسبانيا^(١)، وهذا كان كبدائية إعلان عن وجوده وعما يمكن أن يفعله بعد ذلك، فهذه هي عقيدتهم على مر العصور.

وأصبحت وهران أهم قاعدة لإسبانيا وفي عام ١٥٠٨ احتلت إسبانيا المناطق المحيطة بتونس من الغرب والشرق بحيث أصبحت محاطة بالإسبان، ثم انتقلت مدن جزائرية إلى حوزة الإسبان، ومما يذكر عن الجنود الإسبان في هذا الصدد أنهم كان يتسللون بتوجيه مدافعهم أثناء أذان المؤذن في مدينة الجزائر ويصوبونها نحو المؤذنين في المنارة ويدمرونها، أي أنهم يلعبون بقتل المؤذن في المئذنة، فأى حقارة هذه التي هم عليها، وهكذا تأسست مستعمرة الجزائر الإسبانية، أما البرتغال فقد شيدت قلعتين على سواحل فاس في الأطلسي^(٢).

(١) يلماز ازوتونا، تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق بتصرف ص ٢٤١-راجع محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٢١٨.

عروج والبداية:

ذكرنا آنفاً أن البداية كانت لعروج بالعمل في البحر ثم تبعه إخوته في هذا المضمار، وكانوا إبان هذا الوضع المأسوي الذي تمر به الأمة الإسلامية يعملون كملاك سفن يربحون من تشغيل سفنهم، وكانوا يعملون في الجزر في بحر إيجة، ثم أخذوا يعملون في موانئ سلطنة مصر الواقعة شرق البحر الأبيض وتركيا، وفي إحدى هذه الرحلات التي كانوا يقومون بها اعترضت سفنهم سفن فرسان رودوس، مما أدى إلى وفاة أخيهم الصغير "إلياس رئيس"، ووقع عُروج في الأسر، وكان الإخوة في ذلك الوقت ذا صيت في براعتهم البحرية، حتى إن الفرسان رفضوا طلب أخيه بالفدية وكذلك لم يدرجوه في الأسرى التي كان السلطان قورقود أخو السلطان سليم الأول يبادلهم سنوياً^(١)، وذلك لأن هؤلاء الفرسان يعلمون براعة عروج في البحر^(٢).

هروب عروج من الأسر:

كان عروج في سفينة الفرسان أي فرسان رودوس، التي بها الأسرى المسلمين كأسير جداف^(٣) فيها، فاستطاع بمهارة فائقة وخبرة عالية وتوفيق من الله يسبق كل هذا، أن يقوم بفك أغلاله والانطلاق في غفلة من الحراس والجنود ويقفز في البحر دون أن يستطيع أحد اللحاق به وظل يماطل الأمواج وإظهار براعة بحار ومجاهد صلب في مثل هذا الموقف الصعب، إلى أن خرج إلى البر ونال حريته، وعاد للعمل على سفنه مرة أخرى كبطل متوج من جديد بين أقرانه، ولا

(١) كان يبادل ١٠٠ أسير من المسلمين سنوياً مقابل أسرى نصارى، أو أموال تدفع إليهم.

(٢) يلماز ازوتونا، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٤٢.

(٣) أي يعمل كرها في التجديف على أحد المجاديف بالسفينة.

يفكر إلا في كيفية توحيد الصفوف للخروج من هذا المأزق الذي يحل بالمسلمين، ويحتمل أن سنة خلاصه من الأسر كانت ١٥٠٦م^(١).

نظرة عروج للأمور:

تم استدعاء عروج من قبل قنصوه في مصر، وذلك عندما كان يعمل هو بميناء الإسكندرية، وذهب إلى القاهرة ومثل بين يدي السلطان الذي كلفه بقيادة الأسطول المصري الرفيع فوافق على ذلك. وقاد عروج الأسطول المملوكي الذي أعاد الشهادة قورقود من الإسكندرية إلى أنطاليا التي يحكمها، وفي هذه الأثناء كلفه السلطان قنصوه أميرالية البحار الهندية فوافق في البداية إلا أنه اعتذر بعد مدة حيث أنه كان ينظر للأمور بنظرة مختلفة نظرة هدفها البحر الأبيض وليس البحار الهندية التي تعتبر شرف رفيع في ذلك الوقت، فجاء إلى مانيسا واجتمع بقورقود الذي سلمه سفينتين هدية له، ذلك لأن السلطان قورقود كان يفكر في تأسيس أسطول بحري، فذهب بسفينتيه وأظهر براعة عندما انطلق إلى ضرب السفن الإسبانية، والبندقية وعاد إلى خليج أزمير، رغبة منه لشكر السلطان الذي علم أنه أعدم في ذلك الوقت من قبل سليم الأول الذي عين سلطاناً خلفاً للسلطان بايزيد الذي تنازل له عن الحكم، فخشى عروج على نفسه من سليم الأول من احتمالية الفتك به نظراً لولائه للسلطان قورقود، فعاد إلى الإسكندرية مع أربع قطع بحرية، وأظهر ولائه للماليك في ذلك الوقت ثم انطلق إلى "جزيرة جربه" الواقعة بين تونس وليبيا^(٢).

(١) المرجع السابق بتصرف ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٢، ٢٤٣.

جربة ونقطة الانطلاق:

وطد عروج قدمه في مدينة جربة حيث اشترى قسماً من الساحل من الشيوخ^(١)، وأسس قاعدة فيها وبدأ منها حملاته، وبعد مدة جاء أخوه خضر رئيس من مدينة مدلي تخوفاً من سليم الأول^(٢)، وجلب معه سفناً ومعدات كثيرة، وكان عروج لا يريد قطع العلاقات مع مصر، فإلى هذه اللحظة لم يتأكد إذا كان معتبر في تركيا عاصياً وجب قتله أم لا، وإن كانت عائلته المتواجدة في مدلي لم تتعرض لأي أذى نهائياً، إلا أن السلطان سليم غير متوقع في تصرفاته فهو لا ينبئ عن شيء مما يريد فعله، فأرسل عروج إلى السلطان قنصوه الغوري باستمرار هدايا من الغنائم التي كان يحصل عليها، بل وكان يبتاع المهمات البحرية وما يحتاجه من أدوات من مصر، حتى إن السلطان قنصوه صرح قائلاً^(٣) "إن كان هناك شخص لا ينكر النعمة ويعرف الخير في العالم فهو ابني عروج قبطان"، ومما يجب أن يذكر أيضاً أن الأخوان كانت نظرتهم للأمور هي وجوب إقامة علاقات مع السلطان الحفصي في تونس^(٤).

تونس:

كان في ذلك الوقت "عبدالله ابن محمد الخامس"^(٥) على عرش تونس، فجاء الأخوان بربروس ومثلوا بين يدي السلطان وقدموا الهدايا الثمينة له^(٦)، فوافق السلطان محمد الحفصي صاحب

(١) أي شيوخ البرابرة الذين يقطنون مدينة جربة.

(٢) خوفاً من أن يصب غضبه عليهم نظراً لأن هؤلاء وأغلب البحارة كان ولائهم لأخيه الشهبادة قورقود، إلا أن الوضع ليس كذلك إذ كان شغف السلطان سليم بالبحر أكثر من أي شيء آخر لذلك سيصب اهتمامه بعد ذلك على تقوية أسطوله البحري أكثر من أي شيء.

(٣) مع الوضع في الاعتبار أن هذه الكلمات كانت لا تقال من قبل السلاطين إلا في حق تابعيهم الصغار فقط.

(٤) يلماز ازوتونا تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٤٤.

(٥) تولى ١٤٩٤-١٥٢٨.

(٦) المرجع السابق ص ٢٤٥.

تونس بأن يدخلها في خدمته، واستمر في حرفتهما وهي أسر المراكب النصرانية التجارية أو الحربية التي كانت ترسل المؤن للنصارى الإسبان أو البرتغال، فكانوا يأخذون ما بها، وكان الخمس يذهب إلى السلطان الحفصي^(١).

وأعطاهم السلطان الحفصي "حلق الوادي" وهي مجاورة لتونس وكان ميناء متحكماً في خليج تونس وفي هذه الأثناء كان عروج في حاجه شديدة للجنود وللسفن رغم أنه كان معه ١٢ سفينة حربية و ١٠٠٠ من الجنود، إلا أن ذلك لا يكفي، فقصى عروج شتاء عام ١٥١٣م- ١٥١٤م ثم ذهب إلى المياه الخارجية "لساردونيا" فاستولى بعدها على سفن كثيرة، وقد التقى بين "كورسيكا" و"ألبا" بسفينتين للبابا وكانت هاتان السفينتان العملاقتان تعتبران من الطرادات الكبيرة في ذلك العهد^(٢)، فاستولى عروج على الأولى ثم الثانية فذاع صيته في أوروبا كاملة، وأطلق عليه في ذلك الوقت لقب بربروس، أي ذو اللحية الحمراء^(٣).

مرحلة الاطمئنان من الدولة العثمانية:

فإلى هذه اللحظة لم يكن قلب الأخوان بربروس وخصوصاً عروج مطمئن من قبل السلطان سليم الأول (ياوز)، وعلى ذلك أرسل ذات يوم أحد المراكب المأسورة إلى السلطان سليم إظهاراً لتبعيةهم وخضوعهم لسلطانه، فقبلها منهم بل وأرسل خلعة سنية وعشر سفن ليستعينوا بها على غزو مراكب الإفرنج، فاطمئن قلبهم، وقويت شوكتهم واشرببت أعناقهم لاحتلال بعض سواحل الغرب باسم السلطان سليم سلطان آل عثمان، فاستولى خير الدين على ثغر

(١) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية ص ٢٣٠ بتصرف.

(٢) وكانت كل سفينة منهم تسير بواسطة ٥٠ زوجاً أي ١٠٠ مجداف وفي كل مجداف أكثر من درزن من الجدافة وهما مبتعدتان عن الساحل.

(٣) راجع يلماز ازوتونا، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٤٥.

شرشل^(١)، ثم عاد إلى تونس ومنها أرسل للسلطان سليم الذي كان إذ ذاك بمصر رسولا يؤكد إخلاصه له وولاءه للسلطنة العثمانية^(٢).

التوسع:

أخذت أساطيل الأخوان تتوسع مع مرور الوقت، وبدأ يضرب السفن النصرانية على نطاق واسع فعلى سبيل المثال تمكن "خضر رئيس" في بداية عام ١٥١٥م من الاستيلاء على ٢٠ سفينة و ٣٨٠٠ أسير فذاع صيتهم أكثر وأكثر، وانضم إليهم في ذلك الوقت ربابنة السفن الشهيرين الذين جاؤوا من الأناضول للانضمام في هذا الجهاد العظيم، مثل "بيري رئيس" راسم الخرائط الشهير، "أبدن رئيس"، "قوقود أو غلو مصلح الدين رئيس"، "صالح رئيس"، ابني خضر الاثنين وهم "بيوك حسن رئيس"^(٣) و"كوجوك"^(٤) حسن رئيس "ويحيى رئيس" وكافة هذه الأسماء تدخل ضمن أشهر أميرالات القرن ١٦^(٥).

حكم الجزائر:

كانت الجزائر كما ذكرنا آنفا في تشرذم وتناحر وتصارع بل في وضع لا يتصور فيه وجود سيادة ولا رئاسة لأحد، أي في الوضع الذي يفرح به الأعداء ويتحينونه لاحتلال البلاد وقتل العباد، ولذلك كان لابد من وضع حد لهذا الأمر حتى يمكن بعد ذلك التصدي لأعداء الإسلام،

(١) على بعد ١٠٠ كم إلى الغرب من الجزائر.

(٢) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية ص ٢٣١.

(٣) أي حسن الكبير ذلك لأن كلمة بيوك بالتركية تعني كبير.

(٤) كتشوك أو كوجوك باختلاف كتابتها فهي تعني بالتركية الصغير أي حسن الصغير تميزا عن أخيه حسن الكبير.

(٥) يلماز ازوتونا، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٤٦.

بل ما هو أضل من ذلك أن الشيخ سالم التومي الذي يفترض أنه الحاكم للجزائر وإن كان اسماً، فقد كان متعاوناً مع الإسبان^(١).

فتمثل أول انتصار بارز وكبير للأخوين فيما حققاه من تحرير مدينة الجزائر من يد الإسبان وحكمهم اللعين، ومن قتل حاكم الجزائر "الشيخ سالم التومي" وأخذ الحكم لأنفسهم، وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الأخوان بربروس في عام ١٥١٦ م = ٩٢٢ هـ^(٢)، وقد قبل أهالي الجزائر الأمر بسهولة نظراً لمكانة الأخوين عروج وخير الدين في قلوبهم نتيجة الانتصارات التي حققوها من قبل على القراصنة المسيحيين وكان هذا العام الذي بوبع لعروج بحكم الجزائر فيها هو العام الذي انتصر فيها العثمانيون في موقعة مرج دابق على المماليك^(٣).

وأقام عروج حكمه على الساحل المواجه لجزيرة رباط الخيل التي فشل في استعادتها، وقد أسس حكومة عسكرية قوية؛ فانضم تحت قيادته عدد كبير من القبائل وسكان المدن واتخذ مدينة "دليس" مقراً لإقامته^(٤).

وكان لهذا الانتصار صدى كبير جداً في "تلمسان" التي استنجد أهلها بعروج لينقذهم من تعسف حاكمها "أبي حمود الثالث" المتحالف مع الإسبان، من بنى زيان في غربي الجزائر، فهرع لتلبية النداء وتمكن من فتح تلمسان، فدخلها وعزل واليها وأسرة عبد الواد^(٥).

وأثارت هذه الانتصارات المتتالية والحماس الذي بدأ يرتفع في نفوس المسلمين آنذاك القلق والذعر في نفوس الإسبان التي خشيت من هجوم قد يحدث في وهران والمرسى الكبير؛ فكان

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٢١٨.

(٢) عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ص ٥٠ - محمد سهيل طقوش ص ٢١٨.

(٣) عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٣٠٥.

(٤) عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٣٠٦.

(٥) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٢١٨-راجع عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٣٠٦.

لابد من التحرك السريع لقتل أيّ أمل قد ينبت في نفوس المسلمين مرة أخرى، فهم يريدوننا في يأس دائم ولا نشعر أبداً بذرة أمل، لعلمهم أن بالأمل تحيا النفوس وتنطلق الهمم، فكان التحرك على وجه السرعة لتلبية نداء الشيطان، وذلك عن طريق حملة عسكرية إسبانية تعدادها خمسة عشر ألف مقاتل توغلت في أراضي الجزائر وحاصرت تلمسان وبدأت المناوشات من هنا وهناك ولكن في هذه الأثناء حدث أمر جلل وخطير إذ أصيب البطل المجاهد عروج وهو يقاتل في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، أصيب إصابة بالغة توفي على إثرها، وذلك عام ١٥١٨م = ٩٢٤هـ^(١)، ثم قطعت رأسه وأرسلت إلى أوروبا لتحتفل بهذا النصر العظيم.

وفاة عروج البطل الشهيد:

بالقطع كان لموت القائد العظيم عروج الأثر البالغ في نفوس من معه إذ تأثر الجميع وانهارت الهمم وانتصر الإسبان، ودخلوا تلمسان فعُلت الأفراح في إسبانيا، ودق الحزن قلوب المسلمين في شتى بقاع الأرض لموت هذا البطل المجاهد الذي ضحى بنفسه وكل ما يملك في سبيل إعلاء كلمة الله، لتكون العليا، ولنصرة الحق، ذلك البطل الذي أنقذ المسلمين من إسبانيا، قدر استطاعته فرحم الله البطل المجاهد عروج بربروس، ولكن مع فرحة الإسبان فهم لم يكونوا يعلمون أن ما فعله عروج لم يمت بوفاته رحمه الله، فقد أرسى أسسا وقواعد، وعلم رجلاً وترك خلفه ألف ألف عروج، ليكملوا المشوار وعلى رأسهم البطل المجاهد خير الدين أخو عروج.

(١) راجع محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين ص ٢١٨، على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٣٦.

خير الدين بربروس:

بعد وفاة عروج رحمه الله واستشهاده اتفق سكان الجزائر على تعيين خير الدين شقيق عروج حاكماً جديداً على الجزائر وأطلقوا عليه في ذلك الوقت لقب خير الدين^(١)، بل وأصبح محط الآمال لدى كثير من الموانئ التي كانت ما زالت خاضعة للاحتلال الإسباني، أو لعملائهم من الحكام المتعاونين مع الإسبان.

وكان الموقف في ذلك الوقت أمام خير الدين متأزماً بشدة ويحتاج إلى دعم من قبل القوات الإسلامية، وبالقطع كان على رأس هذه القوى الدولة العثمانية.

موقف أهل الجزائر الرابع:

قام الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية بإسطنبول -طوب قابي سراي- تحت رقم ٤٦٥٦، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر، على اختلاف مستوياتهم، ومؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام ٩٢٥هـ، وكتبت بأمر من خير الدين إلى السلطان سليم الأول بعد عودته من مصر والشام إلى إسلامبول، وكان الغرض منها ربط الجزائر بالدولة العثمانية لتكون آيالة عثمانية، وجاء في الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة أن يذهب بنفسه إلى إسلامبول ليعرض على السلطان سليم شخصياً أبعاد قضية الجزائر، ولكن زعماء المدينة توسلوا أن يبقى فيها كي يستطيع المواجهة مع الأعداء إذا تحركوا وطلبوا منهم أن يرسل سفارة تقوم بالنيابة عنه. وكانت الرسالة التي حملتها البعثة موجهة باسم القضاة والخطباء والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان المدينة العامرة، وهي تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية وكان الذي يتزعم السفارة العالم "أبو العباس أحمد بن قاضي" الذي يعد من أكبر علماء الجزائر في ذلك الوقت كما كان قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً، وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده والأخطار التي تحيط بها من كل جانب، وأشد بجهود بابا عروج في مدافعة الكفار وكيف كان

(١) محمد سهيل طقوش، ص ٢١٨، ٢١٩ - راجع عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٣٠٦.

ناصراً لدين الله ومداًفعاً عن المسلمين حتى آخر نفس في تلمسان وكيف خلفه أخوه خير الدين في هذا الجهاد ضد الإسبان، ولم يعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف، فسارع السلطان سليم الأول بمنح رتبة بكـلر بك إلى خير الدين وأصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة في إقليمه؛ وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية أي اعتبرت آيالة عثمانية وأن أي خطر قد تتعرض له إنما يمس الدولة العثمانية ككل، أي الانتقال إلى مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر، بحاكمها الجديد خير الدين، تحت ظل الدولة العلية^(١).

الوضع بعد تولي خير الدين زمام الحكم:

كان أمام خير الدين جبهات متعددة للقتال وثغرات لا بد من احتوائها حتى يتسنى له الجهاد من الجديد، وبناء دولة قوية تستطيع أن تواصل إلى ما يربو إليه من ابتغاء مرضات الله ونصرة المسلمين، ورفع راية الإسلام عالية خفاقة، فكان أمامه الجبهة الإسبانية والتي يقودها "شارلكان"، المتحفر بشدة خصوصاً بعد موقعة تلمسان وموت عروج رحمه الله.

ومن ناحية أخرى الجبهة الداخلية والتي كانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط والتي لم تخلو من مؤامرات بني زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة، ناهيك عن المؤامرات التي تحاك عن طريق التعاون مع الإسبان تعاوناً صريحاً أو عن طريق الجواسيس التي تبيت دائماً وأبداً داخل البلاد.

شارلكان وانتهاز الفرصة:

اغتنم شارلكان ملك إسبانيا والعدو للدود للدولة العثمانية الفرصة بعد أحداث تلمسان وحدث تدهور في نفسية المسلمين بعد استشهاد عروج فاتفق سرياً مع "أبي حمو ملك تلمسان"، على

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٣٨:٢٣٦.

أن يشترك معه في توجيه ضربة حاسمة للجزائر، وذلك بتقدم القوات الإسبانية بإنزال بحري في الوقت الذي تتقدم فيه قوات تلمسان براً لقتال إخوانهم من بني جلدتهم من المسلمين^(١).

وبالفعل بدأت الحملة الإسبانية، وقد ضمت خمسة آلاف من المقاتلين الإسبانين والأوروبيين ووضعت الحملة عدد ضخم من السفن يصل إلى أربعين سفينة ووضعت تحت قيادة نائب ملك الصقليتين "هوغو دي منقاد" يعاونه في قيادة الحملة "غونزالفو مارينو دي ريبيرا"، وأبحر الأسطول من جزيرة صقلية في أواخر تموز سنة ١٥١٩م وتوجه إلى المرسى الكبير وأخذ منها جندا وعتادا ثم سار في اتجاه "بجاية" حيث انضمت قوة ضخمة حملت معها المزيد من الجند والأسلحة وفي النهاية وصلت الحملة بكامل استعدادها وبدأت عملية الإنزال للجنود على امتداد الساحل الواقع إلى اليسار من وادي الحراش^(٢).

وقد استعد خير الدين الذي وضع مخططه على أساس من التجارب السابقة فقرر إفساح الفرصة للقوات الإسبانية بإنزال الجنود والتجهيزات إلى أرض الشاطئ فتقوم بالعمل على استنزاف قدرتها القتالية وروحها المعنوية بمجموعة من العمليات الخاصة من إغارات وكائن ثم الانقضاض بعد ذلك في هجمة حاسمة على القوات الإسبانية في الوقت المناسب وبالفعل قد نجحت خطة خير الدين حتى تم له النصر بفضل الله وللقوات الجزائرية، وكانت المعركة حامية دامية ظهر فيها توفيق الله تعالى ونصرته للمؤمنين الذين أخلصوا الله وجاهدوا حق الجهاد وبذلوا ما استطاعوا من الغالي والنفيس، ففي هذه المعركة وفي آخر يوم فيها وهو يوم ٢٠ أغسطس عام ١٥١٩م إذ هبت عاصفة في عكس اتجاه الإسبان الذين كانوا يحاولون الفرار لاستعادة رباط جأشهم من جديد فتحوّلت إلى إعصار مدمر وكأنها إشارة من رب العزة أنى معكم لأنكم بذلتم أقصى جهدكم، فإذن ليأتي إليكم النصر، فأرغم الإعصار ٢٤ سفينة إسبانية بالعودة مرة أخرى إلى الجزائر^(٣) وكان الله عز وجل يسوقهم إلى المجاهدين من جديد كغنيمة

(١) بسام العسيلي، خير الدين بربروس ص ١٠٨.

(٢) بسام العسيلي، خير الدين بربروس ص ١١٠.

(٣) راجع بسام العسيلي، خير الدين بربروس ص ١١١، ١١٢ بتصرف.

لهم على جهادهم، وبالفعل وقد غنم المسلمون بعد أن قتل من قتل وأسر من أسر، فكان نصراً عزيزاً مؤزراً يتضح منه درس هام وفي غاية الخطورة والأهمية للمسلمين اليوم، إذ العبرة ليست بالعدة والعتاد، وليست بالقوة فقط، فالإسبان كانوا في هذه المعركة أشد قوة وأكثر عدداً بل وبتحالف مع العرب ومع القبائل الداخلية وبتعاون ودعم أوروبي نصراني كامل، والمسلمون بقيادة خير الدين أقل قوة وأضعف نفسية على إثر الهزيمة السابقة، وبدون دعم ولكنهم يملكون شيئاً نفتقده الآن، ألا وهو الإيمان بالله، والرغبة في نصرته دينه تعالى ورفع راية الإسلام عالية خفاقة، فاستعانوا بالله ولكن قبل هذا أعدوا للعدو ما استطاعوا من قوة ومن عدة ومن عتاد، فإذا كان هذا آخر طاقاتهم يأتي النصر من حيث لم يحتسبوا، فتذهب عاصفة تسوق الإسبان إليهم سوقاً، ومن يحاول أن يفر بسفينته تسحبه العاصفة إلى الجزائر من جديد، فسبحان الله، من يصدق الله يصدق، ولذلك من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فعندما يرى الله منا هذا يرزقنا النصر، والحال مثابه للحال الذي نحن عليه الآن، ولكن الفرق الوحيد هو أننا نحسبها بالماديات والحسابات الدنيوية فقط، دون اعتبار لأي شيء آخر، فإذا كان خير الدين ومن معه يحسبون الأمور بالدنيا فقط لسلّموا المدينة ولاذوا بالفرار وخصوصاً بعد التمثيل بجثة أخيه عروج، أي أن الإسبان لن يتخذوا شفقة ولا رحمة معه ولا مع جنوده، ولكنه الإيمان بالله تعالى، يصنع المستحيل، فهل لنا الآن أن نتعلم من هذا؟ هل؟!

خير الدين في إسلامبول:

عزم السلطان سليمان على أن يستولي على بلغراد وقد نجح في ذلك، وكان ينتوى السفر بجنوده إلى إسبانيا والاستيلاء عليها^(١) وتخليص مسلمي الأندلس ومسلمي إفريقيا من هذه المعضلة التي تطبق على أنفاسهم، فوصل الخطاب إلى خير الدين، الذي فعل أمراً رائعاً ينم على حسه الإسلامي وهو أن جمع العلماء وأهل المشورة لأخذ رأيهم في هذا الأمر وهذه

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٤١.

الرسالة^(١) وكان القرار بالذهاب طاعة للسلطان، فذهب بالفعل ومعه أربع وأربعون سفينة وفي طريقه هزم فرقة من أسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة^(٢)، وفي لقائه مع السلطان منح لقب قبودان باشا -وزير بحرية- حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر لتحقيق هدف الدولة في استعادة الأندلس^(٣) والذي لم يكن يتحقق إلا بفتح تونس.

تونس:

مع الوضع القائم وتدني مستوى الحفصيين في تونس والتعاون مع الإسبان كان لابد من فتح تونس وإدخالها في الحظيرة العثمانية، حتى تتوحد البلاد لتقوى على مواجهة الخطر الإسباني.

فكان السلطان الحفصي الحسن بن محمد قد أساء السيرة في البلاد وقتل عدداً من إخوته، فاضطربت البلاد وأحوال تونس بشكل كبير، وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصي؛ فأدى ذلك إلى انقسامات أكثر وأكثر، وكل ذلك يصب في صالح الإسبان الذي يتعاون معهم^(٤)، بل وعقد صلحاً مع فرسان القديس يوحنا^(٥) وبالفعل دخل خير الدين تونس^(٦)، مع الأسطول العثماني بعد أن عرج إلى مدينة عنابة وتزود ببعض الإمدادات ثم تقدم نحو بنزرت ثم إلى حلق الوادي التي تمكن منها بدون صعوبة بل استقبل من العلماء والخطباء استقبال الفاتحين وأكرم غاية الكرم، ثم توجه إلى تونس التي هرب منها السلطان الحفصي وأعلنت تونس ضمن

(١) المرجع السابق بتصرف ص ٢٤١.

(٢) جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس ص ٣١٦.

(٣) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٤١.

(٤) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٤٠.

(٥) راجع عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية ص ٣٠٨.

(٦) على حسون، تاريخ الدولة العثمانية ص ٦٥.

أُملاك الدولة العثمانية في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين على حوض البحر المتوسط الغربي^(١).

ولكن حدث أمر أرى بسببه تعجباً من بعض الكتاب والمؤرخين وهو استنجد السلطان الحفصي بالإسبان الذين أتو على الفور لمساعدته في استعادة تونس وتنصيبه عليها من جديد ولكن بعد عقد اتفاق بمنتهى الذلة والمهانة للسلطان الحفصي ويصب في صالح الإسبان، فيقضي بإخلاء سبيل الأسرى النصاري والأرقاء والإباحة لهم بالاستيطان في تونس وإقامة شعائرهم بدون معارضة، والتنازل عن "بونة" و"بنزرت" و"حلق الوادي" لصالح شارلكان وللأبد، فإني والله أتعجب لتعجب المتعجبين من فعل السلطان الحفصي، فرجل يتعاون في ساعات الرخاء مع الإسبان، فكيف لا يستنجد بهم في ساعة العسرى، رجل تحالف مع أعداء الدين ضد بني جلدته، فكيف لا يستنجد بهم، أم أن هؤلاء المؤرخين والكتاب لا يظنون أن مستوى التندي قد وصل إلى هذه الدرجة؟ لا أعلم؟ ولكن الحقيقة رغم قسوتها إلا أنها حقيقة.

استعادة الإسبان لتونس:

كان الموقف ملائماً بالنسبة لإسبانيا وذلك للقيام برد عنيف فقد انشغلت الدولة العثمانية بالحرب مع الشيعة الروافض في بلاد فارس، وطغى على الصراع في أوروبا ووعد "فرانسوا الأول" ملك فرنسا "شارل الخامس" بالحياد، فتردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه له الضربة هل تونس أم الجزائر ولكن استنجد السلطان الحفصي "الحسن بن محمد" والرغبة في عزل إسلامبول دفع شارل الخامس إلى اختيار تونس لتكون نقطة الصراع، فقاد عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل من إسبانيا وهولندا وألمانيا وناپولي وصقلية، على ظهر خمسمائة سفينة وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة حتى وصلت لتونس التي رست أمامها وقامت بمعركة عنيفة، الأمر الذي عجز أمامه خير الدين من التصدي له إذ لم تكن لديه القوة الكافية حيث كان تعداد الجيش الإسلامي سبعة آلاف جندي وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٤٤.

آلاف من تونس، فكانت الغلبة للجيش النصراني الذي استعاد تونس مرة أخرى وعيّن السلطان الحفصي مرة أخرى بعقد اتفاقية الذل والمهانة السابق ذكرها^(١).

الرد على الهزيمة في تونس:

كان خبر استعادة الإسبان للسيطرة على تونس من جديد وهزيمة المسلمين فيها صدى الفرح والسعادة في أوروبا كاملة، بل أقيمت الأفراح والاحتفالات إزاء هذا النصر المبين لإسبانيا، ولذلك كان لابد من ردة فعل مناسبة من قبل الأسطول العثماني بقيادة خير الدين، وعلى هذا كان التحرك السريع الذي ينم على قيادة وخبرة ورغبة في استعادة هيبة المسلمين والأسطول العثماني من جديد، فانطلق إلى جزر البليار^(٢)، وبدأ بالهجوم على سواحلها وأطلق لنفسه العنان بالانقضاض على سفن الإسبان والبرتغال العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقّت شارل الخامس الذي ظن أن خير الدين لن يقوى على شيء بعد الهزيمة السابقة في تونس عام ١٥٣٥م^(٣).

السعي بالطرق الدبلوماسية لتفتيت الوحدة الإسلامية:

لا يظن البعض أن الدبلوماسية التي تحدث في يومنا الحالي وإبرام الاتفاقيات الدولية بين دول الغرب الصليبي وبين الدول العربية والإسلامية أنها جديدة ومبتكرة، بل هي من سبل وألاعيب الغرب النصراني منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى يومنا هذا، ولكن الفرق الوحيد يكمن في غفلة الحكام أو يقظتهم، وهذا ما حدث، فقد فكرت إسبانيا والبرتغال بتقسيم الشمال الأفريقي من خلال الطرق الدبلوماسية.

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٤٦، ٢٤٦.

(٢) هذه الجزر كانت البداية عند فتح الاندلس على يد طارق ابن زياد، فهي السبيل لفتح البلاد وهي العقبة كذلك إذ لم تفتح ل دخول الاندلس.

(٣) راجع على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٤٧-حرب الثلاثمائة سنة ص ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢.

إذ هرعت البرتغال إلى المغرب بعقد معاهدة مع "أحمد الطواسي" الذي وافق عليها واتفق معهم وتقضي بمنع التعامل مع العثمانيين بل وأخذ المراكب كغنيمة^(١)، أي وضع هذه المناطق التي تحت يد الطواسي كحجر عثرة أمام التقدم العثماني.

ومن الناحية الأخرى حاول شارل الخامس عقد معاهدة مع خير الدين بالجزائر سراً والاعتراف به حاكماً للشمال الإفريقي مقابل جزية بسيطة إذ أنه كان يأمل بعمل تحالف إسباني جزائري مقابل التحالف العثماني الفرنسي، ولكن خير الدين رفض ذلك، ثم جدد شارل الخامس المحاولة من جديد عام ١٥٣٩م بعقد هدنة معه إلا أنه خاب أمله من جديد^(٢)، ذلك لأنه يعلم أن هذه الاتفاقيات لا تجوز شرعاً في مثل هذه الأوضاع، لأنها يُبتَغى من وراءها ضرب الإسلام والمسلمين وطعنهم في ظهورهم.

وأردت أن أوضح هذه النقاط حتى يتضح للجميع نوعية الحكام الذين يحكمون الآن، لنستطيع أن نضع ميزاناً نزنهم عليه، هل هم يعملون لصالح الإسلام أم لصالح أهوائهم ومصالحهم الشخصية تحت مسمى سياسة الحكم؟

وكذلك حتى لا يوهمون الشعوب اليوم أن الأوضاع مختلفة عما سبق وأن القوى الدولية أقوى والتحديات أكبر؛ لذلك وجب التعامل بسياسة أخرى، أو ما شابه ذلك من الشعارات والأمور التي نسمعها يومياً، لتبرير هذه الجرائم تحت مسمى السياسة الحكيمة، أو الاتفاقيات والمعاهدات الدولية.

اسم بربروس يثير الرعب في النفوس:

(١) على الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٢٤٧.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٨ - تاريخ الجزائر العام عبد الرحمن الجيلاني ج ٣ ص ٦٢، ٦٣.

على إثر النجاحات التي يحققها خير الدين مع التحالف العثماني، أقلق المسيحيين في أوروبا كاملة، بل كان اسم خير الدين يثير الرعب بشكل كبير فور ذكره فقط.

فيذكر أنه عندما سمع ملك البرتغال "جان الثالث" بوصول الأسطول العثماني بقيادة خير الدين إلى الشمال الإفريقي فكر في الجلاء عن "سبته" "وطنجة"^(١) وأرسل بالاستشارة على هذا الأمر، فإلى هذه الدرجة كان رعبه من ذكر اسم خير الدين.

بل مما يذكر أن النساء كانت تخوف أولادهن بأسماء الأخوان بربروس، بل تُظم الشعر على هذا النمط في أوروبا:

بريوشه بريوشه انت صاحب كل شر

ما كان من ألم أو عمل مؤذ وجهني مدمر

إلا والسبب فيه ... هذا القرصان الذي

لا نظير له في العالم^(٢)

معركة بروزا:

كان نتيجة إنجازات الأخوان بربروس في البحر أثر بالغ في استجابة أوروبا لدعوة البابا يوحنا الثالث بشن حملة صليبية جديدة على خير الدين لقطع دابره نهائياً، وبالفعل استجابت أوروبا لهذا النداء ظناً منها أنه بهذا التحالف سوف تستطيع أن تقضي عليه نهائياً لتنتهي كل الآمال العثمانية في السيادة على البحر المتوسط، والقضاء على الأسطول نهائياً، بل ولينقطع أمل

(١) عبد المنعم هاشمي، الخلافة العثمانية ص ٣١٣.

(٢) نقلاً عن مجلة تاريخ وحضارة المغرب كلية الأدب في الجزائر يوليو ١٦٩٦ العدد ٦ و٧ غارة شارل الخامس بالحميس مولاي ص ٣٤-٥٥، طريق بسم العسيلي ص ٢٠١.

المسلمين نهائيا في استعادة إسبانيا وتكون بوابة للقضاء على المسلمين العثمانيين والسيطرة على الأراضي التي تحت أيديها.

فتكوّن تحالف صليبي من ٦٠٠ سفينة تحمل نحو ستين ألف جندي، ويقوده قائد بحري من أعظم قادة البحر في أوروبا هو "أندريا دوريا"، وتألّفت القوات العثمانية من ١٢٢ سفينة تحمل اثنين وعشرين ألف جندي، والتقى الأسطولان في بروزه في (٤ من جمادى الأولى ٩٤٥ هـ = ٢٨ من سبتمبر ١٥٣٨م)، وفاجأ "خير الدين" خصمه قبل أن يأخذ أهيبته للقتال، فتفرقت سفنه من هول الصدمة، وهرب القائد الأوروبي من ميدان المعركة التي لم تستمر أكثر من خمس ساعات، تمكن في نهايتها خير الدين من حسم المعركة لصالحه، وقد أثار هذا النصر الفرغ والهلّج في أوروبا، وأعاد للبحرية العثمانية هيبتها في البحر المتوسط، في الوقت الذي استقبل فيه السلطان سليمان القانوني أبناء النصر بفرحة غامرة، وأمر بإقامة الاحتفالات في جميع أنحاء دولته^(١).

داخل الأراضي الفرنسية:

كان السلطان العثماني سليمان القانوني هدفه الرئيسي هو إسبانيا وعدوه اللدود هو شارلكان لذلك كان لا غشاضة من التحالف مع فرنسا التي اختلفت مع إسبانيا من جديد وطلبت العون من السلطان العثماني، فكلف السلطان القانوني قائده الباسل خير الدين بقيادة الحملة، وكانت هذه آخر مرة يقود فيها حملاته المظفرة، فغادر إستانبول في (٢٣ من صفر ٩٥٠ هـ = ٢٨ من مايو ١٥٤٣م) على رأس قوة بحرية كبيرة، استولت وهي في طريقها إلى فرنسا على مدينتي "مسينه" التابعة لصقلية "وريجيو" الإيطالية دون مقاومة، ثم استولت على ميناء "أوستيا" الإيطالي، وواصلت سيرها حتى دخلت ميناء طولون قاعدة البحرية الفرنسية في البحر المتوسط، ورفعت السفينة الفرنسية الأعلام العثمانية، وأطلقت مدافعها تحية لها، ودخل

(١) يمكن مراجعة تفاصيل المعركة والإعداد لها وغير ذلك بكتاب بسام العسيلي خير الدين بربروس ص ١٤٧ وما بعدها.

الأسطول الفرنسي المكون من أربع وأربعين قطعة تحت إمرة خير الدين، وتحرك الأسطولان إلى ميناء "نيس"، ونجحا في استعادة الميناء الفرنسي في (٢١ من جمادى الأولى ٩٥٠ هـ = ٢٢ من أغسطس ١٥٤٣م)، ونظرًا للعلاقات الحسنة التي كانت تربط السلطان سليمان القانوني "بفرانسوا الأول"، فقد تم عقد معاهدة بين الدولتين بعد استعادة ميناء "نيس" في (١٦ من جمادى الآخرة ٩٥٠ هـ = ١٦ من سبتمبر ١٥٤٣م)، تنازلت فيها فرنسا عن "ميناء طولون الفرنسي" برضاها للإدارة العثمانية، وتحول الميناء الحربي لفرنسا إلى قاعدة حربية إسلامية للدولة العثمانية، التي كانت في حاجة ماسة إليه؛ حيث كان الأسطول العثماني بهاجم في غير هودة الأهداف العسكرية الإسبانية التي كانت تهدد دول المغرب الإسلامي والملاحه في البحر المتوسط^(١).

وفاة خير الدين المجاهد العظيم:

كانت هذه الحملة المظفرة هي آخر حملة يقودها خير الدين، فلم تطل به الحياة بعد عودته إلى إستانبول، وتوفي في (٥ من جمادى الأولى ٩٥٣ هـ = ٤ من يوليو ١٥٤٦م)، مسطرًا صفحة مجيدة من صفحات التضحية والفداء والإخلاص للإسلام، وردع القوى الصليبية الباغية^(٢).

واعترافا بفضل خير الدين من الدولة العثمانية وتنفيذا لوصيته أسند السلطان سليمان القانوني رتبة أمير البحر باي لرباي إلى ابن خير الدين حسان الذي ولد بمدينة الجزائر وتربى بين أهلها وتعلم على أيدي علمائها^(٣)، وكان مجاهدا عظيما كأبيه وأعمامه.

وقفات مع سيرة الأخوان ببروس:

(١) راجع، بسام العسيلي ص ١٦٣ وما بعدها - إسلام أون لاين، خير الدين قائد البحرية العثمانية في ذكرى حصاره لمدينة نيس الفرنسية.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٧.

الأسبقية لعروج:

من الأمور التي لفتت انتباهي في الحديث الشهير الذي ذكر عن أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقام عكاشة وسال النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون منهم فظفر بالأسبقية حتى إن الصحابي لما طلب ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبقك بها عكاشة»^(١) فلفتت انتباهي هذه الكلمة، ألا وهي الأسبقية في الأمر، فمن منا يسعى ليكون له السبق في هذا التسابق إلى الجنة؟ من منا يسعى ليكون له أكبر نصيب ليدخل الفردوس الأعلى؟ من منا يكون من المشمرين إلى الجنة ويفكر كي يساهم في نشر الدين والزج عنه؟

فعروج كان من هؤلاء السابقين، فدخل مجال البحر وتبعه إخوته رحمهم الله، ثم بدأ في تأسيس الأسطول قدر استطاعته، وحقق الانتصارات تلو الأخرى وجاهد في الله حق الجهاد إلى أن مات شهيداً، ثم تبعه من بعده أخوه خير الدين.

فقاتل وقاتل حتى أسس أسطولاً عظيماً كبيراً يرتعد لاسمه فقط كل الأعداء، ويقيمون له ألف ألف حساب، وحقق الانتصارات أيضاً تلو الأخرى، ولكنها الأسبقية التي كانت لعروج، فصحيح هو لم ينتصر بموقعة بروزا العظيمة المجيدة، وصحيح هو لم يصل إلى المراتب التي وصل إليها خير الدين، إلا أن هذا كله إن شاء الله في ميزان حسناته إلى يوم الدين، وكل من سار على نهج الأخوين بعد وفاتهم وكل الإنجازات التي حققها الأسطول البحري، الذي أسس على أيديهم رحمهم الله، ذلك كله يرجع إلى توفيق الله تعالى بالسبق والأسبقية، فكم من رجل وكم من بحار فكر فيما فكر فيه عروج وخير الدين، إلا أنه كم منهم بدأ التحرك على أرض

(١) عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال «عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فظننت فإذا سواد عظيم، فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل: لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه فقال: هم الذي لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال: ادع الله لي أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة» متفق عليه واللفظ للبخاري.

الواقع ليحقق ما يفكر فيه ويأمله، ستجد أن منا من يفكر في نصرة الأمة ثم تأخذه الأحلام والأمني ولكن دون تحرك، إلا أن غيرنا فكر ولكنه بدأ التنفيذ فعليا فيكون له السبق، ليفوز بالأجر العظيم له ولمن عمل بفكرته في نصرة الإسلام من بعده فيدخل في الحديث الشريف حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا»^(١).

وقفه مع الأخوين وجهادهم لإنقاذ مسلمي الأندلس:

من أعظم الصفحات في تاريخ الأخوان، هي نقطة الأندلس، وأردت أن أجعلها في نقطة ووقفه مستقلة ذلك لأن هناك فرية أطلقت على الدولة العثمانية وهي التقصير في استرداد الأندلس، ولكن في جهاد الأخوان بربروس يؤكد أن العثمانيين كانوا بالفعل حثيثين على استرداد الأندلس ذلك الكنز المفقود.

فتذكر الأدلة التاريخية ذلك اللقاء الذي تم بين السلطان سليم الأول وبين البطل عروج بربروس رحمه الله حيث كلفه بمهمة هي ما زالت إلى اليوم حتى بمقاييسنا تعد من المهام المستحيلة، أو كما يحلو للبعض أن يسميها بمهمة انتحارية، فسمها كيف شئت وكيف أردت، ولكني أسميها "مهمة جهادية" ومن الطراز الأول.

وملخص هذه المهمة الجهادية:

أن يقوم عروج بالذهاب إلى الأندلس وهي تحت الاحتلال النصراني الذي يصبُّ كامل غضبه على المسلمين، ليقوم عروج بإخراج أكبر عدد من الأسرى المسلمين هناك.

(١) خرج مسلم في صحيحه.

فهذه الكلمات في حد ذاتها إذا وقعت على أذان أي قائد سوف يخر ساقطاً من هول المهمة الملقاة على عاتقه، وذلك لأن حال المسلمين لا يخفى على أحد في ذلك الوقت من التعذيب الذي لا يطاق، فما بال من يفكر بالإتيان إلى هذه البلاد لإخراجهم من السجون.

وما بالنا إذا عرفنا بقية التفاصيل، فالأمر أكبر من ذلك، حيث هذه المهمة التي لا بد أن يصل إلى شواطئ الأندلس والتي لن يكون وصوله يسيراً وسهلاً، بل عليه أن يمر من أقصى شرق البحر المتوسط من تركيا إلى أقصى غرب المتوسط في الأندلس وخلال هذا سيمر بالأساطيل الصليبية المجتمعة من "إسبانيا والبرتغال وإيطاليا ناهيك عن سفن القديس يوحنا"، أي لا بد من مواجهات دامية مع هذه الأساطيل، ثم إن نجا من ذلك عليه أن يبدأ فور وصوله إلى شواطئ الأندلس، أن يقوم بتدمير الحامية الصليبية التي على الشاطئ، فإذا مر منها عليه أن يقاتل الحامية الصليبية المتواجدة على البر، فإن نجا من هذا كله عليه أن يقوم بالرسو في إحدى المدن الأندلسية المحتلة من قبل القشتاليين الصليبيين، ثم قتال القوات المتواجدة في الطرقات لشل قوة العدو ثم إن نجا من هذا كله فعليه مباغته الكنائس بصورة مفاجئة للحيلولة دون هروب القساوسة الكاثوليك الذين يعرفون أماكن غرف التعذيب، حيث إن التعذيب كان يتم داخل الكنائس التي بداخلها محاكم التفتيش التي ذكرناها آنفاً، وبعد العثور على القساوسة يقوم بعملية أخذ الاعترافات منهم بهذه الأماكن، فإذا نجا من هذا كله ووصل إلى أماكن غرف التعذيب السرية فعليه أن يدخلها ويقوم بتحرير المسلمين المعذبين بها، مع مراعاة عدم نقلهم من الأقبية حتى غياب الشمس لتجنب إصابة الأسرى بالعمى نتيجة عدم رؤيتهم للشمس منذ سنين، ثم بعد هذا كله إن تم، فعليه الإبحار تحت جنح الظلام مع الأخذ بعين الاعتبار أن العودة هذه المرة لن تكون نحو تركيا، وإنما ستكون نحو الجزائر من طريق آخر أي احتمال مواجهات جديدة مع العدو الصليبي الراكد في البحر، وإضافة إلى ما سبق يجب أن يضع بعين الاعتبار أن يتم كل هذا خلال ساعات معدودة حتى لا يتم كشفه من قبل القوات الإسبانية والبرتغالية فيتم القضاء عليه وعلى من معه بالكامل^(١).

(١) راجع بسام العسلي، خير الدين بربروس.

فهذه هي المهمة بكل بساطة ويسر، فهل رأينا أمراً أعجب من هذا كله؟

أقول لكم أولاً إن الأمر العجيب هو أن عروج قد قبل بهذه المهمة الجهادية بترحاب كبير، وقد تمت المهمة بفضل الله تعالى بنجاح كبير وحرر عدداً كبيراً جداً من الأسرى المسلمين، ولكن الأمر الأعجب هو أن هذه المهمة الجهادية لم يقوم بها مرة واحدة فقط بل قام بها أكثر من مرة حتى استطاع بفضل الله وأخوه خير الدين أن يحرروا ما يزيد عن سبعين ألف مسلم ومسلمة كانوا معذبين داخل غياهب هذه السجون القاتمة، وتحت أدوات التعذيب القاتلة، في داخل الغرف المظلمة بالقبو القاتل، داخل الكنائس الظالمة.

فكان أهل الأندلس يحبون عروج بشدة كبيرة حتى أنهم أطلقوا عليه بابا عروج وربما كان هذا هو سبب تسميتهم مع الوقت من بابا عروج إلى بياروج ثم بربروس، فرحم الله عروج البطل وأخيه المجاهد.

وقفة مع شبهة القرصنة:

إن القرصنة وهو اللقب الذي أطلق على الأخوين في المراجع الغربية، والتي تعرف بالسلب والنهب كما هو معلوم لدى الكافة، إنما يرجع أصل هذه المهنة الغير شريفة إلى دول الغرب الصليبي، وأبرز الشعوب التي عرفت بها والتي كانت مهنتها هي القرصنة هم شعب النورمان الملقب "بالفايكنج"^(١)، والذي استطاع أن يوقف هؤلاء وينتصر عليهم كان بالأندلس "عبد الرحمن بن الحكم" رحمه الله^(٢)، إلا أن المسلمين لما غزوا عالم البحار وكونوا الأساطيل الإسلامية لم يكونوا مثل غيرهم فهم دخلوا هذا المجال فاتحين ومدافعين وليس قراصنة يعتمدون على سلب ونهب السفن العابرة، إذ أنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك أبداً، وعلى ذلك فلا يجوز أن يطلق لفظة قرصنة على ما كان يقوم به الأخوان.

وثانياً: بأي ميزان يزن الغربيون الأمور، فيعتبرون ما يقوم به الأخوان من جهاد قرصنة ويعتبرون ما يقومون هم به من احتلال البلاد عن طريق البحر وقتل العباد ونهب الأموال والثروات مدنية وتحضر، فإذا كان ما يقوم به الأخوان قرصنة، فإذاً بأي وصف نصف ما يقومون به هم؟

ثالثاً: لا أعجب من الكتاب المستشرقين في تشويه صورة الأخوان رحمهم الله، ولكن أعجب من الكتاب المسلمين عند النقل من كتب الغرب بإطلاق لفظة قرصنة، فنحن لسنا نُقال أو نُساخ، وخصوصاً المؤرخين، لذلك لابد من المؤرخ أن يكون محققاً لوقائع الأمور لا أن ينقل فقط.

(١) وهو شعب إسكندنافيا الذي مارس أعمال القرصنة والسلب والنهب طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر وروع أوروبا.

(٢) حيث في أيامه كما تذكر الروايات التاريخية ظهر المجوس الارومانيين النورمان ودخلوا اشبيليا فأرسل إليهم عبد الرحمن العساكر مع القواد من قرطبة وانتصروا عليهم بفضل الله.

رابعاً: إن اعتبرنا إنقاذ الأخوان للمسلمين في الأندلس قرصنة، فاذاً بماذا نعتبر ما فعله النصارى بالمسلمين في محاكم التفتيش.

خامساً: إن مفهوم القرصنة عندهم يعتبر سلب ونهب، وما قام به الأخوان، كان رداً على ما قام به النصارى، أي في مفهوم القانون الدولي الآن معاملة بالمثل، بين أفراد ورعايا الدول بعضها البعض، ورضاء الدولتين بهذا الوضع هو إقرار به.

خلاصة القول رحم الله الأخوان بربروس، ونسأل الله أن يرزقنا سباقين يقودون الأمة

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تنجز الصعوبات، وبكرمه نتخطى العقبات، فالحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه، أن أتم علينا بفضله ومنه وكرمه إتمام هذا الكتاب الذي خضنا فيه غمار هذه الرحلة التاريخية وتلك التجربة العثمانية مع شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال تلك الإمبراطورية العظيمة التي بسطت قوتها في ثلاث قارات على مدار ما يزيد عن ستمائة عام، وقد سلكنا طريقنا منذ مرحلة التأسيس حتى مرحلة القوة وتأسيس الإمبراطورية وصولاً إلى مرحلة إعلان الخلافة العثمانية، ورأينا كيف كان لقبيلة صغيرة كل همها هو الترحال والتنقل والهجرة من مكان لآخر والهرب من الأعداء التتر أن تستقر ويكون لها الوطن بل تكبر وتنمو وتصل لأن تسود العالم أجمع وتكون المدافع عن المسلمين في شتى بقاع الأرض.

وقد عشنا في هذه الرحلة بمرحلة إعداد لها إذ تحدثنا عن الأتراك منذ البدايات الأولى لهم ورأينا دولة الكوك تورك وماذا حدث لها من أحداث وكيف انقسمت ثم أكملنا الحديث عن قبائل الترك حتى وصل بنا الحال إلى السلاجقة تلك الدولة التي بدأت عظيمة وحقت انتصارات على رأسها موقعة ملاذكرد التي قلبت موازين العالم أجمع، ولكن سرعان ما دب الضعف والوهن فيها نظراً لعوامل التشتت والتشرذم التي حلت بها، والخلافات المقيتة على السلطة والعرش رغم ظهور ذلك العدو في الأفق وهو التتار الذي اجتاح الأخضر واليابس خلال خمس سنوات بقيادة جنكيز خان ولم يهدأ لهم بال حتى سقطت تلك الدولة تماماً في موقعة كوسه داغ وضاعت هيبتها وسارت القبائل تستقر عنها.

وقد كان من بين القبائل التي استقلت عن الدولة السلجوقية آنذاك هي قبيلة القايي التي جاءت مشتتة ورأينا معها كيف كانت في محنة حالكة وتعلمنا أن الله تعالى يرسل من رحم المحن منحا ولكن لعباده الصالحين الذين يتقون الله ويبتغون رضوانه، ورأينا كيف كان اختيار أرطغرل لما رأى جيشين يتقاتلان الأول مسلم والثاني نصراني وكانت الغلبة للجيش النصراني، فلم يحسب الأمور حسابات دنيوية ولكن قرر الانتصار للمسلمين وكانت البداية لانطلاق دولة عظيمة إذ

بدأ التوسع على حساب الروم ولصالح السلطان علاء الدين، ولذلك لما جاء عثمان للحكم وجد مقومات تساعد على إنشاء دولة حقيقية فرسم الحدود وصك العملة ووسع الأمر بالناحية العلمية واهتم بالعلماء إلى أن توفي وقد أوصى بوصية رائعة تُخلد في التاريخ وقد عمل بها أبناءه من بعد وخصوصاً الأوائل منهم، وعلى رأسهم أورخان ذلك الحاكم الذي انطلق مجاهداً وكذلك ابنه سليمان الذي حقق مهمةً مستحيلة وفتح القلاع والحصون وتوسعت الدولة في عهده رحمه الله فأسس جيشاً عظيماً وهو الجيش الانكشاري والذي سيكون له تأثير كبير في الدولة بعد ذلك، بل ونقطة حسم لكثير من الصراعات، ثم وصل الحكم إلى السلطان مراد الأول الذي جاهد في الله حق جهاده وانتصر في موقعة قوصرة، ولقد كانت كل أمانيه هو أن يموت شهيداً، وكان الله أراد أن يلبي له أمله إذ انطلق جندي نصراني أدعى أنه يريد الإسلام على يدي السلطان وأخرج خنجراً مسموماً فقتل السلطان في أرض المعركة، وتولى الحكم من بعده ابنه الصاعقة الذي كان صاعقة على رؤوس الأعداء فانطلق يفتح هنا وهناك ويسد الثغور ويدافع كالأسد الجسور حتى اجتمعت عليه الأعداء في موقعة نيكوبوليس ولكنه خرج منها منصور، وقد كان في ذلك الوقت قد ظهرت قوة أخرى على الساحة وهى قوة تيمور لنك الذي كان طموحه هو إعادة ملك المغول مرة أخرى وقد حدث الصدام المروع بين تيمور لنك وبايزيد الصاعقة في موقعة وقف عندها التاريخ لفترات طويلة نظراً للأثر البالغ لها، والتي انتصر فيها تيمور لنك على الدولة العثمانية التي كادت أن تنتهي لولا فضل الله عليها أن أعمى تيمور لنك عن الأناضول وجعله ينشغل بحلمه وهو إخضاع الصين تحت ملكه حتى مات أثناء ذلك، إلا أن موقعة أنقرة كانت مدمرة للدولة العثمانية وجعلتها في موقف لا تحسد عليه إذ يترصد بها الأعداء من كل حذب وصوب سواء في الداخل أو الخارج، ناهيك عن إعلان الكثير لاستقلاله عن الدولة العثمانية بل وخروج الكثير من البلاد من حوزة الدولة العثمانية؛ ولذلك فقد كان الوقت صعب لأقصى الدرجات ويحتاج إلى رجل عظيم حكيم ليكون هو رجل المحنة وقد قيض الله السلطان محمد جلبي بعد أن انتهى من الصراع مع إخوته والذي استمر لمدة عشر سنوات وانتهى بتولييه زمام الأمور، فسعى بحكمة وحكمة وحذر لإعادة السيطرة مرة أخرى وإعادة هيبة الدولة من جديد بعد أن وصلت لمرحلة من الضعف الشديد والوهن الحالك، وقد ظهرت في عهده فتنة لرجل ضال مضل وهو بدر الدين الذي أراد أن يقوم بثورة على الدولة وبالفعل كاد أن ينجح وينشر أفكاره الفاسدة الضالة مثله والبعيدة كل البعد عن الإسلام ولكن الله

منّ على السلطان محمد جلبي بأن قضى على هذه المحنة وتلك الفتنة، ثم تولى من بعد رجل عظيم آخر وهو السلطان مراد الثاني الذي راح يتم ما بُدء وينظم الدولة بشكل أكبر وأفضل وينتصر هنا وهناك ويقضي على الفتن الداخلية ولكنه هُزم في موقعة نيش إلا أنه انتصر في موقعة وارنا التي سيطر بها مرة أخرى على مقاليد الأمور ضد الخطر الصليبي الذي يجتاح الديار العثمانية، ناهيك عن فتن داخلية ومحاولات للسيطرة على الدولة من الداخل، وبعد أن اطمأن على حال الدولة فعل فعلة لم نراها في غيره إذ تنازل عن الحكم مرتين لابنه الأمير محمد، وهذا إن دل فإنما يدل على عزوفه عن فتنة الحكم والسلطنة ورغبته في إرضاء الله تعالى بعيداً عن أطماع الدنيا، ولكن اضطرته الظروف للعودة من جديد إلى أن توفي رحمه الله وتولى من بعد ابنه الفاتح.

وبتولية الفاتح انطلقت الدولة إلى مرحلة جديدة إذ تم على يديه بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتحت تلك المدينة التي لطالما أرقت المسلمين وكانت سبباً لكثير من الدمار والخراب على الدول الإسلامية، وكان نعم الأمير هو ونعم الجيش ذلك الجيش، وانطلقت الدولة بعد ذلك إلى مرحلة الإمبراطورية، فأصبحت الإمبراطورية العثمانية التي فتحت الدول يميناً ويساراً ونشرت الإسلام أيما انتشار، ورأينا اهتمام الدولة العثمانية بالعلماء ووضعهم في مكانتهم الصحيحة إذ بذلك ترتقي الأمم وليس مثلما يحدث الآن من تقريب أصحاب الهيافات وتنفير أصحاب الرأي والعلم، ولذلك كان النصر المبين في عهد الفاتح الذي توفي وتولى من بعده ابنه بايزيد الذي حدث صراع بينه وبين أخوه جم انتهى بقتل جم وتولية بايزيد الثاني الذي كان مسالماً مع أعدائه وليس مثل والده وابنه سليم الذي ضغط على والده فتنازل عن الحكم له وبدأت الدولة عصر جديد من القوة والبأس الشديد.

إذ في عهد سليم الذي انطلق شرقاً وانتصر على ذلك الخطر الشيعي الصفوي الذي كاد أن يجتاح العالم الإسلامي بشكل كبير في محاولة لنشر المذهب الإثنا عشري الشيعي بالإكراه، بل وقتل من المسلمين ما لا يعد ولا يحصى على يد هذا القاتل الشرس المسمى الشاه إسماعيل الصفوي، فقيض الله السلطان سليم ليتصدى لهذا الخطر وتوج بنصر كبير في موقعة جالديران وأصبح اسمه يضرب في شتى بقاع الأرض، ثم تطرق بعد ذلك للماليك الذين تعاونوا مع الشاه

الصفوي وانتصر عليهم وضم مصر والشام لملكه وأعلن نفسه خليفة للمسلمين؛ وبذلك انتقلت الدولة العثمانية من مرحلة الإمبراطورية لمرحلة الخلافة الإسلامية وأصبح سليم أول من يجمع بين الخلافة والسلطنة، وقد ناقشنا في هذا الجزء مسألة الخلافة وشروطها وأوضحنا فيها من الأمور الكثير والتي يعزف كثير من الكتاب عن الكتابة عنها رغم أهميتها ولذلك حرصنا على توضيحها، حتى إذا جاءت الخلافة القادمة والتي ستكون على منهاج النبوة نكون على علم ووعي وفهم بما يدور حولنا من أمور ونستطيع أن نضع قدما على الطريق الصحيح وتكون اختياراتنا وفقا لما أراد الله سبحانه وتعالى.

وقد اختتمنا في حديثنا بقصة الأخوان بربروس وشهدنا معهم كيف يمكن لرجل واحد أن يقلب موازين الأمور إذ تحرك عروج تجاه البحر ثم سحب معه بعد ذلك إخوته وانطلق يظهر براعة فائقة هنا وهناك بل وينقذ كثير من مسلمي الأندلس التي سقطت على أيدي النصارى وأذاقوا المسلمين ويلات لا يعلم مداها إلا الله، فأنقذ الكثير والكثير من المسلمين الذين كانوا في سجون ومحاكم تفتيش داخل الكنائس؛ فذاع صيته إلى أقصى الدرجات حتى كان اللقاء بينه وبين السلطان سليم في مهمة مستحيلة ولكنه نجح بفضل الله فيها، بل وأعاد الكرة مرة أخرى وأخرى فأصبح أملا للضعفاء ولكنه استشهد في إحدى المعارك ومثل بجثته في دول أوروبا تيمنا بذلك النصر على هذا الرجل العظيم، الذي خلف من بعد أخوه خير الدين الذي حكم الجزائر وراح ينتصر هنا وهناك ويؤرق الأعداء من كل حذب وصوب، حتى صار اسم بربروس يبيت الرعب في صفوف الأعداء الذين اجتمعوا عليه في موقعة بروزا التي انتصر فيها رغم قلة العدة والعدد وأدخل السرور على قلوب المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي.

ومن هذا كله استطعنا أن نعرف أن للنصر عوامل وضوابط وسنن ما إن أثبتت فإن النصر سيكون حليفا لنا، وما إن بعدنا عنها لا بد أن نكون في حال مثلما نحن عليه الآن من تشرذم وشتات وضعف وهوان على الناس رغم أننا لسنا من قلة ولكننا كغثاء السيل ليس له قيمة بين الأمم، فرب همة أحييت أمة.

المراجع

- ١- إبراهيم حسنين، سلاطين الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التعليم ٢٠١٤م.
- ٢- إبراهيم حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، ط أولى.
- ٣- ابن تيمية، الولاية السياسة الكبرى في الإسلام، دار الوطن، الرياض، ط أولى ١٤١٧هـ.
- ٤- ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري
- ٥- ابن حزم، الاحكام في أصول الاحكام
- ٦- ابن عربشاه، عجائب المقدور في نوائب تيمور، مطابع النيل بالقاهرة ط أولى ١٢٨٥هـ.
- ٧- ابن كثير، البداية والنهاية، المكتبة التوفيقية، ط الخامسة ٢٠٠٨م.
- ٨- أحمد آق كوندوز، سعيد اوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة ٣٠٣ سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية.
- ٩- أحمد سالم على، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن ال ١٦، مؤسسة شباب ال جامعة ٢٠١١م
- ١٠- أحمد عبد الرحيم، أصول التاريخ العثماني
- ١١- إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ١٩٩٥م

١٢- أماني بنت جعفر بن صالح الغازي، الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية عرض ونقد وتحليل، رسالة دكتوراه جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة.

١٣- آيتاج أوزكان، السلطان محمد الفاتح، ترجمة أحمد كمال، دار النيل ٢٠١٦م.

١٤- البخاري

١٥- بسلم العسيلي، خير الدين بربروس، دار النفائس، بيروت، ط أولى ١٩٨٠م.

١٦- البغدادي، الفرق بين الفرق

١٧- بول كولز، العثمانيون في أوروبا—ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة العربية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

١٨- بيتر شوجر، أوروبا العثمانية في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة، ترجمة عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة.

١٩- تفسير الظلال

٢٠- الجزري، أسد الغابة، مكتبة الصفا، ط أولى ٢٠٠٧م.

٢١- جمال الدين فاتح الكيلاني، الدولة العثمانية رجال وحوادث، ترجمة زياد حمد الصميدعي، المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم، ط أولى ٢٠١٣م.

٢٢- جون باتريك، القرون العثمانية قيام وسقوط الإمبراطورية التركية، ناهد إبراهيم الدسوقي، منشأة المعارف ٢٠٠٢م.

٢٣- خليل اينالجيڪ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الارناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط أولي ٢٠٠٢م.

٢٤- دائرة المعارف الإسلامية

٢٥- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تهذيب محمد موسى الشريف، مؤسسة أم القرى، ط الثانية ٢٠٠٨م.

٢٦- راغب السرجاني قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ط الثانية عشر، مؤسسة اقرأ ٢٠٠٩م.

٢٧- روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط أولى ١٩٩٣م.

٢٨- زبيدة عطا، الاتراك في العصور الوسطي، دار الفكر العربي

٢٩- زكريا سلمان، قراءة جديدة في التاريخ العثماني،

٣٠- زكريا سليمان بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين التحالف الصليبي

الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي، ط الأولى، دار عالم المعرفة ١٩٩١م.

٣١- زياد أبو غنيمة، السلطان المجاهد محمد الفاتح

٣٢- زياد حمد الصميدعي، جمال الدين فالح الكيلاني، تاريخ الدولة العثمانية

رجال وحوادث، دار المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم، ط أولى

٢٠١٣.

٣٣- السرخسي، شرح السير الكبير

- ٣٤- سعد الخطيب، البطولة والفداء عن الصوفية
- ٣٥- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى
- ٣٦- سليمان البستاني، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، مؤسسة هنداوي للتعليم وال ثقافة ٢٠١٢م.
- ٣٧- سليمان الخليل، تاريخ القسطنطينية، دار صادر بيروت ط اولي ١٨٨٧م.
- ٣٨- سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار (وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة)، مكتبة الآداب، ط الأولى ٢٠٠٧م
- ٣٩- الشهرستاني، الملل والنحل
- ٤٠- الشوكاني، البدر الطالع،
- ٤١- صالح المنجد، فتاوي
- ٤٢- الصمصافي أحمد القطوري، إطلالة على ثقافة الترك وحضارتهم القديمة ٢٠٠٦م
- ٤٣- طاشكيري زادة، الشقائق النعمانية
- ٤٤- الطبري، دار الفكر
- ٤٥- عاشق زاده، ذيل الشقائق العثمانية، تحقيق عبد الرازق بركات، دار الهداية للنشر والتوزيع، ط أولى ٢٠٠٧م.
- ٤٦- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار صادر، ط أولى ٢٠٠٠م.

- ٤٧- عبد السلام كمال، مظاهر حضارية من الثقافة العثمانية، دار بروج، ط الأولى ٢٠١٧م.
- ٤٨- عبد الشافي محمد عبد اللطيف، بحوث في السيرة النبوة والتاريخ الإسلامي قراءة ورؤية جديدة، دار السلام، ط ثانية ٢٠٠٨.
- ٤٩- عبد العزيز إبراهيم العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، دار كنوز اشبيليا، ط رابعة ١٤٣٦هـ.
- ٥٠- عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية جولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الانجلو المصرية طبع بمطابع جامعة القاهرة، ١٩٨٠م.
- ٥١- عبد الفتاح حسن أبو عليه، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، دار المريخ، ط ٢٠٠٨م.
- ٥٢- عبد اللطيف عبد الله بن دهيش، قيام الدولة العثمانية، النهضة العربية الحديثة مكة المكرمة، ط أولى ١٩٨٨م.
- ٥٣- عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العباسية
- ٥٤- عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية، دار ابن حزم، ط الأولى ٢٠٠٤م.
- ٥٥- عزتو يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان، دار هنداي، ط أولى ٢٠١٤م.
- ٥٦- عطية صقر، فتاوي.
- ٥٧- على حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، ط الرابعة ٢٠٠٢م.

٥٨- على محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، دار المعرفة، ط السابعة ٢٠١٣م.

٥٩- على محمد الصلابي، دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، مؤسسة أقرأ، ط أولى ٢٠٠٦م.

٦٠- علي بخيت الزهراني، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجرية وأثارها في حياة الأمة، دار الرسالة للنشر والتوزيع مكة

٦١- فاتح اقجة، السلطان سليم الأول، ترجمة أحمد كمال، دار النيل، ط الأولى ٢٠١٦م

٦٢- فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد

٦٣- القرضاوي، كيف تتعامل مع السنة النبوية

٦٤- قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية من الخلافة إلى الانقلابات، ترجمة عاصم عبد ربه، المركز القومي للترجمة، ط أولى ٢٠١٧م.

٦٥- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ط أولى ٢٠١٢م.

٦٦- لبسور و. ويلد، آيالة الجزائر، ترجمة وتحقيق محمد جيجلي، دار الأمة للنشر والتوزيع، ١٨٣٥م.

٦٧- ماثيو اندرسون، تاريخ القرن الثامن عشر في أوروبا، ترجمة نور الدين حاطوم، دار الفكر المعاصر بيروت، ط أولى ١٩٨٦م.

٦٨-مجلة تاريخ وحضارة المغرب

٦٩-محمد ابن ابي السرور الصديقي البكري، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن

عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق ال قومية ٢٠٠٥م.

٧٠-محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة

٧١-محمد حسن العيدروس، التاريخ العسكري العثماني، دار الكتاب ال

حديث ٢٠١٦م.

٧٢-محمد سالم الرشيدى، السلطان محمد الفاتح، دار البشير، ط الثانية ٢٠١٣م.

٧٣-محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز بتاريخ الخلافة

الراشدة، ط الرابعة والعشرين، دار السلام ٢٠١٥م.

٧٤-محمد سهيل طقوش، الوجيز في التاريخ الإسلامى، دار النفائس، ط الخامسة

٢٠١١م.

٧٥-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس، ط

الثانية ٢٠١٢م.

٧٦-محمد سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، ط الثالثة

٢٠٠٩م.

٧٧-محمد سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة في خرسان وأيران والعراق، دار

النفائس، ط أولى ٢٠١٠م.

٧٨-محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على

الخلافة، دار النفائس، ط الثالثة ٢٠١٣م.

٧٩- محمد سهيل طقوش، تاريخ الممالك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، ط

الرابعة ٢٠١٥م

٨٠- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور

إحسان حقي، دار النفائس، ط اثنين وعشرين ٢٠١٢م.

٨١- محمد نصر، الإسلام في أسيا من الغزو المغولي دراسة في تاريخ العلاقات

الدولية والإقليمية

٨٢- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط الرابعة ٢٠٠م.

٨٣- مسند أبو داوود

٨٤- مسند الأمام أحمد

٨٥- مسند الروياني

٨٦- مصطفى ارمغان، التاريخ السري للإمبراطورية العثمانية، ترجمة عبد

القادر عبد الله، الدار العربية ناشرون، ط أولي ٢٠١٤م.

٨٧- المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير

٨٨- منصور عبد الحكيم، إمبراطور على صهوة جواده

٨٩- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطي، ترجمة سعيد عبد

الفتاح عاشور، دار النهضة العربية ١٩٧٢م

٩٠- مؤلف مجهول، تحقيق عبد الله حمادي، خير الدين بربروس، دار القصة

للنشر والتوزيع

٩١- نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس

٩٢- نجم الدين بيرقدار، العثمانيون حضارة وقانون، الدار العربية للموسوعات،

ط أولي ٢٠١٤م.

٩٣- نيقولو باربارو، الفتح الإسلامي للقسطنطينية يوميات الحصار العثماني

١٤٥٣م، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوي، دار عين للدراسة والبحوث

الإنسانية والاجتماعية، ط أولي ٢٠٠٢م.

٩٤- ه.ل. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هاشم،

وديع الضبع، دار المعارف، ط الثامنة.

٩٥- يلماز ازوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مؤسسة

فيصل للتمويل - ط أولي إستانبول ١٩٨٨م.

قائمة بمؤلفات الكاتب

- ١- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الدولة العثمانية (من الترحال إلى الخلافة).
- ٢- الدولة العثمانية من الخلافة إلى الانقلاب.
- ٣- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الجمهورية التركية.
- ٤- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الدولة السلجوقية.
- ٥- السلطان الفاتح (مؤسس الإمبراطورية العثمانية).
- ٦- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الدولة العباسية.
- ٧- شخصيات حق علينا معرفتها في ظلال الدولة الأموية.
- ٨- شخصيات أندلسية.
- ٩- السيرة النبوية.
- ١٠- شخصيات في ظلال السيرة النبوية.
- ١١- قصة الخلافة.
- ١٢- شخصيات في ظلال القرآن.
- ١٣- علماء لهم بصمة في التاريخ.
- ١٤- كتاب المقدمة.
- ١٥- وقائع وأحداث غيرت مجرى التاريخ.
- ١٦- أعرف عدوك.
- ١٧- دعوة للتعارف.
- ١٨- أفكار هدامة.

- ١٩- معارك إسلامية.
- ٢٠- عقبات في بناء الأمة.
- ٢١- قضايا معاصرة وقنابل موقوتة.
- ٢٢- فاتخذوهم قدوة.
- ٢٣- كشف الستار عن أقزام رُفِعَ قدرُهم في التاريخ.
- ٢٤- لنحطم أصنام القومية.
- ٢٥- الحجاب من وجهة نظر أخرى.
- ٢٦- الضريبة في ميزان التشريع الإسلامي.
- ٢٧- مواقف من حياة الصحابة.
- ٢٨- وقفات مع ردود بليغة في التاريخ.
- ٢٩- بني فتح (رواية).
- ٣٠- ٣١ من أذار (رواية).

الفهرس

المقدمة	٤
تاريخ الأتراك قبل الدولة العثمانية	١٨
أرطغرل بن سليمان شاه	٣٨
عثمان بن أرطغرل ووصيته الرائعة	٤٦
أورخان بن عثمان منشئ نواة الإسلام بأوروبا	٦٨
المجاهدون الثمانون عظماء منسيون	٨٣
مراد الأول (شهيد الميدان)	٨٩
بايزيد الصاعقة	١٠٠
تيمور لنك	١٢٣
السلطان محمد جلبي رجل المحنة	١٤٠
بدر الدين محمود بن اسرائيل (الزندق)	١٥٢
السلطان مراد الثاني	١٦٤
السلطان محمد الفاتح	١٨٥
الشيخ آق شمس الدين	٢٢١
بايزيد الثاني	٢٢٨
السلطان سليم الأول	٢٣٩

٢٧٨.....	الشاه إسماعيل الصفوي
٢٨٩.....	الأخوان بربروس
٣٢٠.....	خاتمة
٣٢٤.....	المراجع
٣٣٣.....	قائمة بمؤلفات الكاتب